

<http://www.library4arab.com/vb>



<http://www.library4arab.com/vb>

<http://www.library4arab.com/vb>



<http://www.library4arab.com/vb>

<http://www.library4arab.com/vb>



مخائيل ليرمونتوف

<http://www.library4arab.com/vb>

بطل من هذا الزمان



دار الادب

موسكو

ترجمة سامى الدرورى
رسوم فيودور كونستانتينوف

<http://www.library4arab.com/vb>

М. Лермонтов
ГЕРОЙ НАШЕГО ВРЕМЕНИ
Роман
На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

© دار «رادوغا» ، ١٩٨٤

Л $\frac{4702010100-162}{031(01)-85}$ без объявления

المقدمة ، في كل كتاب ، هي اول شيء
وآخر شيء ؛ تهدف اما الى شرح غاية الكتاب ،
واما الى تبريره والرد على ما عسى ان يوجه اليه
من نقد . ولكن القارئ لا يعنى ، لا بالهدف
الاخلاقي ، ولا بهجمات المجالات ؛ وهو لذلك
لا يقرأ المقدمات . ومن المؤسف ان يكون
الامر كذلك ، ولا سيما في بلادنا التي لا يزال
جمهورها جديدا بسيطا لا يفهم الحكايات ،
ما لم يجد فيها ، آخر الامر ، عظة اخلاقية .
فهو لا يكتشف المزاح ، في مجتمع راق وكتاب
جيد ، وان المدنية الحديثة قد ابتدعت سلاحاً
امضى ، ولكنه قاتل ، يسدد ، تحت ستار
من التملق ، ضربات صائبة لا سبيل الى تفاديها .
ان جمهورنا اشبه بريفي سمع حديث رجلين من
رجال الدبلوماسية يمثلان بلاطين متعادين ،

فاعتقد ان كلا منهما يخون حكومته ، ما دامت
تقوم بينهما الى الآن صداقة رقيقة .
لقد شقى هذا الكتاب ، مؤخرا بذلك النوع
من التصديقات الساذج لدى بعض القراء ، بل
ولدى المجالات التي تفهم الامور فهما حرفيا .
فاستاء بعضهم استياء فظيحا لا مزيد بعده لمستزيد ،
من تصويرنا نموذجا يبلغ من الابتعاد عن الاخلاق
ما بلغه «بطل من هذا الزمان» ؛ وقال آخرون ،
في كثير من الرقة والرهافة ، لا شك ان المؤلف
قد رسم صورة نفسه ، وصورة من يعرف من
الناس يا له من اتهام قديم تافه ! ان كل
شيء ليتجدد في روسيا ، الا هذه البلاهات .
وما اعسر ان تنجو حكاية من الحكايات ، مهما
تغرق في الخيال ، من اتهامها بانها ارادت ان
تسيء الى شخص بعينه .
ايها القراء الاعزة ان «بطل من هذا الزمان»
لهو صورة حقا ، ولكنه ليس صورة رجل واحد .
انه صورة تضم رذائل جيلنا كله ، وقد بلغت
كمال التفتح . قد تقولون لي مرة اخرى : ما
من انسان يمكن ان يبلغ هذا المبلغ من الفساد .

وجوابي : ترى لماذا تصدقون وجود جميع فجرة
المآسى والروايات الرومنسية ، ثم لا تصدقون
بان شخصا مثل بتشورين يمكن ان يكون مستمدا
الواقع ؟ وكيف تطيب لكم اخيلة افضع وارهب ،
ثم لا تلقى منكم صورة هذا الشخص ، حتى
ولو كانت خيالا ، قبولا ورضى ؟ ترى الا يرجع
ذلك الى ان هذه الصورة اصدق مما تحبون ؟ ..
ورب قائل منكم يقول : ان الاخلاق لا تجنى
من ذلك خيرا ؛ فعلى رسلكم . لقد طالما
غذى الناس بالحلوى حتى فسدت معدهم .
وينبغي ان يتناولوا الآن عقاير مرة وحقائق لاذعة .
ولا تظنوا مع ذلك ان مؤلف هذا الكتاب قد
دار في خلده يوما ذلك الحلم الدعى ، وهو
ان يقيم نفسه وصيا على الناس يصلح ما فسد
من اخلاقهم . وقانا الله شر الادعاء العريض .
وانما احببت على سبيل التفكه ان اصور انسان
هذا العصر ، كما فهمته ، وكما اتفق لي ان
لقيته في كثير جدا من الاحيان ، لسوء طالعى
ولسوء طالعكم . وحسى ان اشير الى الداء اما
وسائل البرء فعلمها عند الله .

الفصل الاول

١

<http://www.library4arab.com/vb>

غادرت تفليس على عربة من عربات البريد .
وكان متاعي كله حقيبة صغيرة تحتل نصفها
مذكراتي عن رحلتي في جورجيا . ومن حسن
حظك ايها القارئ الصديق ان معظم تلك المذكرات
قد ضاع ، ولكن من حسن حظي انني احتفظت
بالحقيبة مع اشياي الاخرى .
كانت الشمس قد بدأت تغيب وراء سلسلة
من الذرى التي يكسوها الثلج ، حين دخلت
وادي كوشاؤوري . وكان سائق العربة ، وهو رجل
اوسيتي ، يستحث الخيل في كل لحظة ، رجاء
ان يصل الى قمة جبل كوشاؤوري قبل الليل ،
وكان يقنى ملء حنجرتة . ان هذا الوادي لمكان
رائع حقا : فأيما تتجه ببصرك تر جبالا منيعة ،
والصخور الضاربة الى الحمرة يتشبث بها اللبلاّب
وتتوجها مجموعات من اشجار اللّلب ؛ ومنحدرات

وعرة صفراء تخدمها مجارى السيول . فاذا نظرت
الى اعلى رأيت اهداب الثلوج تسطع بلون الذهب .
واذا نقلت بصرك الى تحت رأيت نهر آراغفا ،
اتحدت امواهه بامواه نهر آخر لا اسم له ، يتدفق
صاحبا من مضيق اسود حافل بالضباب ، ثم
يمتد كخيوط من الفضة طويل ، ويسطع كحبة
فى الشمس .

فلما وصلنا الى سفح جبل كويشاوورى توقفنا
على مقربة من دكان « ، وكان هنالك نحو عشرين
جورجيا وجيليا فى جلبه ولغط . وكانت هنالك
قافلة من الجمال وقفت غير بعيد من ذلك المكان
لقضاء الليل . وكان عليّ ان اكثري ثيرانا تجر
عربتي على هذا الجبل الخطر ، فلقد كان الوقت
خريفا والجليد يغطى الجبال . وكان عليّ ان
اجتاز ما يقرب من فرستين « .
استأجرت ستة ثيران ، وبضعة رجال من
اهل البلد ، حمل احدهم حقيبتى على كتفيه ،

• الدكان فى القفقاس هو المطعم .

• الفرست يزيد قليلا عن الكيلومتر .

وراح الآخرون يساعدون في سير العربة ، ولكن
مساعدتهم هذه كادت تكون بالصراخ في الدوات
فحسب .

وأنت وراء عرتي اربعة ثران تجر عربة اخرى
بلا جهد ظاهر ، مع ان العربة تعج باحمال
كثيرة . فأدهشني ذلك . وكان يتبعها رجل يدخن
غليوننا صغيرا من كاباردا مزينا بالفضة . كان
الرجل يرتدي لباس ضابط بلا شارات على
الكتفين ، وعلى رأسه قبق شركسي . وكان وجهه
يدل على انه في نحو الخمسين من عمره .
وكانت بشرته السمراء تدل على ان شمس القفقاس
قد لفحته مدة طويلة ، وكان شارباه اللذان
ايضا من الشيب قبل الاوان لا يتناسبان مع
خطواته القوية وملامحه الحازمة . فاقتربت منه
وانحيت له ، فرد على تحيتي صامتا ، وسحب
من غليونه نفسا كبيرا . قلت له :
— اظن اننا نسير في طريق واحدة ؟
فانحني مرة ثانية ، صامتا ايضا ، فاستأنفت
اسأله :

— لعلك ذاهب الى ستافروبول ؟

— هو كما تقول . . . واحمل هذه الاشياء

كلها الى الادارة .

— هل لك ان تُفهمنى ، من فضلك ،

كيف تستطيع هذه الثيران الاربعة ان تجر عربتك

الثقيله ، بمثل هذه السهولة ، ثم لا تكاد

تقدر ثيرانى الستة التى يعاونها جميع هؤلاء الاوسيتين

ان تجر عربتي مع انها فارغة ؟

فابتسم ابتسامة مآكرة . وقال وهو ينظر الى

نظرة معبرة :

— اراهن على انك لا تقيم فى القفقاس

الا منذ مدة قصيرة .

قلت :

— منذ سنة .

فابتسم مرة اخرى . قلت :

— لماذا لا تجيب ؟

— اسمع . ان هؤلاء الآسيويين خبيثاء !

أتظن ان صراخهم هذا يفيد ؟ حاول ان تفهم

هذا الكلام الذى يجأرون به ! ان ثيرانهم وحدها

تستطيع ان تفهمه . لو كدنت عشرين ثورا ،

فلن تتحرك الثيران ، متى اخذوا يصيحون هذا

الصياح الذي يعرفونه . . . انهم ماكرون رهيبيون !
وماذا يمكن ان نأمل منهم ؟ انهم يحبون ان
يبتزوا من المسافرين مالا . . . لقد اسرفنا فى تدليل

هؤلاء اللصوص ! استرى انهم طالبون الك فوق
اجرتهم عطاء . ولكنى اعرفهم ، ولا ادع لهم

ان يخذعونى !
— أنت تخدم هنا منذ مدة طويلة ؟

فاجاب وهو ينتصب :
— نعم لقد خدمت منذ ايام الكسى
بتروفتش * . كنت ملازما حين وصل الى الجبهة .
وقد رُفِّعت مرتين اثناء مقاتلتى سكان الجبال
بقيادته .

— والآن ، انت ؟ . . .
— انا الآن انتمى الى الكتيبة الثالثة من
الجبهة . وانت ؟ هل يحق ان اسألك من انت ؟
فقلت له من انا .
ووقف الحديث عند هذا الحد ، وواصلنا
السير صامتين جنبا الى جنب . وفى قمة الجبل

هو بيرمولوف — جنرال روسى ، كان قائدا عاما فى
القفقاس (١٧٧٢ — ١٨٦١) .

وجدنا ثلوجا . كانت الشمس قد غابت ، واعقب الليلُ النهارَ فوراً على ما هو مألوف في الجنوب . ولكن كان سهل علينا ، من التمتع الثلج ، ان نميز الطريق الصاعدة ، ولو ببطء . وامرت بوضع الحقيبة في العربة ، وابدلت الثيران خيلاً ، وغرق بصرى مرة اخيرة في الوادى . الا ان ضبابا كثيفا كان يتصاعد من فجاج الجبل ، ويغطى الوادى بسحبه يتلو بعضها بعضا ، وما كان يرقى الينا اى صوت من تحت . واحاط بى الاوسيتيون صاحبين يطلبون عطاء . ولكن الضابط اوما اليهم بقسوة ، فغابوا بلمحة عين . قال صاحبي : — يا لهؤلاء الناس ! انهم لا يعرفون كيف يسمون الخبز بالروسية ، ولكنهم تعلموا ان يسألوك بالروسية : «سيدى الضابط ، هل لى منك بعطاء» . انى لأوثر عليهم رجال التتر ، فالتتر لا يشربون الخمرة ، فى اقل تقدير

وكان علينا ان نقطع فرستا قبل ان نصل الى المحطة التالية . كان كل شىء من حولنا ساكنا هادئا ، حتى ليستطيع المرء ان يتابع طيران الذبابة من سماع دندنتها . وكان على شمالنا

فج عميق بشكل ثغرة كبيرة سوداء ، وراءه وامامنا
ذرى الجبال ، وقد خددتها الغضون وغشيتها
الثلوج ، تبدو بلون ازرق قاتم ، وتتنصب في
الافق الشاحب الذى كان لا يزال يحتفظ بشيء
من التماعات الشفق . وكانت النجوم تنبعل
في السماء القاتمة نجمة نجمة ، ومن الغريب
انها لاحت لى اعلى مما نراها في بلادنا بالشمال .
وعلى حافتى الطريق ، تقوم الصخور سوداء عارية .
وهذى شجيرات تبرز هنا وهناك من تحت الثلج ،
ولكن ما من ورقة جافة تتحرك ؛ كان يحلو
لنا ، فى صمت الموت هذا الذى يرين على
الطبيعة ، ان نسمع شخير افراسنا الثلاث المكدودة ،
ورنين الاجراس الروسية تجلجل على غير اطراد .
قلت :

— سيكون الجو جميلا فى الغد !
فكان جواب الضابط ان أوماً باصبعه الى
جبل عال كان ينتصب امامنا . قلت :

— ما هذا الجبل ؟

— انه جبل الجود .

— وماذا تريد ان تقول ؟

— انظر كيف يتصاعد منه الدخان !

حقا ، لقد كانت تتصاعد من جنباته سحا

خفيفة من البخار ، وكانت تمتد على ذروته
غيمة سوداء ، كأنها من سوادها بقعة في السماء

<http://www.library4arab.com/vb>

وأمسينا نميز المحطة ، ونرى سقوف الاكواخ
التي تحف بها ، وتترأى لنا الاضواء المتراقصة ،
حين اخذت تهب ريح رطبة باردة ، وحين
اخذ الفج يئن ، واخذ يهطل رذاذ من المطر .
فما ان وضعت معطفي على كتفي حتى طفق
الثلج يهطل سبائخ كبيرة . ونظرت الى الضابط
الرئيس ممثلا ، فقال في مضض :

— سنضطر الى التلبث هنا طوال الليل ،

فمن المستحيل ان نجتاز الجبال في جو كهذا .
ثم التفت الى السائق يسأله :

— قل لي ، ايها الصديق ، هل يتهافت

الثلج من جبل كرستوفايا ؟

فاجابه الاوسيتي بقوله :

— لم يتهافت بعد يا سيدى ، ولكنه

يوشك ، يوشك .

ولما لم تكن فى المحطة غرف للمسافرين ،
اقتادونا الى كوخ مدخن نقضى فيه الليل . ودعوت
رفيق الطريق الى احتساء قدح من الشاى معى ،
فقد كنت املك غلاية من المعدن ، وهى سلواى

<http://www.library4arab.com/vb>

الوحيدة فى اسفلوى عبر القنقار .
كان الكوخ ملتصقا بالصخرة من احد جوانبه ،
وكانت هناك ثلاث درجات رطبة منزلقة تؤدى
الى الباب . فدخلت متلمسا ، واصطدمت ببقرة .
(ان الزريبة تقوم لدى هؤلاء الناس مقام حجرة
المدخل) . ولم اعرف الى اية ناحية اتجه ،
فها هنا خراف تشغو ، وها هنا كلب ينخر .
ومن حسن حظى ان ضوءا كايا فى ركن من
الاركان اتاح لى ان اكتشف فتحة اخرى تشبه
بابا ، فدخلت ، فاذا انا امام لوحة شائقة :
ان الكوخ الواسع الذى يسند سقفه عمودان اسودا
من الدخان ، كان يعج بالناس . وفى وسطه
تلتمع نار اوقدت على الارض ، والدخان الذى
تصده ريح آتية من فتحة السقف ، ينتشر كأنه
غطاء كثيف ، حتى لقد ظللت مدة طويلة لا
اميز شيئا . كانت هناك امرأتان عجوزان ، واطفال

كثيرون ، وجورجى نحيل ، وكانت تغطيهم جميعا
اسمال بالية ، وقد تحلقوا حول النار يستدفئون .
ولم يبق علينا ، نحن ايضا ، الا ان نجلس
على مقربة من النار ، وان نشعل غليونينا . وما
هى الا لحظة حتى انخبت النارية تغنى غنا غيبيا
الى القلب .

قلت للرئيس ، وانا اشير الى هذه المخلوقات
القدرة التى كانت تنظر الينا صامته بنوع من الحيرة :
— مساكين هؤلاء الناس .

— انهم اغبياء . هل تصدق ذلك ؟
انهم لا يجيدون اى عمل ، يعجزون عن تعلم
اى شىء . ان جماعتنا الكابارديين والتشتشينيين ،
على انهم من الصعاليك وقطاع الطرق ، يمتازون
بحرارة الدم فى اقل تقدير . اما هؤلاء فلا يميلون
حتى الى السلاح اى ميل . وما من واحد منهم
يملك خنجرا مناسبا ! انهم اوسيتيون وكفى !
— وهل عشت فى تشتشينا مدة طويلة ؟

— نعم ، لقد ظلت مع سرىتى عشر
سنوات ، بقلعة كامنى برود . هل تعرفها ؟
— سمعت عنها .

— يا ويلنا مما لقينا من هؤلاء الناس ايها
السيد ! الحمد لله على انهم هداوا الآن بعض
الهدوء . اما في ذلك الوقت فكان يكفي ان
تخرج عن المتاريس مسافة مائة خطوة حتى

تكون على يقين من ان شيطاننا رجيمًا . يتربص

بك ، فاذا ذهلت لحظة واحدة وجدت نفسك
وقد تلقفك حبل ينزلق على عنقك او تصيبك
رصاصة في نقرتك ! يا لخشونتهم وقوة بأسهم !
قلت له ، يدفعني حب الاستطلاع :

— لا شك ان مغامرات كثيرة وقعت لك .
— مغامرات ؟ . . . هه ! . . .

قال هذا ، واخذ يفتل شاربته الايسر ، مطرقا
حالما . واستبدت بي رغبة جامحة في استدراجه
الى سرد قصة من القصص ، وهي رغبة طبيعية
لدى جميع الذين يقومون برحلات ويسجلون
ملاحظات . وعلى الماء اثناء ذلك ، فتناولت
من حقبتى قدحين ملأتهما شايا ، ووضعت
احدهما امام صاحبي . فجرع جرعة ، ثم قال
كمن يحدث نفسه :

— طبعا وقعت لي مغامرات ! . . .

وملأتنى هذه الكلمات املا . كنت اعرف ان القفقاسيين الاقدمين يحبون ان يتكلموا وان يقصوا ، فذلك لا يتاح لهم الا قليلا : حتى لقد يقضى بعضهم مع سريره فى ركن مجهول

<http://www.library4arab.com/vb> من الارض خمس سنين طولك . ثم لا يسمع

خلال هذه السنين الخمس كلمة «عم صباحا» (لان الصول لا يحييهم الا بالصيغة الرسمية) . ومع ذلك فما اكثر الاشياء التى يمكن ان يتحدثوا عنها : انهم محاطون باناس همج يحلو للمرء ان يدرسهم ؛ والخطر يحف بهم فى كل يوم ؛ وقد تقع اغرب الحالات ، ومن المؤسف حقا انهم قلما يسجلون .

قلت لصاحي :

— هل لك بقليل من خمرة الروم تضيفها الى الشاي ؟ ان لدى روما ابيض ، من تفليس . . . وهذا مساء بارد .

— كلا ، فاننى لا اشرب . شكرا .

— لماذا لا تشرب ؟

— لاننى حلفت لن اشرب . ففى ذات

مرة ، وقد شربنا قليلا — كنت يومئذ ملازما

ثانياً — انطلقت اشارة الخطر فى الليل ، فمضينا الى مقدمة جنودنا نترنح قليلا . آه ما كان اشد حنق الكسى بتروفتش حين بلغه الامر ! لقد غضب يومئذ غضبا شديدا ، وكاد يقدمنا للمحاكمة امام مجلس حربى ثم انه ليتفق ان يبقى المرء سنة كاملة لا يرى خلالها احدا من الناس ، فاذا اخذ يشرب فقد اضاع نفسه . . . هذا امر لا مرء فيه .

فلما نطق بهذه الكلمات اوشكت ان افقد كل امل ، ولكنه استأنف كلامه يقول :
— من ذلك ان الشراكسة اذا شربوا البوزا * فى احتفال من احتفالات الاعراس او الدفن ، انتهى ذلك دائما بطعان . وفى ذات مرة ، لم استطع ان انجو الا بكثير من العناء ، رغم اننى كنت فى ضيافة امير موال .
— قصّ علىّ ما وقع .

— اليك ما وقع (وهنا حشا غليونه ونشق منه نفسا كبيرا وبدا يتحدث) : منذ ما يقرب

* البوزا — نوع من المشروبات الروحية القفقاسية .

من خمس سنين ، كنت مع سریتی فی قلعة
وراء التيريك . وفي ذات يوم من ايام الخريف
وصلت الينا شحنة من المؤن مع ضابط في نحو
الخامسة والعشرين من عمره ، قدم اليّ نفسه
بكايل ملاسه الرسمية ، وصرّح انه ارسل الي
هذه القلعة ليعمل بامرتي . كان الرجل شديد
النحول ، شديد الشحوب ، وكان جاكيتة جديدا
بحيث ادركت فورا انه حديث العهد بالقفقاس .
قلت له «لعلك قادم من روسيا ؟» ، قال :
«نعم سيدى الرئيس» ، قلت وانا اصافحه :
«يسعدنا ان تكون بيننا . وسينتابك الملل قليلا . . .
غير اننا سنكون اصدقاء ، سترى ذلك . وارجوك
ان تخاطبني باسمى على غير كلفة ، ان اسمى
مكسيم مكسيمتش ، ودع عنك هذا اللباس
الرسمى ، وتعال اليّ دائما بقبعة عادية» . ثم
امرت له بيت ، واقام فى القلعة .
— وماذا كان اسمه ؟

— كان اسمه جريجورى الكسندروفتش
بتشورين . أجرؤ ان اقول انه فتى طيب ، ولكنه
عجيب بعض الشيء . كان يتفق لنا ان ننفق

يوما بكامله فى الصيد ، تحت وابل من المطر
المنهمر فى البرد القارص ، فكان كل واحد
يرتجف ، وقد هدنا التعب هذا ، الأ هو .
وفى احيان اخرى كان يشكو ، وهو فى غرفته ،
من قبح الريح ، ويؤكد انه اصيب منه بنكاح .
اذا قرقع الباب ، ارتعش وامتقع لونه من الخوف ،
وفى ذات مرة رأته يصطاد خنزيرا برياً وحده .
وكثيرا ما يصمت ساعات طويلا لا تستطيع خلالها
ان تنتزع منه كلمة واحدة ، حتى اذا اخذ
يتحدث ، ضحكت ثم ضحكت حتى اغرقت
فى الضحك . نعم ، لقد كان مليئا بالغرائب ،
ولا شك انه كان غنيا ، لانه كان يملك اشياء
ثمينة كثيرة .

— وهل عاش بينكم مدة طويلة ؟
— سنة كاملة . سنة سأذكرها ما حيت .
لشد ما احدث لى من قلق ، عفا الله عنه .
هناك اناس كتب عليهم ان تقع لهم مغامرات
خارقة !
هتفت وقد ظهر على الاهتمام ، ورحت أملاً
قدح صاحبى :

— خارقة ؟

— اسمع واحكم بنفسك . كان يقطن ،

على بعد ستة فرسات من القلعة ، امير انعقدت
بيني وبينه اواصر الصداقة . وقد تعود ابنه ، وهو

صبي في الخامسة عشرة من عمره ، ان يأتي
الى القلعة يزورنا ، فكان يجيء كل يوم لأمر
من الأمور . وكنا في الحق ندلله كثيرا انا
وتشورين ، وكان هو عفريتاً حقا . يا لحيوته !

كان يستطيع من على صهوة جواده الذي يعدو
عدوا سريعا ان يلتقط قبعة من الارض ، وان

يصوب بندقيته الى هدف فيصيبه . ولكن آفته
الكبرى انه يحب المال كثيرا . حتى لقد وعده

بتشورين ذات يوم بدينار اذا هو سرق له من
قطيع ابيه احسن تيس ، فلما كان المساء من

الغد دخل علينا يجر التيس من قرنيه . وكنا
نحب في بعض الاحيان ان نناكده ، فاذا بعينه

تحتقان بالدم ، واذا هو يمد يده الى خنجره
على الفور . فكنت اقول له : «يا عزمت ، لن

تحمل رأسك على كتفك طويلا ! . . ولا بد
ان تحل به يوما كارثة !» .

وفي ذات يوم وصل إلينا أبوه الأمير بنفسه ،
يدعونا إلى حفلة زواج ابنته الكبرى . لقد كنا
أصدقاء . فكان يستحيل أن نرفض الدعوة ،
رغم أن الرجل تترى . وسرنا إليه ، فلما وصلنا ،
استقبلتنا الكلاب بنباح قوي ، وأخذت النساء
تخفي وجوهها إذ ترانا . واللواتي استطعن أن نرى
وجوههن لم يكن لهن خط من جمال . قال
بتشورين : « كان ظني في الشركسيات أنهن أجمل
من ذلك » . فاجبته مبتسما : « أنتظر ولسوف
تري » . كنت قد بيّت أمرا .

كان بيت الأمير يعج بالناس . فالشقيون ،
كما تعلم ، يدعون إلى حفلات الأعراس من
عقب ودب . واستقبلنا الناس في كثير من الاحترام ،
وقادونا إلى القاعة الكبرى . وحرصت على أن
أعرف أين يضعون خيلنا ، فليس يدري أحد
ما الذي يمكن أن يقع !

— وكيف يحتفل عندهم بالأعراس ؟
— الأمر بسيط ! يقرأ «الملا» آيات من
القرآن قبل كل شيء . ثم تقدم الهدايا للعروسين
واقربائهما جميعا . ثم يأكل الناس ويشربون

البوزا . وبعد ذلك يبدأ استعراض ألعاب الفرسان .
ولا بد ان يؤتى بشخص قدر ، يرتدى اسمالا ،
فيمتطي حصانا اعرج ، ويقوم بحركات مضحكة ،
يسلى بها الناس ! حتى اذا جاء المساء بدأ

في القاعة شئ بشيد ان يكون حفلة قهرس
<http://www.library4arab.com/vb>

فيأخذ عجوز فقير بالضرب على الاوتار الثلاثة
من آلة يسمونها . . . نسيت كيف يسمونها . . .
انها تشبه البالالايكما * عندنا ، فينهض الشباب
والصبايا يصطفون صفين متقابلين ، ويصفقون ،
ثم يتقدم الى وسطهم فتاة وفتى ، يتناشدان
بصوت رتيب ما يخطر على بالهما من ابيات
يرردها الناس بعدهما كأنهم جوقة . كنا جالسين
انا وبتشورين في صدر القاعة . وفجأة تقدمت
نحوه صغرى بنات صاحب البيت (لا تكاد
تبلغ السادسة عشرة من عمرها) ، وغتته — كيف
اقول ؟ — نوعا من المديح .

— ماذا قالت له على وجه الضبط ؟ هل

تتذكر ؟

* آلة موسيقية روسية وترية .

— قالت له ، تقريبا : «فرساننا الشبان

وسيمون واثوابهم مطرزة بالفضة ولكن الضابط

الروسي الشاب اجمل منهم وأبهى بريمه من ذهب
كأنه بينهم شجرة حور لكنه لن يكبر في بستاننا

ولن يزهر» فنهض بتشورين ، وحياها برفع
يده الى جبينه ثم الى قلبه ، ورجاني ان اترجم
لها جوابه ، لأننى اجيد لغتهم .

فلما ابتعدت همست فى اذن بتشورين أسأله :

— كيف تراها ؟

— فاتنة ! ما اسمها ؟

— اسمها بيلا .

كانت حقا فاتنة : فارعة القوام ، دقيقة

الخصر ، عيناها سوداوان كأنهما عينا غزال تنفذان

الى صميم القلب . ورأيت بتشورين يحلم ،

ولا يفارقها ببصره ، وكانت هى ايضا تختلس

النظر اليه كثيرا . ولكنه لم يكن الشخص الوحيد

المعجب بالاميرة الجميلة . فلقد كانت هنالك

عينان اخريان تسددان اليها من احد اركان الغرفة

نظرة ساكنة حارة . انه كازيتش ، احد الذين

اعرفهم منذ مدة طويلة . كان لا يمكن ان

نعرف أهو خاضع ام متمرد ؟ كانت تحوم حوله
شبهات كثيرة ، ولكنه لم يفاجأ مرة واحدة
متلبسا بالجرم . وكان يقود الى القلعة فى بعض
الاحيان شيها نشتريها منه بسعر غير باهظ .
ولكن المساومة كانت مستحيلة ، فهو لا
يخفض السعر الذى يطلبه مثقال ذرة . . . ولان
يموت خير عنده من النزول عن ذلك السعر .
قالوا انه كثيرا ما كان يمضى مع الابريكيين *
الى ما وراء الكوبان . والحق ان هيئته هيئة
رجل من رجال العصابات : كان قصيرا ،
نحيلا ، معروق المنكبين . وكان كالشيطان خفة
وسرعة حركة . وكنت لا ترى قميصه الا ممزقا
مرقعا ، ولكن اسلحته كانت مرصعة بالفضة .
وكانت ألسن جميع الناس فى كاباردا تكيل
المديح لحصانه . والحق ان من الصعب على
المرء ان يتخيل حصانا اجود من ذلك الحصان .
كان جميع الفرسان يحسدونه عليه . وقد حاول

* ابريك — باللغة الأوسيتية يعنى قاطع الطرق ، وقد
اصبح الناس يطلقون هذا الاسم على سكان الجبال ابان الحرب
القفقاسية ، اولئك الذين كانوا يقاومون الجيش الروسى .

بعضهم غير مرة ان يسرقه ، دون ان يظفر
بطائل . ما زلت اتخيل ذلك الحصان
حتى لكأني اراه . كان اسود فاحماً ، وكانت
عراقيه دقيقة كأنها الحبال ، وكانت عيناه لا
تقلان جمالاً عن عيني بيلا . اما قوته فحدث
عنها ولا حرج ! كان يستطيع ان يعدو مسافة
خمسين فرستا بلا توقف . وكان مروّضا مطواعا
يتبع صاحبه كالكلب ، بل كان يعرف
صاحبه من صوته . وكان كازبتش لا يربطه ابدا .
كان الحصان يليق برجل من رجال العصابات . . .
لم ار كازبتش مكفهر الوجه كما رأيته في
ذلك المساء . ولاحظت انه يرتدى تحت قميصه
زرذا . قلت في نفسي : «لأمر ما لبس كازبتش
زردا ، فلا شك انه بيت امرا» .
كانت الحرارة خانقة في الكوخ . فخرجت
اتنشق الهواء الرطب . وكان الليل قد خيم على
الجبال ، واخذ الضباب يغشى الفجاج .
وخطر بيالى ان اقترب من السقيفة ، حيث
ربطت خيولنا ، لاطمئن الى انها تعتلف ، ثم
ان الحيطه واجبة . . . كان لي حصان جميل ،

رآه كثير من الكاباردين ، فهتفوا من العجب :

«ياكشى تخيه ، تشيك ياكشى» ! *

وسرت احاذى السياج ، فاذا انا اسمع صوتين على حين غرة . كنت اعرف احد

هذان الصوتين معرفة تامة ، انه صوت ذلك المتسكع عزمت ، ابن صاحب الدعوة ، وكان

الصوت الآخر لا يتكلم الا قليلا ، وكان خافتا . تساءلت : «ترى فيم يتحدثان ؟ أعن حصانى

مثلا ؟» ثم جثوت عند السياج ، واصخت بسمعى ، احاول ان لا تفوتنى كلمة مما يقولان .

ولكن ما يصل الىّ من البيت من غناء وجلبة وصخب كان يصمنى فى بعض اللحظات عن

سماع هذا الحديث الذى احرص على سماعه كل الحرص .

قال عزمت :

— ما اجمل حصانك ! لو كنت الأمر

الناهى فى هذا البيت ، وكان لى ثلاثمائة فرس ،

لأعطيتك نصفها ثمنا لحصانك يا كازبتش !

* حصان جميل ، جميل جدا .

«ها . . . انه اذن كازبتش . . .» وتذكرت الزرد
الذى يرتديه تحت القميص .
قال كازبتش بعد لحظة من صمت :
— ليس له فى كاباردا كلها نظير . . . ذهبت

ذات مرة مع الابريكين ، وراء تيرياك ، نغزو الروس ،
ونسلب خيولهم ، ولكن الحظ لم يسعفنا ،
فتفرق شملنا ، وراح يطاردنى اربعة من القوزاق *
كنت اسمع من ورائى صراخ الكفار وشتائمهم .
وكانت امامى غابة كثيفة . فانبطحت على سرجى ،
اتكلت على الله . . . لاول مرة فى حياتى أسأت
الى حصانى اذ ضربته بالسوط . . . فراح يشق
طريقه بين اوراق الشجر كالطير . كان الشوك
يمزق ثيابى ، وكانت اغصان الدردار اليابسة تضرب
وجهى ضربا شديدا . وحصانى يقفز فوق ارومات
الاشجار المقطوعة ، ويقتحم صدره الادغال
اقتحاما . كان من الافضل ان ادعه عند طرف
الغابة ، وان امضى على قدمى اختئ بين
الاشجار ، ولكن قلبى لم يقبل ان انفصل عن

* القوزاق — قبل ثورة اكتوبر ، فئة عسكرية كانت فى
خدمة الحكومة القيصريية .

الحصان ، وجزاني النبي على ذلك خيرا . . .
وأزت رصاصات فوق رأسي ، وكنت اسمع
وقع اقدام القوزاق وقد ترجلوا يعدون ورائي . . .
ثم اذا بأخدود عميق يظهر امامي على حين
غرة ، فتدب حصاني لحظة ثم وثب . ولكن
رجليه انزلقتا على الحافة الثانية من الأخدود ،
فظل معلقا بيديه . فتركت الزمام ، وتدحرجت
في الأخدود . واستطاع حصاني ان ينقذ نفسه ،
وان يستأنف عدوه . . . ورأى القوزاق كل ما وقع ،
ولكن لم ينزل احد منهم ليبحث عني ، ولعلمهم
اعتقدوا انني مت . وسمعتهم ينطلقون في ملاحقة
حصاني كاراخيز . كان قلبي يدمى . واخذت ازحف
على الاعشاب الكثيفة في الاخدود . ثم نظرت
فاذا هي نهاية الغابة . لقد انطلق عدد من
القوزاق السهل . وكان حصاني يعدو امامهم ،
وهم يلاحقونه صارخين . وظلوا يطاردونه مدة
طويلة طويلة ، حتى اوشك احداهم ان يقبض
عليه بالحبل مرتين . كنت ارتعد فخفضت عيني ،
واخذت ادعو . ثم نظرت بعد لحظة فاذا كاراخيز
ينطلق سريعا حرا كالريح ، ناشرا ذيله ، والكفرة

يتقاطرون في السهب على جيادهم التي انهكها
التعب فعجزت عن مواصلة العدو . اقسام لك
بالله اني اقول الحقيقة ، الحقيقة صرفة بلا
زيادة ولا نقصان ! لقد بقيت في الاخدود حتى

ساعة متأخرة من الليل . وفجأة — هل تجدني

ذلك يا عزمت ؟ — سمعت في الظلام وقع حوافر
حصان يعدو على حافة الاخدود . . . انه ينخر ،
ويصهل ، ويضرب الارض بسنابكه : عرفت
صوت حصاني كاراخيز . . . انه هو ، رفيقي
الامين ! . . . ومنذ ذلك الحين لم نفترق قط
يوما .

وسمعت كازيتش يربت على عنق حصانه
الدقيقة ، ويناديه بأرق الاسماء . قال عزمت :
— لو كنت املك الف فرس لبادلتك بها
على كاراخيز .

فاجابه كازيتش بعدم اكتراث :

— وما كنت لاقبل ، كلا .

قال عزمت وقد رق صوته :

— اسمع يا كازيتش ، انت رجل شهم ،

وفارس شجاع ، في حين ان ابى يخاف من

الروس ، يمنعني من المضي الى الجبال ؛ اعطني
حصانك افعل لك ما تريد : اسرق لك من
ابي بندقيته ، وسيفه ، وكل ما تشتهي . . .
وانت تعلم ان سيف ابي دمشقى اصلى ، يكفى
ان تلمس شفرته الجسم حتى تنفذ في اللحم من
http://www.library4arab.com/vb

تلقاء نفسها ، لا تبالى زردا كزردك !
وصمت كازبتش ، فاردف عزمت يقول :
— حين رأيتك على صهوة حصانك اول مرة ، كان
يتشنى ويتوثب ويرتعش منخراه ، وتخرج حوافره
من الصخر شررا . لا استطيع ان اصف لك
شعورى يومئذ . اصبحت كل شىء بعد ذلك اليوم
يشير فى نفسي الاشمئزاز . احقرت اجود خيول
ابي ، واصبحت استحى ان امتطيها ، ويحرقنى
الشوق الى حصانك كاراخيز . اصبحت اقبع
اياما بكاملها على صخرة ، استعرض بخيالى
حصانك الاسود ، واتصور شموخه ، وظهره
اللين ، المستقيم كالسهم . وأراه يُغرق فى
عينى نظرة عينيه الحادتين ، كأنه يهتم ان يكلمنى .
يا كازبتش ، سأموت ان لم تبعننى هذا
الحصان . . . — قال عزمت ذلك بصوت مرتعش .

وبدا لي انه يبكي . يجب ان اذكر لك
انه كان عنيدا لا يشبهه في عناده احد ، يستحيل
ان تنهطل دموعه لأى سبب من الاسباب ،
حتى منذ كان اصغر سنا ، والين عودا .

وسمعت شيئا يشبه ان يكون ضحكة يرد بها
كازيتش على بكاء صاحبه . واردف عزمت يقول
بصوت حازم :

— اننى مستعد لكل شىء . هل تريد ؟
سأسرق لك اختى . آه ما اجمل رقصها ، ما
اجمل غناءها ! وانها لتطرز بالذهب تطريزا
يخطف العقول . ان سلطان الترك نفسه لا يملك
مثلا . . . هل تريد ؟ انتظرنى غدا فى الفج
عند مجرى السيل : فسمر من هناك بحجة
الذهاب الى القرية المجاورة ، فتأخذها . . . ألا
تساوى بيلا حصانك ؟

ولزم كازيتش الصمت طويلا ، وكان جوابه
فى آخر الامر انه اخذ ينشد اغنية من الاغانى
القديمة بصوت خافت :

فى قرانا كثير من حسان الصبايا ،
تلمع عيونهن فى الظلام كالنجوم .

ما اجمل ان نهواهن !
ولكن الحرية العارمة اجمل . . .
بالذهب يمكن ان يشتري المرء اربع نساء ،
ولكن الحصان الجواد لا ثمن له :
فهو يسابق الرياح في السهوب ،

<http://www.library4arab.com/vb>

وعبثا كان عزمت يضرع اليه ويتملقه ويبكي
ويقسم الايمان . وضاق كازبتش ذرعا به في
آخر الامر ، فقاطعه قائلا :
— اذهب ايها الغلام ، فأنت مجنون !
أأنت تستطيع ان تركب حصاني ؟ يمينا لو ركبته
لرماك على الارض ودقّ عنقك قبل ان تمضي
به ثلاث خطوات .
فهتف عزمت وقد ثارت ثائرتة ، وبلغ منه
الغضب كل مبلغ :
— انا ؟

وسمعت شفرة خنجره ، خنجر الطفل ،
تصلّ على زرد كازبتش . فدفعه كازبتش بيده
القوية ، فاصطدم بالسياج اصطداما عنيفا اهتر
منه السياج . قلت في نفسي : «ستبدأ المعركة !»

وهرعت الى الاسطبل ، فلجمت الحصانين ،
واخرجتهما من الردهة الخلفية . وما انقضى على
ذلك دقيقتان حتى كان البيت قد انقلب عليه
سافله ، ذلك ان عزمت سارع ، فمزق الجلباب ،
يعلن ان كازيتش اراد ان يقتله . لقد وثب جميع
الناس الى بندقياتهم ، واستعرت نار المعركة .
واصبحت لا تسمع الا صراخا وضجيجا وطلقات
الرصاص . ولكن كازيتش كان قد وثب الى
حصانه ، ومرق بين الناس كالسهم وهو يهز
بسيفه .

قلت لبشورين وانا اجره من ذراعه : «اعتقد
انه من الأفضل أن نبارح هذا المكان حالا :
الهبزيمة ثلثا الغنيمة» .
— انتظر ، اريد ان ارى كيف ينتهى هذا
كله .

— تستطيع ان تكون على يقين من ان النهاية
سيئة ! ان الامر يجرى دائما هكذا عند هؤلاء
الشرقيين : يسكرون بالبوزا ، ثم تبدأ المذبحة .
ووثب كل منا الى حصانه ، ومضينا نعدو .
قلت للرئيس وقد نفذ صبرى :

— وماذا وقع لكازبتش ؟
— وما عسى ان يقع لهؤلاء الناس ؟ ان
كازبتش قد لاذ بالفرار !
قال ذلك وهو يفرغ قدحه .

<http://www.library4arab.com/vb>

— الحق اننى لا ادرى . ولكن هؤلاء الناس
يتحملون ويكابرون . رأيت منهم من ثقت جسمهم
اسنة الحراب حتى صاروا كالغربال ، ثم ظلوا
يهزون اسيافهم .

وبعد لحظة من صمت استأنف الرئيس كلامه ،
وهو يضرب الارض بقدمه ، قائلاً :

— لن اغفر لنفسى مدى الحياة تلك الخطيئة
التي ارتكبتها حين عدنا الى القلعة . لقد قصصت
على بتشورين كل ما سمعته من وراء السياج .
فأخذ يضحك— هذا الماكر !— ولكنه كان قد
بيت امرا . . .

— ماذا بيت من امر ؟ ارجوك ان تقص
على ذلك !

— ما دمت قد بدأت ، فيجب ان استمر .
وصل الينا عزمت بعد انقضاء اربعة ايام على ذلك

الحادث . وعلى عادته ، دخل الى بتشورين
الذى كان يهدى اليه شيئا من الحلوى دائما ،
وكنت ساعتئذ هناك ، فدار الحديث عن الخيل .
وأخذ بتشورين يكيّل المديح لحصان كازيتش ،
قائلا انه نشيط رشيق كالغزال ، وليس في الدنيا
كلها حصان يدانيه .

كانت عينا الترى الفتى تلتمع . ولكن لم
يبدا على بتشورين انه كان يلاحظ ذلك . وحاولت
عبثا ان اصرف الحديث الى شيء آخر ، فكان
بتشورين يرده دائما الى الكلام عن حصان كازيتش .
واستمرت الحال على هذا المنوال ، فكلما جاء
عزمت الى القلعة دار الحديث عن حصان كازيتش .
ولاحظت بعد ثلاثة اسابيع ان الفتى صار ممتقع
اللون ، هزيل الجسم ، كالعشاق الذين تحدثنا
عنهم الروايات . ولم افهم من ذلك كله شيئا . . .
لاننى لم ادرك سر الامر الا فيما بعد . لقد
اهاج بتشورين رغبة الفتى فى الحصان ، حتى
اصبح الفتى قادرا على ان يقذف بنفسه الى
الماء . . . وقال له بتشورين يوما :
— اننى ارى ، يا عزمت ، ان هذا الحصان

يعجبك كثيرا والحق أنك لن تراه أكثر مما
تستطيع ان ترى عنقك ! ولكن قل لي ، ماذا
تعطى لمن يهدى اليك هذا الحصان ؟
قال عزمت :

<http://www.library4arab.com/vb> كل ما يريد .

— سوف أعطيك هذا الحصان اذن . ولكن
على شرط : أن تحلف أنك ستحقق هذا
الشرط

— حلفت احلف انت ايضا .
— ليكن ما تريد . احلف ان الحصان
سيكون لك اذا سلمتني اختك بيلا : ان
كاراخيز هو مهرها . هل تعجبك الصفقة ؟
وصمت عزمت .

— الا تريد ؟ لك ما تشاء . كنت احبك
رجلا ، ولكنني ارى الآن أنك ما زلت طفلا .
انت اصغر سنا من ان تمتطي صهوة جواد .
واحمر عزمت ، ثم قال :

— وای ؟
— ألا يغيب عن البيت ابدأ ؟
— يغيب

— هل توافق ؟ . . .
فقال عزمت ، وقد امتنع لونه حتى صار
كالميت :

— اوافق ، ومتى تريد ذلك ؟

متى سيحس كازيتش لقد وعدنا ان
يأتينا بعشرة خراف . الباقي على . ولكن لا تنس
وعدك يا عزمت !

وهكذا تمت الصفقة . . . يا لها من صفقة
وضيعة ذميمة ! صارحت بتشورين بذلك فيما
بعد ، ولكنه اكتفى بان قال : ينبغي لهذه
الشركسية المتوحشة الصغيرة ان تعد نفسها سعيدة
بالزواج من رجل مهذب مثلي . (لاحظ ان
بتشورين سيعد زوجها رغم كل شيء) . ثم ان
كازيتش لص تجب معاقبته بما يستحق ان يعاقب
به . قل لي بريك : كيف يمكنني ان اجيب
على هذا الكلام ؟ فقد كنت في ذلك الحين
اجهل كل شيء عن المؤامرة التي بيتاها . وفي
ذات يوم ، جاء كازيتش يسألني هل بنا حاجة
الى خراف وعسل ، فأمرته ان يأتينا بالخراف
والعسل غدا .

وبادر بتشورين فأبلغ عزمت النبأ . قال له :
— سيكون كاراخيز غدا في حوزتى . فاذا
لم تجئنى بأختك هذا المساء ، فلن ترى
الحصان . . .

<http://www.library4arab.com/vb> فاجابه عزمته بقوله

— نعم !
ومضى الى القرية عدوا .
وفي المساء تناول بتشورين اسلحته وخرج
من القلعة . اما كيف ائتمرا على هذا كله ،
فذلك ما اجهله . المهم انهما عادا الى القلعة
في الليل معا ورأى الخفير على سرج عزمت امرأة
شد ذراعها وساقها بوثاق ، واسدل على وجهها
حجاب .

فسألت الرئيس قائلا :

— والحصان ؟

— انتظر لحظة ، فقد وصلنا الى الحديث
عن الحصان . فى البكرة من صباح الغد وصل
كازبتش يسوق امامه عشرة خراف يريد ان يبيعها ؛
فربط حصانه عند السياج ودخل على . فقدمت
له قدحا من الشاى ، فهو ، على انه من قطاع

الطرق ، صديقي .

وتجاذبنا اطراف الحديث فى امور شتى . . .
وفجأة رأته يرتجف ، ويتبدل وجهه ، ويقفز
الى النافذة . كانت النافذة لسوء الحظ ، تطل

على الباحة الخلفية . قلت له :
<http://www.library4arab.com/vb>

— ما بك ؟

قال وهو يرتعد :

— حصانى ! . . حصانى ! . .

وسمعت وقع الحوافر حقا .

— لا شك ان احد القوزاق يصل الى القلعة .

فزأر يقول :

— لا ! «اوروس يامان ، يامان !» * .

ثم وثب الى خارج الغرفة كالفهد ، ويقفزتين
صار بالباحة . وسد الخفير عليه باب القلعة ببندقيته ،
ولكنه قفز فوقها واخذ يركض فى الطريق ، فرأى
عزمت يعدو بالحصان القوى الجبار كاراخيز وسط
عاصفة من العجاج ، وقد ابتعد كثيرا . فلم
يتمهل ، بل صوب ببندقيته واطلق النار . وتوقف

* روسى حقير ، حقير !

لحظة فعرف ان رصاصته اخطأت الهدف ،
فاطلق صرخة حادة وحطم بندقيته على صخرة ،
والقى بنفسه على الارض ينتحب كطفل . . . وهرع
رجال القلعة ، وتحلقوا حوله ، ولكنه لم ير
احدا . وانذوا جاثونهم على الجدران ، ثم قفلوا

راجعين . وامرت بان يوضع ثمن الخراف لكازبتش
الى جانبه . فلم يمسه ! كان مستلقيا على الارض
كالميت ، وقد تمرغ وجهه بالتراب . وصدقني
اذا قلت لك : انه ظل على هذه الحال طوال
الليل ، حتى اذا طلع الصباح ، عاد الى القلعة
يسأل ان يسمى له الشخص الذى خطف الحصان .
وكان الخفير قد رأى عزمت يفك وثاق الحصان
ثم يمضى به عدوا ، فلم يجد من الضرورى
ان يخفى عنه اسمه . فلما سمع كازبتش اسم
عزمت ، طار الشرر من عينيه ، واتجه نحو
القرية التى يعيش فيها ابو عزمت .
— ثم ماذا ؟

— انه لم يجد الاب فى البيت ، فلقد
سافر الاب ، وسيغيب ستة ايام والا فهل كان
يتاح لعزمت ان يقتاد اخته ؟

ولما عاد الاب من رحلته لم يجد ابنته
ولا ابنه . كان عزمت يقدر عاقبة عمله ، ويعرف
ان ما فعله يمكن ان يكون جزاؤه الموت .
ولم ير احد عزمت بعد ذلك . لعله التحق
بعضامة من الابرىك ، ثم هلك فى مكان ما
وراء التيرىك او الكوبان نهاية يستحقها ! . . .
اعترف ان ذلك كله ازعجنى كثيرا . وحين
علمت ان الشركسية عند بتشورين ، وضعت
شارة رتبى العسكرية على كطفى ، وتناولت سيفى ،
وذهبت اليه .

كان مستلقيا على سريره فى الغرفة الاولى ،
وقد وضع احدى يديه تحت عنقه ، وامسك
بالاخرى غليونه المنطفى . وكان باب الحجرة
الثانية مغلقا ، والمفتاح ليس على القفل . رأيت
هذا كله بلمحة واحدة واخذت اسعل واضرب
نعلّى بالارض ، ولكنه تظاهر بانه لا يسمع .
فقلت بلهجة صارمة :

— ايها السيد الملازم الثانى ، ألا ترى اننى

هنا ؟

— ها ! اهلا وسهلا بك يا مكسيم

مكسيمتش ! هل تريد غليوننا ؟

قال ذلك دون ان ينهض .

— عفوا ! لست مكسيم مكسيمتش ، بل

انا رئيسك !

— سيان . هل تريد قدحا من الشاي ؟

ليتك تعرف الامر الذى يعذبني وبرهقني .

قلت وانا اقترب من السرير :

— اعرف كل شيء .

— حسن انك تعرف كل شيء ، ذلك ان

مزاجي لا يساعدني الآن على الكلام .

— ايها السيد الملازم الثانى ، لقد اقترفت

عملا ربما سئلت عنه انا ايضا . . .

— دعك من هذا الكلام ! ألم نتعود ان

نتقاسم كل شيء ؟

— كفاك مزاحا ، سلمنى سيفك ، من

فضلك ! . .

— ميتكا ، هات السيف ! . .

وجاءنى ميتكا بالسيف . فلما فرغت من

واجبى على هذه الصورة جلست على السرير

وقلت :

— اسمع يا جريجورى الكسندروفتش ، اعترف بان ما فعلته اساءة !

— اى اساءة تعنى ؟

— انك خطفت بيلا ! لا شك انه ذلك

الوغد عزمت ! هيا ، اعترف

<http://www.library4arab.com/vb>

— ولكنها تعجبني ! . .

ما عسى ان اجيب على هذا الكلام ؟ لقد

صمت ، ولكننى قلت بعد لحظة :

— اذا طلبها ابوها فيجب ان تردها اليه .

— لا ! لا يجب .

— لكنه سيعرف اخيرا انها هنا .

— وكيف يمكن ان يعرف ذلك ؟

ومرة اخرى ، لم اجد ما اجيب به على

كلامه . فقال بتشورين وهو ينتصب قائما :

— اسمع يا مكسيم مكسيمتش ، انت

رجل شهيم ، واذا نحن رددنا الفتاة الى ذلك

المتوحش فسيقتلها او يبيعها . ما وقع قد وقع .

وانما ينبغى الآن ان لا نفسد كل شىء بسدى .

دعها عندى ، واحتفظ بسيفى

— ارنىها على الاقل .

— انها وراء هذا الباب . ولكننى عبثا
حاولت ان اراها اليوم . انها قابعة فى ركن من
اركان الحجرة . وقد اسدلت عليها حجابها .
انها لا تتكلم ، ولا تنظر الى احد . انها كثيرة
الخوف كالغزال . لقد دعوت زوجة صاحب الدكان
الى خدمتى اليوم ، فهى تعرف اللغة التترية ،
وسوف تعنى بالفتاة ، وتعودها على فكرة انها
لى . ذلك انها لن تكون لاحد غيرى .

قال تلك الجملة الاخيرة وهو يضرب المنضدة
بقبضة يده . وافقت على كل شىء ، وهل
يمكن ان افعل غير ذلك ؟ ان هناك اشخاصا
يضطر المرء دائما الى الموافقة على ما يريدون .
قلت لمكسيم مكسيمتش :

— وبعد ذلك ؟ هل استطاع ان يروضها
وان يجعلها انيسة ام انها ضوت فى سجنها
حينئذ ؟

— حينئذ ؟ دعك من هذا الكلام ! لقد
كانت ترى ، وهى فى قلعتنا ، الجبال التى
كانت تراها وهى فى قريتها . وهل يحتاج هؤلاء
المتوحشون الى اكثر من ذلك ؟ وكان بتشورين

يقدم اليها فى كل يوم هدية جديدة . فكانت
فى اول الامر ترفض الهدايا صامته متكبرة .
واستفادت من ذلك كله المرأة التى عهد اليها
بخدمتها ، فازدادت من ذلك فصاحة وبلاغة .
آه من الهدايا كم تفعل فى النساء ! اى شىء
ترفض امرأة ان تفعله من اجل خرقة ملونة ؟ ! .
ولكن دعنا من هذا الآن . لقد تعب بتشورين
كثيرا . وكان يتعلم اللغة التترية اثناء ذلك ،
وبدأت هى تفهم اللغة الروسية . وتعودت شيئا
فشيئا ان تنظر اليه ، فكانت تنظر اليه فى اول
الامر من تحت ، ثم اصبحت تنظر اليه بعد
ذلك من جانب . ولكنها ظلت حزينة كاسفة
البال ؛ وكانت تغنى بصوت خافت ، حتى
ان الكآبة كانت تتسرب الى نفسى انا ايضا ،
حين اسمع غناءها من الغرفة المجاورة . وشهدت
ذات يوم منظرا لن انساه مدى الحياة : مررت
قريبا من النافذة فألقيت نظرة على الحجرة ،
فأريت بيلا جالسة على الفراش ، وقد اطرقت
برأسها ، ورأيت بتشورين واقفا امامها يقول :
— اسمعى يا عزيزتى ! ألا تعرفين

انك ستكونين لى عاجلا او آجلا ؟ فلماذا تعذبتى
اذن ؟ ام انك تحبين احدا من التثتثيين ؟
اذا كان الامر كذلك تركتك تذهبين الى بيتك
فورا . (وهنا ارتعشت ارتعاشة لا تكاد تُرى ،

وهزت بأسرها بالإنكار) . ام تُراك تكبرهمنى

وتشمئزين منى ؟ (وهنا تنهدت) . ام ان دينك
يمنعك ان تحببى ؟ (وهنا اصفر وجهها ، وظلت
صامتة) . صدقى ما اقوله لك . ان الله هو

رب جميع الشعوب ، وكيف يسمح لى ان احبك
ثم لا يسمح لك ان تبادلينى حبا بحب ؟
فنظرت اليه مليا ، كأن هذه الفكرة قد اثرت فيها .
وكانت عيناها تعبران فى آن واحد ، عن الشك
فيما يقول ، والرغبة فى تصديق ما يقول ، يا
لهاتين العينين ؟ انهما تلتمعان كجمرتين .

واردف بتشورين يقول :

— اسمعى يا بيلا . انك ترين كم احبك .

وانى قادر على ان افعل كل شىء من اجل ان
تكونى سعيدة . اريد ان تكونى سعيدة . فان عاد
اليك الحزن ، مت من ذلك غما . عدينى
بانك ستكونين مرحة .

كانت بيلا تفكر دون ان تنفصل عيناها
السوداوان عن عيني بتشورين ، ثم افتر ثغرها عن
ابتسامة رقيقة ، وهزت رأسها بنعم . فتناول
بتشورين يدها واراد ان يقنعها بتقبيلها ، فتمنعت
بضعف ، واكتفت بان تكرر قولها : «لا ، لا ،
دعني» . وألح بتشورين . فاخذت ترتعش وتبكي .

ثم قالت :

— اننى اسيرتك ، انا عبدتك ، وتستطيع
ان تحملنى على ما تشاء ، — واجهشت تبكى
مرة اخرى .

فضرب بتشورين جبينه بيده ، ومضى الى
الحجرة الاخرى . فدخلت عليه ، فرأته بذرع الغرفة
جيئة وذهابا ، وقد شبك يديه ، واكفهر وجهه .
— ما بك يا صديقى ؟

— ان هذه المرأة هى الشيطان بعينه ،
ولكنها ستكون لى ، اقسم على ذلك . . .
فلما هزرت رأسى منكرا ، قال :

— هل تراهن ؟ ستكون لى بعد اسبوع !

— اراهن !

وتراهننا ، ثم خرجت .

وفى الغداة ، اسرع بتشورين ، فابتاع من
كزليار انواعا كثيرة من النسيج الفارسى ، لا
استطيع ان احصى عددها . . .
وقال لى ، وهو يعرض على هذه الاشياء

<http://www.library4arab.com/vb> كتابا

— هل تستطيع هذه الحسناء الشرقية ان تقاوم
اغراء كهذا ؟
اجبته قائلا :

— انك لا تعرف الشركسيات . شتان
بينهن وبين الجورجيات ، او تتريات القفقاس ،
شتان . ان لهن قواعد فى السلوك اخرى ، وقد
نشان على تربية اخرى .

فابتسم بتشورين ، واخذ يصفر معزوفة عسكرية .
كنت على حق : ان الهدايا لم تؤثر فيها
الا نصف تأثير : لقد غدت ارق حاشية ،
واكثر ثقة . . . هذا كل شىء . فعزم بتشورين على
اللجوء الى وسيلة اخيرة . ففى ذات صباح ،
اسرج حصانه ، وارتنى لباسا شركسيا ، وحمل
اسلحته ، وجاء اليها يقول :
— بيلا ، انك لترين كم احبك . ولقد

اختطفتك لاعتقادي بانك ستحبيني متى عرفتني .
والآن ادرك انني اخطأت التقدير ، فوداعا .
كل ما املك فهو لك . وتستطيعين ان تعودى
الى ابيك ، اذا احببت ذلك : انت طليقة .
لقد اسأت اليك ، واريد الآن ان اعاقب نفسي ،
وداعا . اننى ذاهب . الى اين ؟ لا ادرى !
وقد لا انتظر طويلا الرصاصة او الطعنة التى تحيلنى
جثة هامدة . اذكرينى ، واغفرى لى .
قال هذا ، ثم استدار ، ومد اليها يده
مودعا . فلم تتناول بيلا يده ، ولزمت الصمت .
كنت وراء الباب ، وكنت انظر من احد شقوقه
فأرى وجهها . لقد اشفقت عليها ، ورثيت لحالها .
كان وجهها اللطيف شاحبا شحوب الموتى . فلما
رأى بتشورين انها لا تجيبه ، اتجه نحو الباب
بضع خطوات . كان يرتجف . وأؤكد لك انه
كان قادرا على ان يفعل حقا ما قد زعمه مازحا :
انه كذلك . ولكن ما كاد يلامس الباب حتى
وثبت اليه بيلا وارتمت على عنقه ، تجهش
بالبكاء . هل تصدق ذلك ؟ وبكيت انا ايضا
وراء الباب . . . ما كان اغبانى !

وصمت الرئيس ، ثم اردف يقول وهو يفتل
شاربه :

— يجب ان اعترف لك اننى حزنت على
نفسى اشد الحزن ، اذ رأيت اننى ما احببتنى
امراًة فى حياتى مثل هذا الحب . قلت :

— وهل دامت سعادتهما مدة طويلة ؟
— نعم ، لقد اعترفت لنا بانها منذ رأت
بتشورين اول مرة اصبحت تراه فى احلامها ؛
وانها ما من رجل اثر فى نفسها مثلما اثر فيها
بتشورين . نعم لقد سعد كل منهما بصاحبه ! . . .

قلت على غير ارادة منى : — يا لها من خاتمة
باهتة ! كنت اتوقع ان تنحل العقدة بفاجعة ،
وها قد خاب ظنى . ولكننى اردفت اقول :
— وهل يعقل ان اباهم لم يشته فى ان
ابنته عندكم بالقلعة ؟

— اعتقد ان هذه الظنون قد راودته . ولكننا
علمنا بعد الاختطاف ببضعة ايام انه قتل .
واليك ظروف قتله . . .

وعاد اهتمامى بالقصة فانتعش . قال الرئيس :
— يجب ان اذكر لك ان كازيتش اعتقد

ان عزمت سرق الحصان بموافقة ابيه . هذا ما
اقدره انا على الاقل . وفي ذات يوم ، تربص
بالاب في الطريق ، على مسافة ثلاثة فرسات
من القرية . وكان الاب عائدا الى قريته بعد ان
ظل يبحث عن ابنته في كل مكان دون ان
يظفر بطائل . وكان رجاله بعيدين وراءه . وكان
حصانه يسير الهوينى ، وقد استغرق الرجل في
التفكير . فخرج كازيتش من احد الادغال ،
ووثب الى ردف الحصان كالمهر ، ورمى العجوز على
الارض بطعنة من خنجره ، واستلم ازمة الحصان ،
وولى هاربا . ولقد رأى بعض رجال الامير ما
وقع ، فاندفعوا في اثر القاتل يطاردونه ولكنهم لم
يستطيعوا ان يدركوه .

قلت محاولا ان اعرف رأى الرئيس :
— وهكذا عوض خسارته ، وانتقم لنفسه ،
أليس كذلك ؟
— كان سلوكه ، من وجهة نظرهم ، سليما
لا غبار عليه .

ولم يسعنى الا ان ادهش للروس كيف يتلاءمون
بسرعة مع عادات الشعوب التي يضطرون الى الحياة

بينها . ولست ادري أهذا جدير بالذم ام بالمدح .
ولكننى لا اشك فى انه يدل على مرونة نفسية
عظيمة ، ويكشف عن حس سليم يغفر الشر
متى رأى ضرورة لذلك ، او متى رأى ان تحطيمه

مستحيل .
<http://www.library4arab.com/vb>

وكنا قد شربنا الشاي اثناء ذلك . وكانت
خيولنا التى ربطناها منذ مدة طويلة فى الثلج
ترتعد فرائصها . وكان القمر يشحب فى جهة
الغرب من السماء ، ويهمّ ان يدخل فى الغيوم
السوداء المعلقة على الذرى البعيدة كأنها مزق
من ستارة مشققة . وخرجنا من البيت . . . فاذا
الجو مشرق رغم تنبؤات ريفقى ؛ وكل شىء يبشر
بصباح جميل . كانت النجوم التى تطوف فى
الافق البعيد ، تنتشر كأنها زخارف رائعة ، ولكنها
كانت تنطفئ واحدة بعد اخرى على قدر ما
كان الضوء الشاحب الآتى من الشرق يجتاح
السماء ، يصبغها بلون بنفسجى قاتم ، وينير
منحدرات الجبال الوعرة المغطاة بالثلج البكر ،
شيئا فشيئا . كانت تلوح ذات اليمين وذات الشمال
مهاو حزينة خفية ، كأنها بقع سوداء وكان الضباب

الذى يتلف ثم ينتشر كالافاعي ، يزحف نحوها
فى الاخاديد الكبيرة بين الصخور المتجاورة ،
كأنه يشعر باقتراب النهار ويخشاه .
كان كل ما فى السماء وما فى الارض هادئا
كقلب الانسان ساعة الصلاة فى الصباح . غير
ان ريحا باردة متقطعة كانت تهب من الشرق
تنفش اعراف خيولنا المغطاة بالصقيع . وسرنا .
كانت الخيول الخمسة الضعيفة الهزيلة تجد كثيرا
من العناء فى جر عربتنا على هذا الطريق المتعرج
الذى يؤدى الى جبل الجود . فكنا نسير على
الاقدام ، ونسند العجلات بالحجارة حين تعجز
الخيول عن مواصلة السير . لكأن هذا الطريق
يؤدى الى السماء ، فلقد كان صاعدا على مدى
البصر كله الى ان يغيب فى السحاب الذى امتد
على جبل الجود منذ مساء امس ، كأنه حداة
تتربص بفريستها . كان الثلج يصرّ تحت اقدامنا .
وكان الهواء من الخفة بحيث يصعب التنفس .
فكان الدم يصعد الى رؤوسنا فى كل لحظة .
غير ان شيئا من الارتفاع كان يسرى فى عروقى ،
وكنت اشعر بشيء من الفرح لاننى بلغت هذا

المبلغ من العلو فوق العالم . واني لاعترف بان
هذا الشعور شعور طفل ولكن الانسان حين يتعد
عن المواضع الاجتماعية ويقترب من الطبيعة
يغدو طفلا رغم انه . فالنفس تتحرر من المعاني
التي اكتسبتها ، وتعود الى ما كانت عليه سابقا ،
وما قد تصير اليه يوما ما . ان من سيتاح له ،
كما اتيح لي ، ان يجتاز الجبال المنعزلة ، وان
يتأمل مناظرها الساحرة طويلا طويلا ، وان يتشوق
هواء الفجاج المنعش في نهم ، سيفهم من غير
شك رغبتى هذه في الحديث عن تلك المشاهد
الخلافة وفي وصفها والكلام عنها . ووصلنا
اخيرا الى قمة جبل الجود ، فتوقفنا نسرح ابصارنا
حولنا . ان سحابة رمادية تحلق في الجو ، وتندر
انسامها بان عاصفة ستهب بعد قليل . غير ان
ما يسطع به المشرق من ذهب وضياء انسانا
كلها وجود السحابة . . . نعم ، حتى الرئيس نسي
وجود السحابة . ان القلوب البسيطة تحس بعظمة
الطبيعة احساسا اقوى واعنف مائة مرة من احساسنا
بها نحن الذين نتحمس كثيرا في الكلام وعلى الورق .
قلت لصاحبي :

— لا شك انك معتاد على هذه المناظر
الرائعة ؟

— نعم ، ان المرء ليتعود حتى على ار
الرصاص ، او قل على اخفاء ضربات قلبه
الذي يدق على غير ارادة منه .
— ولكننى سمعت من بعض قدماء الجنود

ان لهذه الموسيقى فتنتها .
— نعم ، انها ممتعة ، بمعنى واحد من
المعاني ، وهو ان ضربات القلب تزداد قوة .
ثم اشار الى المشرق واطاف يقول :
— انظر ما اجمل هذا البلد !

حقا انه لمنظر رائع ، ما اظن اننى ستتاح
لى رؤية مثله . كان تحتنا وادى كويشأوورى ،
يمر به ، كخيطين من الفضة ، نهر آراغفا ونهر
آخر ، ويزحف فوقه بخار ازرق يتجه نحو الفجاج
المجاورة كأنه يريد ان يحتمى بها من اشعة
الصباح الدافئة . وذات اليمين وذات الشمال
ذرى ما تنفك فى صعود ، تتصالب وتتطاول
ويغمرها الثلج ، ويغطيها النبات . وفى البعد
تبدو الجبال هى نفسها ، بيد انه ما من صخرة

فيها تشبه الاخرى . وهذه الثلوج كلها تلتصق
بضياء كأنه الفضة المذهبة ، ضياء فرح نير
تراه العين فيحب المرء ان يقضى في هذا
المكان حياته كلها . وكانت الشمس تهم ان

تشرق من وراء جبل ازرق قاتم لا تفرقه عن
السحابة الا عين بصيرة متمرسة . ولكن خطا
داميا كان يمتد فوق الشمس ، رآه صاحبي
فقال :

— لقد كنت على حق . سيكون الجو رديئا
هذا اليوم . يجب ان نغذ في السير ، والا فوجئنا
بالعاصفة على كرستوفايا . . .
قال ذلك ، ثم هتف بالسائقين :
— هلما ! . . .

ووضعت السلاسل على العجلات لتكون مكبحا
يمنعها من الانزلاق السريع ، وامسك السائقان
بأزمة الخيل ، وبدأ الانحدار . كانت على يميننا
صخرة وعلى شمالنا فج تبدو لنا منه القرية الاوسيتية
التي تقبع في آخره ، كأنها عيش من اعشاش
السنونو . وارتعدت حين تصورت ان هذا الطريق
الذي لا يمكن ان تتلاقى فيه عربتان يمر فيه

ساعى البريد تحت جناح الليل ، عشر مرات فى
السنة ، حتى دون ان ينزل من عربته المرتجة .
كان احد سائقينا روسيا ، فلاحا من ياروسلاف ،
والآخر اوسيتيا . وكان الاوسيتى يقود حصان مجر
العجلة بالزمام ، ويحتز ويحتاط كثيرا ، بعد
ان حل احصنة العارض . اما صاحبنا الروسى
فكان لا يبالى ، حتى انه لم يغادر مقعده فى
العربة ! حتى اذا نبهته الى انه يستطيع ، فى
اقل تقدير ، ان يهتم بحقيبتى التى لا اريد
ابدا ان امضى الى قاع الهوة لالتقاطها متى
سقطت ، اجابنى بقوله : «هون عليك يا سيدى ،
سنصل باذن الله سالمين ! ولسنا نقوم بهذه
الرحلة اول مرة !» لقد كان على حق : كان
يمكن ان لا نصل ، ولكننا وصلنا مع ذلك .
ألا ليت الناس يبذلون مزيدا من الجهد فى التفكير ،
اذن لادركوا ان الحياة لا تستحق ان نعنى بها
كل هذه العناية . . .

لعلكم تريدون ان تعرفوا خاتمة قصة بيلا !
ولكننى لا اكتب الآن قصة ، وانما اسجل مذكرات
رحلة ، ولا استطيع ان احمل الرئيس على متابعة

قصته قبل ان يريد هو ذلك . فتجملوا اذن بالصبر ، او فاقلبوا بضع صفحات اذا شئتم . ولكنى لا انصح لكم بهذا ، لان قصة مرونا بكرستوفايا (او جبل سان كرسstof ،

كما اسماها الحكيم حاميا) حديرة باهتمامكم .
لقد هبطنا اذن من جبل الجود الى وادى تشرتوفا . . . ان الاسم لرومانسى ! لا شك انكم تصورون مغارة روح الشر بين هذه الصخور التى لا يمكن الوصول اليها ! ولكنكم مخطئون . ان كلمة تشرتوفا مشتقة من «تشرتا» (بمعنى خط) لا من «تشورت» (بمعنى شيطان) ، فها هنا كانت حدود جورجيا فى القديم . ان الوادى ملئ بالثلج ، حتى ليذكر كثيرا بساراتوف ، وتامبوف وغيرهما من الامكنة الفاتنة فى وطننا .

حين وصلنا الى وادى تشرتوفا ، قال الرئيس وهو يشير الى ذروة يغطيها الثلج :
— هذه كرسstofايا * .

ان صليبا من الحجر يلوح اسود فى ذروتها

* الصليبية . — ملاحظة المترجم .

التي يؤدي اليها طريق لا يكاد يرى ولا يسير
فيه السائرون الا حين يتكاثر الثلج ، فيتعذر السير
في الطريق الجانبي . وقال السائقان ان الثلوج لم
يبدأ تهافتها من الجبل بعد ؛ ودارا بنا حول
كستوفايا ، مراعاة للخيل ، فما ان سرنا في
الطريق قليلا حتى التقينا بخمسة اوسيتين عرضوا
علينا خدماتهم وتعلقوا بالعجلات ، وراحوا يجرون
عرباتنا ويقومونها ، وهم يصرخون . لا شك ان
الطريق لم تكن خالية من الخطر . كنا نرى
على يميننا اكواما من الثلج منتصبة فوق رؤوسنا ،
تهم ان تتهافت في الفج عند اول نسمة تهب .
وكان الثلج يغطي بعض اجزاء الطريق الضيق ،
يتهاوى تحت اقدامنا في بعض المواضع ؛ وقد
اذابته اشعة الشمس في مواضع اخرى فاستحال
الى جليد في ليالي الصقيع . فكنا لا نتقدم ،
نحن ايضا ، الا في كثير من العناء . والخيل
تقع من حين الى حين . وكان على شمالنا
صدع عميق فاغر ، يجري فيه سيل يختبئ
تحت قشرة من الثلج تارة ، ويتواثب مزبدا على
الصخور السوداء تارة اخرى . انفقنا ساعتين حتى

درنا حول كرسٲوفايا ، ساعتين من اجل فرستين .
وفي اثناء ذلك هبطت السحب . واخذ البرد
والثلج يهطلان . واخذت الريح تفور في الفجاج ،
وتزار وتصفر كأنها سولوفيسى رازبوينك * ، وسرعان
ما غاب الصليب الحجرى في الضباب الذى
تتلاحق امواجه من الشرق ، وما تنفك تزداد
كثافة وسرعة . . . يجب ان اذكر عابرا ان هناك
رأيا تتناقله الاجيال ، بصدد هذا الصليب ، وهو
ان الامبراطور بطرس الاول هو الذى نصبه فى
هذا المكان ابان رحلة قام بها الى القفقاس .
ولكننا نعلم ان بطرس لم يذهب ابدا الى غير
داغستان ، ثم لقد كتب على الصليب باحرف
كبيرة انه نصب بامر الجنرال ييرمولوف عام ١٨٢٤ .
ولكن هذا الرأى كان راسخا فى عقول الناس ،
حتى ليحتر المرء ماذا يصدق وماذا يكذب ،
لا سيما واننا لم نتعود الركون الى صدق ما
يكتب .

بقى علينا ان نهبط ستة فرستات بين الصخور

* «قاطع الطرق-البلبل» - فى الاساطير الروسية كائن خرافى

رهيب روع الركاب المارة بصفيه الحاد .

التي يغطيها الجليد وفي الثلج الموحد ، حتى
نصل الى محطة كوي . لقد اصبحت الخيل
عاجزة عن مواصلة السير ، وكانت فرائصنا ترتعد .
وازدادت زمجرة الاعصار . ان هذه العاصفة
تشبه عواصف الشمال ، ولكن نبراتها المتوحشة
كانت اشد تاوها واعمو حزنا . خاطبتها بيني
وبين نفسي : «وانت ايضا ، ايتها المنفية ،
تبكين السهوب الواسعة ! السهوب التي لا يحدها
حد ، حيث تستطيع اجنحتك الباردة ان تنتشر
ما شاء لها الانتشار ! اما هنا فانت في مكان
ضيق ، تختنقين كنسر سجين يلطم قضبان الحديد
من قفصه صارخا» .

قال الرئيس :

— ان الجو رديء . انظر من حولك .
اننا لا نرى الا ضبابا وثلجا ، وقد نهوى في
منحدر او نخسف في حفرة . ولا شك بان نهر
بايدارا ، تحت ، يطفح بماء الفيضان ، حتى
ليستحيل ان نجتازه . آه من هذه الآسيا التي لا
يمكن ان يطمأن فيها الى شيء ولا الى احد !
وكان السائقان يضربان الخيل بالسياط صارخين

شاثمين ، والخييل تنخر وتحرن كأنها لا تريد
ان تخطو خطوة واحدة بحال من الاحوال ،
رغم بلاغة ضربات الاسواط كلها . وقال احد
السائقين اخيرا :

<http://www.library4arab.com/vb>

الى كوى هذا المساء فهلا انعطفنا شمالا
ما دام فى الوقت متسع الى الآن ؟ هل ترى
هناك على ذلك السفح شيئا اسود ؟ تلك بيوت
يتوقف فيها المسافرون متى فاجأهم جو ردىء .
يقول هؤلاء الاوسيتيون انهم يقودونكم الى ذلك
المكان اذا منحتموهم عطاء .
قال الرئيس :

— اعرف ذلك ، يا عزيزى ، اعرفه بدون
ان تقوله . انه ليسعد هؤلاء الخبثاء ان يبتزوا
منا العطاء تلو العطاء .
فتدخلت قائلا :

— يجب الاعتراف بان حالتنا تسوء كثيرا
لولاهم .

فدمدم الرئيس يقول :
— نعم ، نعم ، ان هؤلاء الناس يشمون ،

نعم ، يشمون كل فرصة تسنح للاستفادة منا .
كأننا لا نستطيع ان نهتدى الى الطريق بدونهم .
وانعطفنا شمالا ، فوصلنا الى الملجأ البائس
فى غير قليل من العناء ، هو بيتان بنيا بالبلاط
والدهسى ، واحبطا بجدار من هذه المراد نفسها .
وفيهما اناس يرتدون اسمالا بالية ، استقبلونا
بغير قليل من الترحيب والود . وقد عرفت فيما
بعد ان الحكومة تأجرهم وتطعمهم على شرط ان
يستقبلوا المسافرين الذين تباغتهم العاصفة .
قلت وانا اجلس امام النار :

— لا بد لكل ما يحدث من نتيجة طيبة .
تستطيع هنا ان تكمل سرد قصة بيلا . فانى
على يقين من ان القصة ما انتهت .
— ومن اين اتاك هذا اليقين ؟
قال الرئيس ذلك وهو يطرف عينه ويتسم
ابتسامة متخابثة .

فاجبته :
— لأن هذا ليس من طبيعة الامور : فالقصة
التي تبدأ تلك البداية العجيبة لا بد ان تنتهى
بنهاية عجيبة كذلك .

— يمينا لقد حزرت .
— يسعدنى ان احزر .
— اما انا فان ايقاظ هذه الذكريات يحزنى .

كانت فتاة رائعة ، بيلا تلك . لقد الفتها فى
نهاية الامر ، فكنت اشعر نحوها شعور الاب نحو
ابنته ، وكانت تحبنى هى ايضا ! يجب
ان اذكر لك ان ليس لى اسرة . فانا منذ
زهاء اثنتى عشرة سنة لا اعرف شيئا عن امى ولا
عن ابى . ولم يخطر ببالى ان اتزوج حين كنت
شابا ، واحسب ان الاوان قد فات الآن .
فاسعدنى ان اجد شخصا ادلله . كانت بيلا
تغنىنا وترقص لنا رقصة الليزغينكا . . . آه ما
كان اجمل رقصها ! لقد سبق لى ان رأيت
صبايانا فى الارياف ، بل لقد كنت ذات يوم
فى موسكو فى حفل يضم النبلاء ، منذ عشرين
سنة ، ولكن ما شاهدته ، هناك من رقص لا
يعد شيئا اذا قيس برقصها . وكان بتشورين يكسوها
اجمل اللباس ، كأنها دمية من الدمى ، وكان
يحيطها بالوان من الرعاية ، ويدللها ويغنجها ،
وكانت تزداد رونقا وسناء . ما كان اروعها !

لقد زلت سفةة وجهها ويديها ، وتورد خداها . . .
وما اكثر ما كانت تضحك ! كانت لا تكف عن
السخر منى ، تلك الشيطانة الصغيرة ، غفر
الله لها ! . . .

— ومتى انبأتموها بموت ابيها ؟
<http://www.library4arab.com/vb>

— كتمنا ذلك عنها مدة طويلة ، الى ان
تحسنت حالها . فلما صارحناها بالامر ، بكت
يومين ثم نسيت .

انقضى على ذلك اربعة اشهر ، كانت تجرى
الامور خلالها على احسن حال . وكان بتشورين
يحب الصيد (اظن اننى ذكرت لك ذلك) .
وكثيرا ما كانت تستبد به الرغبة فى المضى الى
الغابة لمطاردة اليعفور والخنزير البرى . ثم اصبح الآن
يقضى وقته كله فى القلعة لا ييارحها . ولكن
هانذا افاجئه ذات يوم حالما مستغرقا فى التفكير ،
يذرع غرفته جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه وراء
ظهره . وفى يوم آخر ، مضى الى الصيد دون
ان يخبر بذلك احدا ، وظل غائبا عن القلعة
طوال الضحى . وفعل ذلك مرة ثانية ، فثالثة ،
ثم ما انفكت روحاته الى الصيد تزداد . قلت

فى نفسى : هذا نذير سوء فلا بد ان شيئا
وقع بينهما .
ودخلت الى بيتهما ذات صباح . كانت بيلا
جالسة على سريرها بجلباب من الحرير الاسود ،
وقد بدا على وجهها من امائر الشحوب والحزن ما
اخافنى . . . اننى لاتصورها الآن كأننى رأيتها
امس .

— اين بتشورين ؟

— فى الصيد .

— ذهب هذا الصباح ؟

صمتت كأنه يشق عليها كثيرا ان تجيب ،

وقالت اخيرا وهى تزفر زفرة طويلة :

— بل ذهب امس .

— لعل شيئا قد وقع له ؟

قالت وقد ترققت فى عينيها الدموع :

— لازمتنى هذه الفكرة امس ، النهار

كله . كنت اتصوره وقد جرحه خنزير برى او

اختطفه الى الجبل احد التشتشينيين . . . كنت

اتخيل جميع المصائب . اما اليوم ، فانا اعتقد

انه اصبح لا يحبنى .

— دعى عنك هذه الوسوس يا صغيرتى ،
ما هذه الافكار !

واخذت تبكى ، ثم ما لبثت ان رفعت رأسها
بكبرياء ، وجففت دموعها ، واردفت تقول :

— اذا كان لا يحبنى فمن ذا الذى بمنعه
من ردّى الى بيتى ؟ هل اكرهته على الاحتفاظ
بى هنا ؟ اذا استمر الحال هكذا فسأذهب ،
انا لست امة له ، انا ابنة امير ! . .

واحبيت ان اهدئها فقلت :

— اسمعى يا بيلا ، انه لا يستطيع ان
يبقى دائما بين يديك . انه شاب ، وهو
يحب الصيد . ذهب وسيعود . واذا رآك دائما
حزينة ، فلا شك ان هذا لن يلبث ان يضجره .

— نعم ، نعم ، اريد ان اكون مرحة !
قالت ذلك ، ثم ضحكت ، وتناولت طلبها ،
واخذت تغنى ، وترقص ، وتثب حولى . ولكن
ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما عادت فتهاوت
على سريرها ، واخفت وجهها بيديها .

شعرت بارتباك شديد . انى لم اعن قبل
ذلك بامرأة ! وتساءلت كيف اواسيها ، فلم

يفتح الله علىّ بشيء . ودام ذلك لحظة طويلة .
صمتنا نحن الاثنين . . . انه لموقف مزعج .
وقلت لها اخيرا :

— هل تريدان ان نقوم بجولة على السور ؟

ان الجو جميل جدا ! <http://www.library4arab.com/vb>

كان ذلك اليوم من اروع ايام سبتمبر ،
فالسما صافية ، والحرارة معتدلة . وكنا نستطيع
ان نميز كل جبل من الجبال بوضوح . ظللنا
نتجول على السور جيئة وذهابا ، دون ان ينبس
احدنا بحرف . واخيرا جلست هي على العشب ،
فجلست الى جانبها . انى لاضحك كلما تذكرت
ذلك الموقف : كنت لها كالوصيفة .

كانت قلعتنا تقوم على قمة ، وكان المنظر
الذى يُرى من على السور رائعا حقا ، فمن جهة
نرى ارضا فسيحة طليقة يخدها بعض الوديان ،
ثم الغابة تمتد حتى ذروة الجبال ؛ ودخانا يصعد
من القرية هنا وهناك ، وخيلا ترتعى . ومن جهة
اخرى نرى نهرا غير عميق تبدأ عنده ادغال
مكتظة تغطي الاعالى الصوانية التى تمضى الى
لقاء سلسلة القفقاس الكبرى . لقد جلسنا على

الزاوية من نتوء في الحصن بارز . فكان ذلك
يتيح لنا ان نرى كل ما قد يقع في الجهتين .
وانا لفي ذلك ، اذا انا المح رجلا يمتطى جوادا
اشهب ، يخرج من الغابة ، ويقترب حتى يصبح
على مسافة من القلعة لا تتجاوز مائة ذراع ،
ثم يتوقف وراء النهر ، يلفت حصانه بحركة
فيما يشبه الجنون . ما معنى هذا ؟

— انظري ، يا بيلا ، بعينيك الفتيتين ،
الى هذا الفارس ترى ما جاء يصنع هنا ؟
فنظرت بيلا حيث انظر ، وهتفت :
— هذا كازبتش ! . . .

— آه من هذا اللص ! أهو يسخر منا ؟
وانعمت النظر ، فعرفت فيه حقا كازبتش ،
بسحته الغبراء ، ورأيته قدرا كما كان ، ورأيت
ثيابه رثة خلقة كما كانت ايضا .

وصرخت بيلا وهي تمسك بيدي :

— هذا حصان ابي .

واخذت ترتعد ارتعاد ورقة من اوراق الشجر
والتمعت عيناها بشرر . قلت في نفسي : «ها-ها !
أفأنت ايضا ، ايتها الصغيرة ، تجرى في عروقتك

دماء قطاع الطرق !»

وناديت الخفير ، وقلت له :

— صوب بندقيتك ، واقتل لى ذلك الرجل

الباسل هناك ، اذا اردت ان تربح روبلا من

فضة!

<http://www.library4arab.com/vb>

— امرك مطاع يا صاحب المعالى ، ولكن

الرجل لا يستقر فى مكان .

— قل له اذن ان يهدأ .

قلت ذلك ضاحكا .

وصاح الخفير وهو يحرك يده :

— ايها الصديق ! قف قليلا ، ما لك

تدور كما تدور الدوامة .

ووقف كازيتش ليصيخ بسمعه . كان يحسب

ان الخفير يريد ان يحادثه . طبعا ! وسدد الجندى

الممتاز بندقيته واطلق النار . طاشت الرصاصة .

فما كاد يشتعل البارود ، حتى كان كازيتش قد

دفع حصانه ، وجعله يثب من جانب ، ثم

اعتلى ركابه ، وصرخ ببعض الكلام ، ورفع

سوطه بحركة من يهدد ، ومضى لا يلوى على

شئ .

قلت للخفير :

— ألا تخجل ؟

فاجابني مبرراً فشله بقوله :

— لقد اصبته ولكنه لم يسقط هنا وانما

ذهب ليلقي مصرعه في مكان آخر ، يا صاحب
المعالي . اذ لا سبيل الى قتل هؤلاء الشياطين

بضربة واحدة .

وعاد بتشورين من صيده بعد ربع ساعة .

فوثبت بيلا الى عنقه ، بلا شكوى ولا عتاب

لغيابه الطويل . . . اما انا فكنت ساخطا عليه .

فقلت :

— هل تعرف ان كازيتش كان هنا وراء

النهر منذ بضع دقائق ، واننا اطلقنا عليه النار ؟

كان يمكن ان يلقاك منذ برهة ، وهؤلاء الجبليون

لا ينقضى حقدهم . هل تظن انه لم يقدر انك

ساعدت عزمت ؟ واني لاراهن على انه عرف

اليوم بيلا . انا اعرف انها كانت تعجبه كثيرا

منذ سنة . فلقد صارحني هو نفسه بهذا . ولو

كان يأمل بجمع مهر كاف ، اذن لطلب يدها ،

ما في ذلك شك . . .

واستغرق بتشورين فى التفكير ، ثم اجاب :
— نعم يجب ان نكون اشد حذرا . . .
يا بيلا ، لا تصعدى الى السور بعد اليوم !
وفى تلك الليلة قام بينى وبينه حديث طويل .
كان يؤلمنى ان ارى شعره نحو هذه الفتاة البائسة
قد تغير . لقد صار ينفق نصف وقته فى الصيد ،
وفترت عاطفته ، واصبح لا يحبها كما كان
يحبها من قبل . وكانت تهزل هزالا واضحا ،
وشحب وجهها الصغير كثيرا ، وفقدت عيناها ما
فيهما من بريق .

فكنت اسألها فى بعض الاحايين :

— لماذا تنهدين يا بيلا ، أنت حزينة ؟

— لا .

— هل ترغبن فى شىء ؟

— لا .

— هل بك حنين الى اهلك ؟

— لم يبق لى اهل .

وكان يتفق ان ينقضى النهار بكامله لا استطيع

ان انتزع منها غير «نعم» و «لا» . وتحديث فى

هذا الى بتشورين . فاجابنى بقوله :

— اسمع يا مكسيم مكسيمتش . ان لى
طبعاً رديثاً ، لا ادري هل يعود ذلك الى تربيتي
ام الى ان الله خلقني هكذا . ولكنني اعرف
انني ان كنت اسبب شقاء لغيري ، فلست من
ذلك في سعادة . وليس في هذا كبير عزاء
لهم ، ولكن الامر هو ذاك . في شبابي ،
منذ تحررت من وصاية ابوي ، اخذت اتمتع ،
في كثير من اللجاجة الصارمة ، بجميع ما يمكن
الوصول اليه بالمال من الملذات . وانتهيت ،
بطبيعة الحال ، الى الاشتمزاز من جميع تلك
الملذات . ثم دخلت مجتمع الطبقة الراقية ،
ولكنني سرعان ما سئمت منه . ووقعت في غرام
عدد من حسناوات ذلك المجتمع ، ووقعن هن
في غرامي . ولكن هذا الغرام ما كان يزيد على
ان يذكى خيالي وحيي لنفسي ، اما قلبي فظل
خاوياً وعندئذ اخذت اقرأ واثقف . ولكنني
نفرت من العلوم ايضاً ، فقد رأيت ان المجد
والسعادة لا يتوقفان عليها ، لان اسعد الناس
جهلاء ، ولان المجد رهن بالحظ ، ولا حاجة
للمرء الا الى البراعة اذا شاء الوصول اليه

وغدوت ضجرا . ثم ما لبثت ان امرت بالرحيل
الى القفقاس : — تلك اسعد لحظة فى حياتى .
كنت اظن ان الضجر لا سبيل له الى النفس
تحت رصاص التشتيينين : ولكن ظنى اخطأ ،
فما كاد ينقضى شهر واحد حتى الفت أزيز
الرصاص ومجاورة الموت ، وصرت اهتم بذلك
كله اقل مما اهتم بدنندة الذباب . . . وغدوت
اشد ضجرا مما كنت فى اى عهد مضى ،
لانى فقدت هنالك آخر أمل . وحين رأيت بيلا
فى غرفتى ، حين وضعتها على ركبتي اول مرة ،
وقبلت ضفائرها السود ، شعرت — ويا لها من
غباوة — ان القدر قد رحمنى ، فارسل الىّ هذا
الملاك ، ينتشلنى مما انا فيه . لقد اخطأت
الظن هذه المرة ايضا . ان حب هذه الصغيرة
المتوحشة لا يفضل كثيرا حب سيدة كبيرة .
فهذه تزعجنى ببساطتها وسذاجتها مثلما تزعجنى
تلك بتكلفتها وتغندرها . اننى ما ازال احب بيلا ،
ان شئت . ولن انسى لها لحظات كانت عذبة
حقا ، وانى قادر على ان اضحى بحياتى من
اجلها . ولكن البقاء الى جانبها يضجرنى . لا

ادرى أأنا احمق ام انا وغد . ولكن هناك شيئا
لا مرء فيه ، وهو اننى جدير بالشفقة ، ولعلنى
اجدر بها منها . ان لى نفسا افسدتها حياة
المجتمع الراقى وخيالا قلقا ، وقلبا لا يشبع
من جوع ، لا شيء يرويني فسرعان ما آلف
الالم واللذة كليهما . وان وجودى ليزداد فراغا
يوما بعد يوم . ولم يبق لى الا مخرج واحد :
السفر . وساسافر متى استطعت ذلك . غير اننى
لن اسافر الى اوروبا ، وقانى الله شر ذلك . بل
اسافر الى امريكا ، الى جزيرة العرب ، الى
الهند . وقد اقضى نحى فى الطريق ! ولكننى
احسب ، على الاقل ، ان هذه السلوى الاخيرة لا
تفد سريعا ، بفضل العواصف والطرق الوعرة .
واسترسل فى مثل هذا الكلام مدة طويلة ،
ولقد رسخت اقواله فى ذاكرتى ، لاننى ما سمعت
قبل ذلك كلاما مثل هذا الكلام من فتى فى
سنه ، وارجو الله ان لا اسمع مثله طوال حياتى . . .
امر لا يصدق . ولكن قل لى ، انت الذى
كنت فى العاصمة منذ مدة غير طويلة فيما
اظن ، هل كل الشباب هناك يشبهون هذا الشاب ؟

فاجبته بان كثيرين يقولون ما يقول ، وربما
كان بينهم من يقوله صادقا ؛ وان زوال الافتتان
هذا قد نشأ ، كسائر المودات ، في اعلى طبقات
المجتمع ، ثم هبط الى ادناها حتى صار
مبتذلا ؛ وان الذين شعرون اليوم بالضجر حقا اكثر
من غيرهم يحاولون اخفاء هذا الداء على انه
آفة وعيب .

ولم يفهم الرئيس هذه الامور المرهفة ، فهز
رأسه ، وابتسم ابتسامة متخابثة ، وهو يقول :
— لعل الفرنسيين هم الذين جعلوا الضجر
مودة ؟

— بل هم الانجليز .
— هل . . . حقا لقد كان الانجليز دائما
سكيرين عربيدين ! . . .
ولم استطع ان امتنع عن التفكير في تلك
السيدة الموسكوفية التي كانت تؤكد ان بايرون
لم يكن الا سكيما . ان الرئيس يعذر اكثر مما
تعذر تلك السيدة : فهو يريد ان يمتنع عن
الشراب ، فلا عجب ان حاول ان يقنع نفسه
بان كل ما في الدنيا من شرور مرده الى السكر .

واردف الرئيس يكمل سرد قصته بقوله :
— ولم يظهر كازيتش بعد ذلك . غير اننى
(لا ادرى لماذا) ما كنت استطيع ان اطرد
من ذهنى هذه الفكرة ، وهى انه لم يجرى
الى القلعة عبثا ، وانه يدبر امرا .
وفى ذات يوم ، اصر بتشورين على ان اصحبه
الى صيد الخنازير البرية . فرفضت فى اول
الامر . . . ألم ار فى حياتى خنزيرا برياً ؟ ولكنه
استطاع اخيرا ان يجرنى الى ما اراد . فمضينا
فى الصباح يصحبنا خمسة جنود . وظللنا حتى
الساعة العاشرة نجوس القصب والغابة ، دون ان
نعثر على شىء . قلت له : «ألا نعود ؟ لماذا
العناد ؟ لقد كتب علينا ان لا يسعفنا اليوم حظ !»
ولكنه كان لا يريد ان يعود خاوى الوفاض ،
رغم الحرارة والتعب . . . هكذا خلق : اذا عزم
على شىء ، لا يرجع عنه قيد انملة . لا شك
ان امه قد افسدته بالدلال فى صغره . . . وفى
نحو الظهر ، وقعنا اخيرا على واحد من هذا
الخننازير البرية اللعينة . واطلقنا النار . . . ولكن
الخنزير كان قد ولى الادبار بين القصب . كان

الحظ يصر على ان لا يواتينا في ذلك اليوم . . .
وبعدما استرحنا قليلا ، قفلنا راجعين .
كنا نسير جنبا الى جنب صامتين ، وقد
ارخينا الاعنة . وفيما نحن على وشك الوصول
(غير ان بعض الاشجار كانت تخفي القلعة عنا)
اذا نحن نسمع صوت رصاص ينطلق . . . فتبادلنا
النظر ، وراودتنا شبهة واحدة ، فعدونا نحو الجهة
التي جاء منها الصوت . فرأينا الجنود يهرعون على
السور جماعة ، ويشيرون الى شيء في السهل :
انه فارس يهرب سريعا ، ويحمل على سرجه
شيئا ابيض ، فصرخ بتشورين صرخة حادة يحسده
عليها اي تشتشيني ، واستل بندقيته من جرابها ،
واندفع وراء الفارس ، وتبعته .
ومن حسن الحظ ان خيلنا لم تكن مكدودة
من الصيد ، فكانت تنهب الارض نهبا ، فاذا
المسافة بيننا وبين الفارس الهارب ما تنفك
تتناقص . . . واخيرا عرفت ان الفارس هو كازبتش ،
ولكنني لم استطع ان اميز ما يحمل . فاندفعت
بحصاني حتى حاذيت بتشورين ، وصحت به :
«هذا كازبتش» ، فنظر بتشورين الىّ ، وهزّ رأسه ،

وجلد حصانه .

واصبحنا من كازيتش على مرمى البندقية .
عبثا يحاول ان يسرع . كان حصانه لا يتقدم
الا في مشقة ، اما لانه متعب ، واما لانه دون
خيلنا . لا شك انه تذكر في تلك اللحظة حصانه
السابق كاراخيز .

ورأيت بتشورين يسدد اليه وهو يعدو . . . فصحت
به «لا تطلق النار ، احتفظ بطلقتك ، فسندركه !»
آه من هؤلاء الشباب الذين يتحمسون حين لا
تجب الحماسة ! . . . وانطلقت الرصاصة ، فحطمت
احدى قدمي الحصان ، فما سار بضع قفزات
بقوة اندفاعه ، حتى كبا ثم خرّ على ركبتيه .
ووثب كازيتش على الارض ، فرأينا انه يحمل بين
ذراعيه امرأة يغطيها حجاب ابيض . انها بيلا .
مسكينة بيلا ! وصاح كازيتش يقول لنا بلغته
كلاما لم نفهمه ، ثم اشهر على بيلا خنجره . . .
لم يبق من الوقت لحظة نضيعها ، فاطلقت انا
النار دون ان اخطئ الهدف . اعتقد ان الرصاصة
اصابته في كتفه ، لان ذراعه ما لبثت ان
سقطت . . . فلما تبدد الدخان ، رأينا الحصان

الجريح مجندلا على الارض ، ورأينا بيلا الى
جانبه . اما كازيتش فكان قد ترك بندقيته ،
وراح يتسلق احدى الصخور متسللا بين الشوك
كالهر . كنت ارغب فى ان اسقطه ، ولكن وقتى لا
يتسع لشحن بندقتى . فوثبنا الى الارض ، وهرعنا
نحو بيلا . كانت المسكينة بلا حراك ، وكان
الدم يتزف من جرحها غزيرا كان فى وسع
هذا الوغد ان يطعنها فى قلبها ، فينتهى
كل شىء فورا ولكنه طعنها فى ظهرها ! . .
انها لطعنة لص من قطاع الطرق حقا !
كانت قد غابت عن وعيها ، فمزقنا حجابها ،
وعصبنا جرحها بقوة . عبثا اغرق بتشورين شفيتها
الباردين بقبلاته ، فما من شىء كان يمكن ان
ينعشها .

وعاد بتشورين الى سرجه ، فحملت اليه
بيلا ووضعتها بين ذراعيه ، وقفنا راجعين الى
القلعة . وبعد بضع دقائق من صمت ، قال لى
بتشورين : «اسمع يا مكسيم مكسيمتش ، اذا
نحن سرنا بهذه الخطى البطيئة ، فلن نصل بها
حية» ، فأجبتة قائلا : «هذا صحيح» ، واخذنا

نعدو . كان ينتظرنا عند ابواب القلعة جمهور غفير .
فحملنا بيلا ، في كثير من الاحتراز ، الى بيت
بتشورين ، وارسلنا نستدعي الطيب . كان الطيب
سكران ، ولكنه جاء ، فاعلن بعد ان فحصها
انها لن تعيش اكثر من يوم واحد . ولكنه كان
مخطئا

قلت للرئيس وانا اتناول يده بفرح لم استطع
ان اكبحه :

— وهل شفيت ؟

فأجابني قائلا :

— لا ولكن الطيب كان مخطئا ،

لأنها عاشت يومين لا يوما واحدا .

— ولكن كيف استطاع كازيتش ان يختطفها ؟

— الامر بسيط : لقد تركت القلعة وذهبت الى

النهر ، رغم ان بتشورين منعها من ذلك . وكان

الجو حارا . فجلست على صخرة ، واغطت

قدميها في الماء . فاقرب منها كازيتش خلسة ،

فامسك بها ، وكمّ فمها ، وحملها الى الغابة ،

فوثب بها الى حصانه ، ثم ولّى هاربا . واخذت

تصرخ ، فأطلق الخفراء صفارة الانذار ، واطلقوا

عليه الرصاص ، ولكنهم اخطأوه ، وفي اثناء ذلك وصلنا نحن .

— ولكن لماذا اراد كازبتش ان يختطفها ؟

— لماذا ؟ ان هؤلاء الشراكسة رجال نهب

وسلب . يستطيعون ان يمتنعوا عن مد ايديهم الى

اي شيء ، ولو كان غير ذي فائدة . . . هذى

طباعهم ، ولا يمكن تقويمها ! ثم ان بيلا

تعجبه منذ مدة طويلة .

— وماتت بيلا ؟

— نعم بعد ان تألمت كثيرا ، وبعد ان

آلمتنا كثيرا . ففي نحو الساعة العاشرة من المساء ،

عاد اليها وعيها ، وكنا جالسين على حافة سريرها ،

فما ان فتحت عينيها حتى نادت بتشورين .

فأجابها وهو يمسك بيدها : انا هنا — جانيتشكا !

(هذا بلغتهم كقولنا بلغتنا «يا حبيتي»)

— سأموت !

وحاولنا ان نهدي روعها ، فاكدنا ان الطبيب

اقسم ليشفيها . فهزت رأسها ، واستدارت الى

جهة الجدار : كانت لا تريد ان تموت ! . .

وفي الليل اخذت تهذى . كان رأسها يحترق .

وكانت تتابها احيانا قشعريرة من الحمى ، تهز
جسمها هذا قويا . وراحت تقول كلاما مضطربا
يدور على ايها واخيها . . . تريد ان ترى جبالها ،
وان تعود الى بيتها . . . ثم تكلمت عن بتشورين ،
فكلمت تراود ، ارقى الاسماء ، ارى تعاليه على انه
اصبح لا يحب جانيتشكا كما كان يحبها من
قبل . . .

وكان بتشورين يصغى اليها صامتا ، وقد وضع
رأسه بين يديه . ولكن ما من دمعة ترقرت في
عينيه خلال ذلك كله . ألاءنه كان عاجزا
عن البكاء ؟ ألاءنه كان يسيطر على نفسه ؟
لا ادري . اما انا فلم ار في حياتي شيئا اجدر
من هذا المشهد بالثناء .

فلما طلع الصبح ما عادت تهذى . وظلت
خلال ما يقرب من ساعة ، ساكنة ، شاحبة ،
ضعيفة لا يكاد يرى المرء انها تتنفس . ثم
شعرت انها احسن حالا ، فأخذت تتكلم .
ولكن هل تدري ماذا قالت ؟ ان فكرة كهذه
لا يمكن ان تراود الا شخصا يحتضر . . . قالت
انها تأسف على انها ليست مسيحية ، ذلك لان

روحها وروح بتشورين لن تلتقيا في العالم الآخر ،
وان امرأة اخرى ستكون خليلته في الجنة . فبدا
لى ان انصرها قبل ان تموت ، فاقترحت عليها
ذلك ، فنظرت الىّ ، مدة طويلة ، مترددة لا
تستطيع ان تقول كلمة . ثم اجابت بقولها :

بل اموت على دينى الذى ولدت عليه . وانقضى
على هذا النحو نهار بكامله . ما اشد ما تغيرت
في هذه الساعات القليلة ؟ لقد تجوف خذاها
الشاحبان ، واتسعت عيناها ، وجفت شفتاها . . .
كان ثمة ما يحرق جوفها ، كأن في صدرها
نارا حامية .

ثم جاء الليل . لم يغمض لنا جفن ، ولم
نتركها لحظة واحدة . كانت تتألم ألما هائلا ،
وتئن ، وكانت ، متى هدأ ألمها قليلا ، تحاول
أن تقنع بتشورين بأنها احسن حالا ، وتتوسل
اليه ان يمضى الى فراشه وينام . وكانت تلثم
يده وتظل ممسكة بها . وفي الصباح استبد
بها الخوف من الموت ، فأخذت تضطرب ،
وانترعت ضمادها فعاد الدم ينزف من جرحها ،
وأعدنا تضميد الجرح . فهدأت قليلا ، وطلبت الى

بتشورين ان يقبلها . فرقع بتشورين الى جانب
السريير ، وانهض رأس المحتضرة ، والصق فمه
بشفتيها اللتين اخذ البرد يدب فيهما ، فأحاطت
عنقه بذراعيها المرتجفتين ، كأنها تريد في هذه
القبلة ان تسلمه روحها . لقد احسنت صوتها

صنعا ! والا كيف كانت تصبح لو هجرها بتشورين ،
وهذا ما كان لا بد ان يقع في يوم من الايام ! ..
وفي صباح الغد ، ظلت هادئة ، صامته ،
طبعة ، رغم جميع لزقات طيبنا ، وجميع
جرعاته . قلت للطبيب : «ألم تقل انها لن
تعيش ؟ فما فائدة جميع هذه الادوية اذن ؟»
فأجابني بقوله : «الراحة الضمير ، يا مكسيم
مكسيمتش» ، نعم الضمير !
وبعد الظهر اخذت تتألم من العطش . ففتحنا
النافذة ، ولكن الجو كان في خارج الغرفة اشد
حرارة . فوضعنا الى جانب سريرها ثلجا ، فلم
يجدها ذلك شيئا . كنت اعلم ان هذا الظمأ
الشديد دليل على ان النهاية قد شارفت ، ونبهت
بتشورين الى ذلك .
— اعطوني ماء ، اعطوني ماء . . .

هذا ما كانت تقوله بصوت اجش ، وهي تنهض قليلا .

واصبح بتشورين شاحبا كالبياض ، فتناول كأسا ملاء بالماء ، وناولها اياه . فغطيت عيني

بيدي . وانذبت اتوا دعاء لا اذكر الآن . ما

هو . . . نعم ، ايها السيد الطيب ، لقد رأيت قبل ذلك اناسا يموتون ، في مستشفيات عسكرية

او في ساحة القتال . ولكن شتان . ويجب ان

اعترف لك مما زاد ألمي انها قبل موتها لم

تذكر اسمي مرة واحدة . . . وكنت مع ذلك احبها

حب الاب لبنته ! . . . ولكن سامحها الله . . .

فما كان لها ان تذكرني ساعة الموت ! . . .

وشعرت براحة بعد ان شربت الماء . وما

هي الا دقائق ثلاث حتى كانت تلفظ انفاسها

الاخيرة . . . وقربت من شفيتها مرآة ، فظلت

المرآة صافية ! . . . فأخرجت بتشورين ، وذهبت

به الى السور . . . وظللنا نمشي مدة طويلة جنبا

الى جنب دون ان ينس احدنا بكلمة . كان

وجهه لا يعبر عن شيء خاص . وشعرت من

ذلك بشيء من الأسف : فلو كنت مكانه اذن

لمت حسرة ! وجلس اخيرا على الارض ، فى
الظلام ، واخذ يخط شيئا على الرمل بقطعة من
الخشب . و اردت انا — على سبيل اللياقة فى
حقيقة الامر — ان اواسيه ، فاذا هو يرفع رأسه ،
وينجر ضاحكا . شرت بتشويرة فى ظهري ،

ومضيت اوصى بالتابوت .
اعترف لك بأننى ما توليت الاهتمام بهذا
الامر ، الا لاسلو . وكان عندى حرير ، فغطيت
به التابوت ، ثم زينته بشرائط كان بتشورين اشتراها
لها .

وفى الصبح من الغد ، دفناها عند ضفة
الساقية ، وراء القلعة ، غير بعيد من المكان
الذى جلست اليه آخر مرة . كانت اشجار الاكاسيا
والبيلسان تحيط بالقبر . وددت لو اغرس على
قبرها صليبا ، ولكننى لم اجرؤ ان افعل ، لانها
ليست مسيحية على كل حال
— وبتشورين ؟

— بتشورين ظل مريضا مدة طويلة ، وهزل
كثيرا ، هذا الفتى المسكين . ولكننا لم نتحدث
بعد ذلك عن بيلا . كنت اعلم ان ذلك يحز

فى نفسه ، فعلام اتحدث اذن عنها ؟ وبعد
ثلاثة اشهر نقل الى فوج ي . . . ، فسافر الى
جورجيا ، ولم اراه بعد ذلك . . . وقيل لى
اخيرا انه عاد الى روسيا ، ولكن ذلك لم يذكر
فى البلاغات . . .
<http://www.library4arab.com/vb> فى الاخبار تصلنا متأخرة جدا .

وهنا اندفع فى كلام طويل لا ينتهى ، عن
انزعاجه من ان الانباء لا تصل الا بعد سنة
كاملة . لعله كان يريد ان يخفق ذكرياته الحزينة .
فتركته يتكلم ، دون ان اصغى اليه .
واستطعنا بعد ساعة ان نستأنف سيرنا ، فقد
هدأت الزوبعة ، وصفا اديم السماء . وفى الطريق
ادرت الحديث مرة اخرى على بيلا وبتشورين .
قلت :

— ولا تعرف ماذا حل بكازيتش ؟

فقال :

— لا اعرف ماذا حل به . ولكننى سمعت

اخيرا من يقول ان هناك على طرفنا الايمن ،
لدى شابسوغ * ، رجلا متهورا اسمه كازيتش ،

* احدى القبائل الجبلية .

يرتدى جلبابا احمر ، ويذهب ويجيء تحت
وابل رصاصنا دون ان يستحث خطاه ، حتى
اذا مرت رصاصه على مقربة منه ، حياها في
ادب . ولكنى لا اظن انه هو نفسه .

<http://www.library4arab.com/vb>

ولم يستطع هو ان يتبعنى لكثرة احمائه . وما
كنا نظن انا سنلتقى بعد ذلك . ولكننا التقينا .
فان شتم قصصت عليكم ذلك . انها لحكاية
طويلة . . . ولكن اعترفوا ان لمكسيم مكسيمتش
حقا في تقديركم واحترامكم ، فعندئذ اكافأ
كل المكافأة على قصتى التى قد تكون طويلة
بعض الطول .

٢٠

مكسيم مكسيمتش

بعد ان استأذنت مكسيم مكسيمتش بالسفر ،
اجتزت مضيقى تيريك وداريال عدوا ، افطرت
في كازيك ، ثم تناولت الشاي في لارس ،

ووصلت الى فلاديففاس في وقت العشاء .
سأعفيكم من وصف الجبال ، ومن عبارات
الدهشة ، ومن رسم اللوحات ، فهي جميعا لا
تمثل شيئا (ولا سيما لمن لم يكن يوما في
تلك المناطق) ، وسأعفيكم من الملاحظات التي
لن يقرأها احد .

لقد نزلت الفندق الذي يتزله جميع المسافرين ،
والذي ليس فيه احد تأمره بدراج او بحساء .
فان العجزة الثلاثة الذين عهد اليهم بالبيت
كانوا اكثر غباء او اكثر سكرا من ان نستطيع
الحصول منهم على شيء .
وقال لي هؤلاء ان علي ان امكث هنالك
ثلاثة ايام ، لان «الفرصة» لم تصل بعد من
بيكاتيرينوجراد فلا يمكن ان تعود اليها . يا لها
من فرصة ! . . والروسي لا تسليه نكتة باردة
لذلك عمدت ، على سبيل التسلية ، ان ابسط
على الورق قصة بيلا التي رواها لي مكسيم
مكسيمتش ، دون ان يدور بخلدني انها ستكون
بداية سلسلة طويلة من القصص : فانظروا كيف
يمكن ان يكون نظرف طارئ تافه من سوء

العواقب ! . . . ولكن لعلكم تجهلون ما هي
«الفرصة» ؟ انها عدد من الخفراء هو نصف
سرية من المشاة وقطعة من المدفعية تصاحب
النقلات عبر كاباردا ، من فلاديفقاس الي

<http://www.library4arab.com/vb> بيكاترينوجراد

وضجرت في اليوم الاول كثيرا . حتى اذا
جاء الصباح من الغد ، رأيت عربية تدخل
ساحة النزل . . . ها انه مكسيم مكسيمتش ! . .
وتلاقينا كما يتلاقى صديقان قديمان . واقترحت
عليه ان يشاركني غرفتي ، فقبل بلا كلفة
حتى ربت على كتفي ، وتجدد وجهه بابتسامة .
ما اكثر ما كان مضحكا ! . . .

وكان لمكسيم مكسيمتش معرفة عميقة بفن
الطهي : فشوى دراجا ، وبدا له ان يرشها
بماء الخيار المملح ، فكانت فكرة موفقة يجب
ان اعترف اني لولاه ما اكلت شيئا ساخنا .
وساعدتنا زجاجة من خمر كاخيتيا على ان ننسى
ان ليس ثمة الا طبق واحد . ثم اشعل كل
منا غليونه وجلسنا ، انا بالقرب من النافذة ،
وهو بالقرب من الموقد الذي اشعلناه لان النهار

كان باردا ورطبا . وصمتنا . وما عسى ان نقول ؟
لقد قص عليّ كل ما قد وقع له من حوادث
شائقة ولم يكن لديّ انا ما اقصه عليه . ونظرت
من النافذة . هذه بيوت صغيرة واطئة كثيرة
تتناثر وراء الاشجار على طول تيريك الذي اخذ
يزداد في هذا المكان عرضا ؛ وهذا خط الجبال
المسنن يبدو من بعيد ازرق اللون ، ووراءه يظهر
كازيك بقبعته البيضاء كقبعة الكاردينال . واخذت
اودع هذه الامكنة بيني وبين نفسي ، وكنت
اشعر منذئذ بالاسف لفراقها
وظللنا على هذه الحال مدة طويلة . كانت
الشمس تختبئ وراء الذرى المتجلدة ، وكان
ضباب بلون اللبن ينتشر فوق الوديان ، حين
سمعنا جرس مركبة يرن في الشارع ، وسمعنا
صرخات السائقين . ودخلت ساحة النزل عدة
مركبات تصحبها جماعة من الارمن قدرة ،
وتتبعها عربة ذات مظلة خفيفة ، رشيقة ،
انيقة ، يبدو انها صنعت في الخارج . وكان
يمشى وراءها رجل ذو شارين طويلين ، يرتدى
سترة من الطراز المجرى ، وتبدو عليه امائر الخادم

الراقى . يستحيل ان يخطئ المرء فى رتبته متى
رأى طلاقته فى هز رماد غليونه وصراخه وراء
السائق : لا شك انه خادم مدلل لسيد كسول
ولا شك انه نوع من فيغارو روسى .

فهمت به من النافذة :
<http://www.library4arab.com/vb>
— ايه ايها الصديق ، أهده هى «الفرصة»

تصل ؟

فنظر الىّ فى شىء من العجرفة ، واصلح
ربطة عنقه ، واشاح بوجهه عنى . وكان يسير
الى جانبه رجل من الارمن فاجابنى ، وهو
يبتسم ، بانها هى «الفرصة» حقا ، وانها ستسافر
فى صباح الغد .

قال مكسيم مكسيمتش ، وهو يقترب من
النافذة :

— هذا حسن !

ثم اضاف :

— ما اجمل هذه العربة ! لا شك ان
صاحبها موظف كبير ، ذاهب الى تفليس
للتفتيش . وواضح انه لا يعرف جبالنا . اؤكد
لك ، غير مازح ، ان هذه العربة لن تمضى

بعيدا ، حتى ولو كانت قد صنعت
فى انجلترا . . . دعنا نعرف من هو . . .
وخرجنا من الدهليز . كان فى آخر الدهليز
باب يفتح على غرفة جانبية رأينا الخادم والسائق

يحملان اليها الحقائب صاحب الرئيس :
— قل لى ، ايها الصديق ، لمن هذه
العربة الجميلة ؟ .. هه ؟ .. انها لرائعة حقا ! ..
فدمدم الخادم يبضع كلمات لم نفهمها ،
دون ان يلتفت الينا ، وهو يحل احدى الحقائب .
فغضب مكسيم مكسيمتش ، فامسك بالرجل غير
المؤدب من كتفه وقال :
— اسمع ، يا صاحى ، اليك اوجه
الكلام .

— هذه العربة ؟ .. انها لسيدى . . .
— من هو سيدك ؟
— بتشورين . . .
— بتشورين ؟ هل قلت بتشورين ؟ .. آه ،
يا الهى ؟ .. هل خدم سيدك فى القفقاس ؟ .. —
هتف مكسيم مكسيمتش بذلك ، وهو يشدنى
من كمنى ، واشرقت عيناه ببريق من الفرح .

فاجابه الخادم بقوله :

— اظن انه كان فى القفاس ، لست فى خدمته الا منذ مدة قصيرة . . .

— حسن ! واسمه جريجورى الكسندروفتش ؟ . .

أليس كذلك ؟ ان سيدك صديقى ! — قال

ذلك ثم هوى على كتف الخادم بضربة ودية جعلته يترنح .

فقطب الخادم ما بين حاجبيه ، وقال :

— من فضلك ، يا سيد ، انك تزعجنى .

— هون عليك يا صاحى ! هل تعلم اننا

كنا صديقين حميمين ؟ انا وسيدك ، نتخاطب

بصيغة المفرد ؟ واننا كنا فى الخدمة معا . . .

ولكن هو ، اين هو ؟ . .

فاجاب الخادم بان بتشورين نزل فى بيت

الكولونيل ن . . . للعشاء وقضاء الليلة .

— ألا يأتى الى هنا المساء ؟ ألا تذهب

انت الى هناك لامر من الامور ؟ قل له ، اذا

ذهبت ، ان مكسيم مكسيمتش هنا نعم ،

قل له ذلك فحسب . . . وسيعرف هو كل شىء .

وسيكون اجرک على عنائك ثمانين كويكا .

فمط الخادم شفته شزرا يحتقر هذا الوعد
الطفيف ، ولكنه رغم ذلك أكد لمكسيم
مكسيمتش انه سيبلغ سيده الرسالة .
قال لي مكسيم مكسيمتش وقد اشرق وجهه :

— سيأتي مهرولاً ، ستري . انا ذاهب الى
الشارع انتظر . خسارة اننى لا اعرف ن . . .
ومضى فجلس على مقعد فى خارج البيت .
وعدت انا الى غرفتى . لا بد ان اعترف باننى
كنت ، انا ايضا ، انتظر مجيء بتشورين بفارغ
صبر فلئن كانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنى
عن شخصيته من حديث الرئيس ليست بالصورة
المشرقة كثيرا ، فلقد كنت ارى فى بعض ملامح
طبعه امارات بارزة تلفت النظر . وبعد ساعة
من الزمان ، جاء احد العجزة يحمل السماور
يغلى وابريق الشاى .

فصحت بمكسيم مكسيمتش من النافذة اقول :
— مكسيم مكسيمتش ، هل تريد شايا ؟
— لا ، شكرا ، ليس بى ظمأ .
— قدح واحد على الاقل ، لقد تأخر الوقت ،
والجو بارد .

— لا ، لا ، شكرا . . .

— لك ما تريد !

وتناولت الشاي وحدي . وبعد عشر دقائق ،

عاد الرئيس العجوز ، وهو يقول :

<http://www.library4arab.com/vb>

قدحا من الشاي الساخن . ولكنني خفت

ان افوته . . . لقد ذهب الخادم منذ مدة طويلة ،

لا شك انه حبس عن المجيء .

وتجرع مكسيم مكسيمتش قدحا من الشاي

بسرعة عظيمة ، ورفض ان يتناول قدحا آخر ،

وعاد الى مقعده ، وقد بدت عليه علائم العصبية

قليلًا . كان واضحا ان عدم اهتمام بتشورين

بالرئيس العجوز يحزنه اشد الحزن — لا سيما

انه كان يحدثني عن صداقتهما منذ قليل ،

وانه كان قبل ساعة واحدة ، على يقين من ان

بتشورين سيهرع اليه متى سمع اسمه .

انقضى وقت طويل ، وجاء الليل ، ففتحت

النافذة مرة اخرى ، وناديت مكسيم مكسيمتش

قائلا ان ساعة النوم قد حانت . فدمدم ببعض

الكلام ، فكررت قولي ادعوه الى النوم ، فلم

يجب بشيء .

تمددت على الاريقة ، وغطيت جسمي
بمعطفي ، وتركت الشمعة مشتعلة . وسرعان
ما غفوت . كان يمكن ان انام نوما هادئا لو
لا ان مكسيم مكسيمتش انقطني حين عاد في
ساعة متأخرة من الليل . لقد رمى غليونه على
المنضدة ، واخذ يذرع الغرفة ذهابا وايابا ،
ثم حرك النار في الموقد واستلقى اخيرا لينام .
غير انني ظللت اسمعه ، خلال مدة طويلة ،
يسعل ، ويبصق ، ويتقلب .

قلت له :

— هل يمنعك البق من النوم ؟

فقال وهو يطلق زفرة حرى :

— ها ! نعم ، هو البق .

واستيقظت في صباح الغد مبكرا ، ولكن

مكسيم مكسيمتش كان قد سبقني ، ووجدته

في خارج البيت جالسا على مقعده .

قال :

— يجب ان اذهب الى الكومندان ، فارجوك

اذا جاء بتشورين ان ترسل اليّ من يستدعيني .

فوعده بذلك . فمضى يركض ركضا ،
كان اعضاءه قد استردت ، فجأة ، قوة الصبا
ومرونة الشباب .

كان الصباح منعشا جميلا بين الاصباح .
السحب المذهبة تبدو فوق الجبال كأنها سلسلة
اخرى من الذرى الساحرة . وعلى الجهة الاخرى
من الساحة الواسعة التى تمتد امام البيت ، يعج
السوق بالناس ، لان اليوم احد . وأخذ يدور
حولى صبية اوسيتيون حفاة ، يحملون على ظهورهم
سلالا ممتلئة باقراص العسل ، فطردتهم شرّ
طرده : كان فى رأسى شىء آخر . لقد بدأت
اقاسم رفيقى الرئيس الطيب قلقة .

وما انقضى على ذلك عشر دقائق حتى ظهر
فى الطرف الآخر من الساحة الشخص الذى كنا
نتظره . كان معه الكولونيل ن . . . صحبه حتى
النزل ، ثم استأذنه ، وعاد الى القلعة . فارسلت
احد العجزة فورا ، ينبئ مكسيم مكسيمتش
بذلك .

وخرج الخادم الى لقاء بتشورين ، وابلغه
انهم سيكدنون الخيل ؛ ثم مدّ اليه علبة

السيجار ، وتلقى اوامره ، ومضى . فاشعل
السيد سيجارا ، ثم تئاءب مرتين ، وجلس على
المقعد امام البيت . ينبغي لى الآن ان اصوره
لكم .

<http://www.library4arab.com/vb>

انه متوسط القامة ، ويداه قده الدقيقين
وكتفاه العريضان على بنية قوية تستطيع ان تتحمل
جميع متاعب الحياة المترحلة ، وجميع تبدلات
الجو ، لم ينتصر عليها الافراط فى حياة المجون
بالعاصمة ، ولا العواصف النفسية الداخلية .
وكان يرتدى ردنجاتا من المخمل علاه شىء من
الغبار ، ولم يربط من ازراه الا الزران الاخيران ،
فكان يكشف عن قميص ناصع البياض ، يدل
على ان الرجل من وجوه القوم . . . وكان قفازيه
قد صنعا خصيصا ليديه الصغيرتين الارستقراطيتين ،
فلما خلع احدهما عجت من نحول اصابعه
الشاحبة . وكان يمشى بغير مبالاة . ولكننى
لاحظت انه لا يهز يديه ، وهذه اشارة من امائر
الطبع الكتوم ، ذلك رأى اقيمه على ملاحظاتى
الشخصية ، ولست اطمع فى ان تقبلوه قبولا
اعمى . وحين جلس رأيت قامته المنتصبة

المستقيمة تنثنى كأن ليس له عمود فقري .
وكان وضع جسمه كله يكشف عن شيء من
الضعف العصبى ، ويذكر بتلك المرأة الغندورة
ذات الثلاثين عاما التى وصفها لنا بلزك جالسة
على مقعدهما العزيم الممخدرات ، بعد حفلة
راقصة منهكة . اذا القيت عليه نظرة اولى لم
تقدر انه تجاوز الثالثة والعشرين من عمره .
ولكنك بعد ان تنعم فيه النظر تقدر عمره بثلاثين
عاما . وكان فى ابتسامته شيء من معانى الطفولة
وكان جلده ناعما رقيقا كأنه جلد امرأة . وكان
شعره الاشقر المتجدد يحيط احاطة جميلة بجبينه
الشاحب الذى يفيض نبلا والذى لا ترى فيه
الا العين المنتبهة آثار غضون متصالبة لا شك
انها تغدو اظهر واوضح فى ساعات الغضب
والاضطراب . وكان شاربا وحاجبا سودا ، رغم
ان شعره اشقر ، وهذا يدل على نبل المحتد ،
كما يدل سواد اللبدة والذنب فى الحصان الاصهب
على انه كريم العرق . ويجب ان اذكر ، تماما
للصورة ، ان انفه مقع قليلا ، وان اسنانه ناصعة ،
وان عينيه كستناويتان . ولكننى احب ان اقول

بصدد عينيه بضع كلمات :

— اولا كانت عيناه لا تضحكان ، حتى

حين يضحك ! هل اتيح لكم ان تروا هذا

الامر العجيب ؟ . . ان هذا يدل اما على طبع

ردىء ، واما على حزن عميق دائم . كانت

عيناه تلتمعان ، من خلال اهدابه المغضية

قليلا ، ببريق متوهج كتوهج الفوسفور ، ان صح

التعبير . وليس هذا البريق انعكاسا لروح حارة

او خيال ملتهب ؛ وانما هو بريق الفولاذ المصقول ،

يبهر ولكنه بارد . وكانت نظراته متحركة ، ولكنها

نافذة ثقيلة ، تخلف فيك شعورا مزعجا بانها

نظرات تساؤل خفى ، وكان يمكن ان تحس

فيها الوقاحة ، لولا انها هادئة لا تبالى . هذه

ملاحظاتي ، ولعلها ما كانت لتدور فى خلدى

لولا اننى كنت اعرف عن حياته بعض التفاصيل ،

ورب شخص آخر يشعر شعورا مختلفا عن شعورى

كل الاختلاف . ولكن احدا لم يحدثكم

عنه غيرى ، فلا بد لكم من الاكتفاء بهذا

الوصف الذى سقته . وينبغى ان اقول لكم ،

فى الختام ، ان له شخصية جميلة ، وان وجهه

لهو من الوجوه الفريدة التي تعجب نساء المجتمع
الراقي على الخصوص .

وقرنت الخيول ، واخذ الجرس يرن في رقابها ،
واقترب الخادم من بتشورين مرتين ليقول له ان
كل شيء مهياً ولم يصل مكسيم مكسيمتش بعد .
ومن حسن الحظ ان بتشورين الذي تعلق نظراته
بقمم القفاس المسننة الزرقاء كان مستغرقا في
تفكيره ولا يلوح عليه انه يتعجل المسير .
— اذا تفضلت بالانتظار قليلا ، فلسوف
يسرك ان ترى صديقا قديما .

فقال بسرعة :

— ها ، نعم لقد قالوا لي ذلك امس .
ولكن اين هو ؟ — فالتفت نحو الساحة ، فاذا
انا ارى مكسيم مكسيمتش يركض باقصى سرعة
يستطيعها . . . وما هي الا دقائق قليلة حتى كان
الى جانبنا . كان يلهث ، وكان العرق يتصبب
منه قطرات كبيرة ، وكانت خصلات من شعره
الرمادي قد افلتت من تحت قبعته والتصقت
بجبينه ، وكانت ركبته تصطكان . . . اراد ان
يرتمي على عنق بتشورين ، ولكن بتشورين مد

اليه يده في غير قليل من البرود ، وان يكن قد
ابتسم له ايضا ابتسامة لطيفة . فتجمد
الرئيس لحظة ، ثم شد على اليد الممدودة بكلتا
يديه : لم يكن قادرا بعد على الكلام . قال

<http://www.library4arab.com/vb> بتشورين

— ما اشد سرورى برؤيتكم يا مكسيم

مكسيمتش ! ولكن كيف صحتكم ؟

فدمدم العجوز يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— وانت ؟ .. وانتم ؟ .. كم من السنين .. .

كم من الايام مضت ولم ير احدنا الآخر ! .. .

ولكن الى اين انتم ذاهبون ؟ .. .

— انا ذاهب الى بلاد فارس .. . والى ابعد

من ذلك ايضا .. .

— ولكن لا تذهبوا فورا ؟ .. . انتظروا قليلا

يا عزيزى ! .. . ليس يعقل ان نفرق بمثل هذه

السرعة ، بعد سنين كثيرة .. .

فكان كل جواب بتشورين ان قال :

— آن اوان ذهابى ، يا مكسيم مكسيمتش .

— يا الهى ، يا الهى ! اين تسرعون هكذا ؟

ان فى نفسى امورا كثيرة يجب ان اقولها لكم .. .

سئلة كثيرة يجب ان اطرحها عليكم . . . اذن ،
د قدمتم استقالتكم ؟ وماذا كنتم تفعلون خلال
لك الوقت كله ؟
فاجاب بتشورين مبتسما :

— كنت اضحك !
<http://www.library4arab.com/vb>

— وهل تذكرون حياتنا فى القلعة ؟ ما كان
جمل تلك البلاد للصيد ! هه ؟ لانكم كنتم
حبون الصيد انتم . . . ويلا ؟
فاصفر بتشورين قليلا ، وادار وجهه ، ثم
ل :

— نعم ، اتذكرها !
ثم لم يلبث ان تئاءب تئاؤبا حمل عليه
سه حملا . اراد مكسيم مكسيمتش ان يقنعه
لبقاء معه ولو ساعتين . قال : سنتناول غداء
متازا . عندى دراجان وخمر طيب من كاخيتيا . . .
بعنا ، هو لا يعدل خمر جورجيا . . . ولكن هذا
' يمنع انه مشهور . . . وستحدث . . . وستقصون
لى اخبار حياتكم فى بطرسبرج . . . أليس كذلك ؟
— أوكد لكم يا عزيزى ماكسيم مكسيمتش انه
بس لدى ما اقصه عليكم . . . وداعا . . . آن

لى ان اسافر . . . اننى مستعجل . . . ثم اضاف الى ذلك ، وهو يتناول يده :

— شكرا على انكم ما نسيتمونى .

فقطب العجوز حاجبيه . . . كان حزينا غاضبا

فى آن واحد ، وان حاله ان لا يظهر من ذلك

شيئا . ودمدم متذمرا يقول :

— انسى ! انا لم انس شيئا ، انا . . .

اذن لن احبسكم عن الذهاب . . . ما هكذا

كنت اتصور ان القاكم . . .

فقال بتشورين وهو يعانقه فى مودة وصداقة :

— هيا ، هيا . . . انا لم ازل من كتته . . .

ماذا تريدون ؟ ان على كل امرئ ان يسير فى

طريقه . . . الله يعلم هل نلتقى بعد اليوم قط ! . . .

— قال ذلك وهو يصعد عربته ، وكان السائق

قد جمع الاعنة وهمّ بالمسير .

فصرخ مكسيم مكسيمتش فجأة وهو يمسك

بقبضة باب العربة ، يقول :

— انتظر ، انتظر ! لقد نسيت . . . اوراقك

التي بقيت عندى . . . ما زلت احتفظ بها . . .

كنت اظن اننى سألقاك فى جورجيا . . . اما

واننا التقينا هنا . . . فماذا اصنع بها ؟
— اصنع بها ما تشاء ! . . . وداعا . . .
فصاح مكسيم مكسيمتش مرة اخرى :
— انت ذاهب اذن الى بلاد فارس ؟ . . .

<http://www.library4arab.com/vb/> وتسمى

ولكن العربة كانت قد ابتعدت ، فلوح
بتشورين بيده كأنه يقول : قد لا نلتقى قط ،
وعلام نلتقى ؟ . . .

وانقضى وقت طويل ، واصبحنا لا نسمع
رنين الجرس ولا قرقة العجلات على ارض الطريق
الحجرى ، ولكن العجوز المسكين ظل واقفا
في مكانه ، غارقا في تفكيره . وقال اخيرا :
— نعم ، — كان يحاول ان يظهر بمظهر
من لا يبالي ، ولكنى رأيت دموع الحسرة تلمع
في اهدابه ، — لا شك اننا كنا صديقين . . .
ولكن هل بقى فى ايامنا هذه اصدقاء ؟ . . .
من انا بالنسبة له ؟ اننى لا املك ثروة طائلة ،
ولا رتبة عالية . ثم اننا متفاوتان كثيرا فى السن . . .
ها قد رأيت ، لقد اصبح على المودة منذ زيارته
مرة اخرى لبطرسبرج . . . يا لها من عربة !

ياله من متاع ! وهذا الخادم المتعجرف ! . . .
قال ذلك وهو يتسم ابتسامة ساخرة . ثم
التفت الىّ يسألني :

— ولكن قل لي انت ، ما رأيك في كل
ذلك ؟ ما ذهابه الى بلاد فارس ؟ . . . اما
انا فهذا يضحكني ! . . . كنت اعرف انه رجل
طائش لا يمكن الاعتماد عليه . . . ولكن يؤسفني
مع ذلك ان ينتهي الى اسوأ العواقب . . . لا
بد مما ليس منه بد . . . لطالما قلت له : ماذا
تنتظر من اولئك الذين ينسون اصدقاءهم ؟ . . .
ابتعد مكسيم مكسيمتش ، ليخفي عني
انفعاله ، ومضى الى الباحة يدور حول عربته ،
ويتظاهر بانه يفحص عجالاتها ، ولكن عينيه
كانتا تمتلئان بالدموع في كل لحظة .
قلت له وانا اقترب منه :

— مكسيم مكسيمتش ، ما هي تلك الاوراق
التي تركها لك بتشورين ؟

— والله لا اعرف شيئا ! لعلها مذكرات . . .

— وما عسى ان تصنع بها ؟

— ما اصنع بها ؟ سأحشو بها الخراطيش .

— بل اعطني اياها .

فنظر الي دهشا ، ثم دمدم بين اسنانه
ببعض الكلام ، واخذ يبحث في طوايا حقيبته ،
ثم اخرج منها دفترًا ورماه على الارض في ازدياء ،
ثم اخرج دفترًا ثانيًا فثالثًا فعاشرًا صنع بها
كلها مثلما صنع بالاول . كان في غضبه شيء
من غضب الاطفال ؛ فكنت اشعر بالحاجة الى
الضحك واشفق عليه في آن واحد .

قال :

— هي لك . اهنتك على هذه اللقطة . . .
— وهل استطيع ان اصنع بها ما اشاء ؟
— اطبعها في الجرائد اذا احببت . . . اما
انا فاسخر من ذلك كله . لست صديقه ولا
قريبه . . . صحيح اننا عشنا مدة طويلة تحت
سقف واحد . . . ولكنه ، على كل حال ، ليس
الوحيد بين الناس . . .
فتناولت الاوراق ، وذهبت بها بسرعة ،
خشية ان يعدل الرئيس عن رأيه . وجاء بعد
قليل من يقول لنا ان «الفرصة» تسافر بعد ساعة
فامرت بكدن الخيل . ودخل على الرئيس وانا

اضع قبعتي على رأسي تهيؤا للرحيل فلم يبد
لي انه يتهيأ للسفر . كان وجهه عابسا باردا .
— وانت يا مكسيم مكسيمتش ، ألا تسافر ؟
— لا .

لماذا ؟
<http://www.library4arab.com/vb>

— لم ار المقدم بعد وهناك اشياء يجب ان
انقلها اليه . . .

— ولكنك ذهبت اليه ؟

فقال مرتبكا :

— نعم ذهبت اليه ، ولكنني لم اجده
فلم انتظره . . . فهمت كل شيء : لعلها اول
مرة في حياة العجوز يؤثر فيها امرا شخصا ،
كما يقال بلغة القراطيس ، على امور الخدمة . . .
وانظر كيف كوفئ على ذلك ! قلت له :

— انه ليؤسفني ، انه ليؤسفني كثيرا ، يا
مكسيم مكسيمتش ، ان نفترق بمثل هذه السرعة .
— نحن لسنا الا شيوخا جهالا . . . اما

انتم فشاب من الطبقة الراقية . انتم اناس
متكبرون . . ترضون ان تعاشرنا تحت رصاص
الشراكنة ، ولكنكم بعد ذلك تستحون ان تمدوا

ايدىكم الينا .

— لا استحق هذا التقرع يا مكسيم

مكسيمتش !

— آ . . . ما قلت هذا من اجلك ثم اننى

<http://www.library4arab.com/vb>

كان فراقنا جافا بعض الجفاف . لقد غدا

مكسيم مكسيمتش رئيسا عجوزا متدمرا لا اكثر .

لماذا ؟ لان بتشورين مد اليه مجرد يده ، عن

غفلة او لاي سبب آخر ، فى حين ان مكسيم

مكسيمتش كان يريد ان يعانقه ، ان يشب الى

عنقه . انه ليحزن المرء ان يرى شابا فى ريعان

صباه يفقد اجمل آماله واحلامه حين ترفع عن

بصره الغشاوة الوردية التى كان ينظر من خلالها

الى افعال الناس وعواطفهم . ولكن الشاب يمكن

ان يستبدل باوهامه القديمة اوهاما جديدة ، تنقضى

كالاولى ، ولكنها عذبة كالاولى . اما فى سن

مكسيم مكسيمتش فماذا يستبدل الانسان باوهامه

القديمة ؟ لا بد ان يقسو القلب ، وان تنفلق

النفس . . .

وسافرت وحدى .

يوميات بتشورين

مقدمة

<http://www.library4arab.com/vb>

علمت منذ مدة قصيرة ان بتشورين مات
بعد عودته من بلاد فارس . ولقد سرنى هذا النبأ
كثيرا ، فهو يهب لى حق نشر هذه المذكرات .
لقد استفدت منها فمهرت باسمى اثرا ليس لى .
ارجو ان لا يؤخذنى القارئ على هذه السرقة
الادبية البريئة !

وجب الآن ان اشرح قليلا الاسباب التى
حفزتنى الى ان انشر فى الناس اسرار شخصية
لرجل لم اعرفه ابدا . لو كنت صديق ذلك
الرجل ، لفهم كل انسان ما يتصف به الصديق
الحقيقى من افشاء للاسرار خبيث . ولكنى لم
ار الرجل الا مرة واحدة فى حياتى ، حتى لقد
رأيت على قارعة الطريق . فانا اذن لا يمكن
ان اكن له ذلك الكره الذى لا يفسر ، ذلك
الكره الذى يتقنع بقناع الصداقة ، ولا ينتظر

الا ان يموت الشخص المحبوب او ان يفجع حتى يصب على رأسه الوان التقرير والنصح والسخر والاسف .

حين اعدت قراءة هذه المذكرات ، اقتنعت

بصدق هذا الرجل الذي كشف عن ضعفه وعن

نقائصه بلا رحمة . ورب قصة نفس من النفوس مهما

تكن صغيرة تكون اشيق وانفع من قصة شعب

بأسره ، ولا سيما حين تكون ثمرة ملاحظات

اجراها على نفسه فكر ناضج ، ثم كتبها لا

تدفعه الى كتابتها رغبة عابثة في اثاره الدهشة

والشوق في انفس القراء . ان مما يعيب «اعترافات»

روسو انه كان يقرأها لاصدقائه .

فالرغبة في نفع الناس هي وحدها التي دفعتني

اذن الى نشر هذه الاجزاء من يوميات القت

بها الصدفة بين يدي . ولقد غيرت جميع الاسماء ،

غير ان الاشخاص الذين يدور الكلام عليهم

سيعرفون انفسهم من غير شك ، وقد يجدون

في هذه المذكرات تبريرا لافعال كانوا الى هذا اليوم

يأخذونها على شخص فارق هذا العالم — انا

نغفر ما نفهمه ، نغفره دائما تقريبا .

لم اضمن هذا الكتاب الا ما له صلة
باقامة بتشورين فى القفقاس . وقد بقى عندى
دفتر كبير يروى قصة حياته كلها . وسأنشر هذا
الدفتر ايضا ذات يوم ، ليرى الناس فيه رأيهم .
ولكننى لا احرؤ ان اتحول هذه البعة <http://www.library4arab.com/vb>
وذلك لاسباب كثيرة هامة .
ولعل بعض القراء يريدون ان يعرفوا رأى فى
خلق بتشورين . ان عنوان الكتاب يتضمن الجواب .
ورب قائل يقول : «ولكن فى هذا سخرية
قاسية» . من يدرى ؟

تامان

لا شك ان تامان هي اسوأ مدينة صغيرة
بين جميع المدن البحرية بروسيا . لقد كادت
اموت فيها جوعاً ، وأكثر من ذلك انهم ارادوا
اغراقى فى تلك المدينة . وصلت مع البريد فى
ساعة متأخرة من الليل ووقف السائق احصنته
المكدودة الثلاثة امام البيت الحجرى الوحيد
الذى كان يقوم عند مدخل المدينة . كان الخفير ،
وهو قوزاقى من البحر الاسود ، نائماً نصف نوم ،
فلما سمع رنين جرسنا ، استيقظ وصاح بصوت
أجش : « من هذا ؟ » ، وهرع نحونا وكيل
ضابط مع ديسياتنيك ، فشرحت لهما انى ضابط ،
واننى اسافر الى الجيش المقاتل . وطلبت منهما
ان يجدا لى مكانا ابيت فيه . فقادنى الديسياتنيك ،
وطاف بى المدينة كلها ، ولكننا لم نستطع

• عريف عشرة من القوزاق .

ان نجد عزبة واحدة خالية . وكان الجو باردا ،
وكنت لم اعرف النوم منذ ثلاث ليال ، كنت
مرهقا حقا ، ففضبت وصرخت :

— ايها اللص ، خذني الى حيث تريد ،

<http://www.library4arab.com/vb> خذني الى الشيطان ان كنت على شيطان ان

تجد مكانا !

فاجابني وهو يحك نقرته :

— بقي بيت واحد حقير ، لن يعجبك

يا صاحب المعالي . انه مكان سيئ .

فامرته بان يقودني اليه ، دون ان افهم معنى

قوله على وجه الدقة . فاخذ يطوف بي مدة

طويلة في ازقة صغيرة قدرة لا ارى فيها على

يميني وعلى شمالي الا جدراننا متهدمة حتى وصلنا

الى بيت صغير على شاطئ البحر .

كان القمر بدرا ، يضيء سقف مسكني

الجديد ، وهو سقف من قصب ، ويضيء

جدرانه البيضاء . وفي الباحة التي يحيط بها

جدار ، كان يقوم بيت حقير مائل ، وهو

اصغر واقدم من البيت الاول ، ويقع تقريبا

على حافة منحدر وعمر ، ومن تحته تتلاطم

الامواج الزرقاء القاتمة ، فتحدث هديرا لا ينقطع .
كان القمر الهادىء يتأمل البحر الهائج الذى يطيعه .
واستطعت ان ارى على ضوء القمر ، بعيدا عن
الشاطئ سفينتين تنتصب اجهزتهما السوداء ساكنة
على خط الافق الشاحب ، كأنها نسيج العنكبوت .
قلت فى نفسى «ان فى المرفأ سفنا ، وسأسافر
غدا الى غيلندجيك» .

وكان ناصفى * قوزاقيا من جنود الجبهة ،
فامرته بان يأخذ حقيبتى وان يصرف العربىة . ثم
ناديت صاحب البيت : فلم اسمع جواباً .
وقرعت الباب فلم اسمع جوابا ايضا . ما معنى
هذا ؟ واخيرا خرج الىّ من الظلام صى فى
نحو الرابعة عشرة من عمره . قلت له :

— اين صاحب البيت ؟

فاجاب بروسية ركيكة :

— ليس له صاحب .

— كيف ؟ ليس له صاحب ؟

— نعم ، ليس له .

— وصاحبة البيت ؟

* الناصف هو الجندى التابع لضابط .

— ذهبت الى الطرف الآخر من المدينة .

— ومن يفتح لي الباب ؟

قلت ذلك وانا اضرب الباب بقدمي ،
فانفتح من تلقاء نفسه . كانت تفوح من البيت

<http://www.Library4Arab.com/vb> رائحة الرطوبة ، فاشعلت عيون نقاب ، وقربت

من وجه الصبي ، فاذا انا ارى عينين بيضاوين .
كان الصبي اعمى ، اعمى تماما منذ الولادة .
كان واقفا امامي بلا حراك . فاخذت اتفرس
فيه .

يجب ان اعترف اننى اتطير من جميع
العمى ، والعمور ، والصمم ، والبكم ، والمقعدين ،
ومن قطعت ايديهم ، ومن تحدثت ظهورهم ،
الى آخر ما هنالك . فلقد لاحظت ان ثمة
علاقة بين ظاهر الانسان ونفسه ، كأن فقد
المرء عضوا من اعضائه يؤدي الى فقدان ملكة
من ملكاته .

اخذت اذن اتفرس فى وجه الاعمى . ولكن
ما عسى ان يقرأ المرء فى وجه بلا عينين ؟
وكنت قد اطلت النظر اليه ، مشفقا على غير
ارادة منى ، حين لاحظت ابتسامة خفيفة لا

تکاد ترى ، تطوف بشفتيه الدقيقتين ، فاحدثت
فى نفسى تأثيرا مزعجا الى ابعد حدود الازعاج :
أهو يتظاهر بالعمى ؟ وقلت لنفسى ان المرء
يستحيل عليه ان يصطنع غشاوة على عينيه (وما
عسى ان يتعمد من ذلك؟) ، ولكن الشك فى
ذلك ظل يراودنى ! وكثيرا ما تستبد بى ظنون
كهذه . . . سألته اخيرا :

— أنت ابن صاحب البيت ؟

— لا .

— فمن انت اذن ؟

— يتيم ، فقير .

— هل لصاحبة البيت اولاد ؟

— لا ، كانت لها بنت ، ولكنها مضت

الى الطرف الثانى من البحر مع تترى .

— اى تترى ؟

— لا اعرف انا . هو تترى من القرم ،

ربان زورق من كرتش .

ودخلت الكوخ . كان كل اثاره مقعدين

ومنضدة ، وصندوقا كبيرا بالقرب من الموقد ولا

ايقونة على الجدار : هذا نذير سوء ! وكانت

ريح البحر تقتحم الغرفة من النافذة التي كسر
لوح من زجاجها . فاخرجت من حقيبتى شمعة
اشعلتها ، ثم أخذت ارب اشياى ، ووضعت
سيفى وبنديقتى فى ركن من اركان الغرفة ، ووضعت
مستشفى على المصفاة ، وفرشاة حذاء المتعددين

بمعطفى وفرش القوزاقى بمعطفه المقعد الآخر
وبعد عشر دقائق كان يغط . فى نوم عميق
ويشخر . اما انا فلم استطع ان انام . كنت لا
انفك اتصور فى الظلام الصبىّ ذا العينين البيضاءوين .
وانقضى على ذلك ما يقرب من ساعة .
كنت ارى القمر من النافذة يتلأأ وكانت اشعته
تدخل الى البيت ، وتسقط على ارضه الترابية .
وفجأة رأيت على الجانب المضىء من الارض
خيال شخص يمر . فرفعت رأسى ونظرت من
النافذة فرأيت شخصا يمر بسرعة ويختفى . كنت
لا استطيع ان اصدق ان الشخص نزل منحدر
الشاطئ ولكنه لا يستطيع ان يمضى الى مكان
آخر . فنهضت واندست فى جلبابى ، ووضعت
خنجرى فى زنارى ، وخرجت اسير بخطى محترسة
فرأيت الاعمى مقبلا ، فالتصقت بالجدار ،

فمر على مقربة منى بخطى واثقة ولكنها محاذرة .
كان يحمل تحت ابطه رزمة فلما انعطف نحو
المرفأ اخذ يهبط ممرا ضيقا وعرا . فتبعته على
مسافة منه ، بحيث اظل اراه فلا يغيب عنى ،
وقلت لنفسي «الزمي تكلم الخرس وبصر
العمى» .

واخذت السحب تغشى القمر اثناء ذلك ؛
وكان الضباب يصعد من البحر ، فلا يكاد يرى
المرء ، من خلاله ، الا التماع فانوس على
مؤخرة السفينة القريبة ؛ وعلى الشاطئ يلتمع
زيد الامواج التى تلوح كأنها تهم بابتلاعه فى
كل لحظة . وبينما كنت اهبط المنحدر الوعر
فى كثير من العناء ، رأيت الاعمى يتوقف
لحظة ، ثم ينعطف يمينا . كان يسير قريبا
جدا من الماء حتى كان يتراءى لى فى كل
لحظة ان الامواج ستلقفه وتمضى به . لا شك
انها ليست نزهته الاولى ، لقد كان يمضى فى
سيره على ثقة واطمئنان ، يتنقل من صخرة
الى صخرة ، ويتحاشى الفجوات . ووقف اخيرا ،
ورأيته كأنه يصيخ بسمعه الى صوت لا اعرف اى

صوت هو ، ثم جلس على الارض ، ووضع
الرزمة التي كان يحملها . فاخترت انا وراء نتوء
من الصخر ، وكنت ارى حركاته جميعها . وما
هي الا دقائق معدودة حتى لاح على الطرف
الآخر شكل ابيض ، اقترب من الاعمي ثم
جلس الى جانبه . فكانت الريح تنقل الى من
حين الى حين بعض ما دار بينهما من كلام .
قال صوت امرأة :

— ايها الاعمي ، ان الجو رديء ولن يصل
يانكو .

— يانكو لا يخشى العاصفة .

— الضباب في تكاثف متزايد .

وكان في صوت المرأة رنة من حزن .

— المرور بين حرس السواحل في الضباب

اسهل .

— واذا غرق ؟

— عندئذ تذهبن الى الكنيسة يوم الاحد

بلا شريط حريري جديد .

وكان صمت . ثمة شيء لفت نظري :

ان الاعمي الذي لم يكلمني الا بلهجة روسية

ركيكة ، قد انطلق لسانه الآن بكلام روسي
فصيح .

قال وهو يصفق بيديه :

— هل ترين ؟ لقد كنت على حق . ان

يانكو لا يخشى البحر ولا الريح ولا الضباب ولا

حرس الجمرك . اسمعي ! ليس هذا صوت

اصطخاب الماء ، بل صوت مجدافيه الطويلين ،

انا واثق من ذلك .

فوثبت المرأة واقفة ، واخذت تتفحص الافق

قلقة . قالت :

— انت تخرف . لا ارى شيئا .

واعترف انني امعنت النظر ايضا فلم ار شيئا

يشبه ان يكون قاربا . وانقضت عشر دقائق ،

فاذا انا ألمح نقطة سوداء بين جبلين من الامواج .

كانت النقطة تكبر تارة وتصغر تارة اخرى . انها

قارب يرتفع بطيئا على الذرى المتحركة ، ثم

يهبط سريعا وما ينفك يقترب من الشاطئ .

لا شك انه جرى جدا ذلك الشخص الذي

تجاسر في ليلة كهذه ان يشرع في قطع مضيق

طوله عشرون فرستا ، ولا شك ان الدافع الذي

حفزه الى ذلك خطير . وكنت ، وانا احدث
نفسى بذلك ، اراقب القارب المسكين واجف
القلب على غير ارادة منى . كان يغطس كالبطة ،
ثم يتحرك مجدافاه بسرعة كأنهما جناحان ،
فيخرج من الهوة وسط سبائخ الزيد . ولحظة
لاح لى انه من اندفاعه سيرتطم بالشاطى وتتمزق
اريا اريا ، رأيته يستدير للموجة برشاقة ، ويدخل
فى خليج صغير ، سليما لم يمسه اذى .
وخرج منه رجل متوسط القامة ، يضع على رأسه
قلبا تريا من فرو الخروف . ولوح بيده ، فأخذ
الثلاثة يخرجون من القارب اشياء كثيرة ، بلغت
من الكثرة اننى ما زلت الى اليوم اتساءل كيف
لم يغرق بها القارب . وحمل كل منهم على
كتفه حزمة كبيرة ، وابتعدوا على محاذاة الشاطى ،
وسرعان ما غابوا عنى . كان علىّ ان اعود الى
البيت . ويجب ان اعترف ان هذه الحوادث قد
احدثت فى نفسى شيئا من الاضطراب ، فكنت
انتظر الصباح بفارغ الصبر .
ودهش القوزاقى كثيرا حين استيقظ فرأنى
بشبابى ، ولكننى لم اشرح له سبب ذلك .

وظللت امتع طرفى ، من النافذة ، بجمال
السماء الزرقاء تطوف فيها مزق من الغيوم ، وبشاطئ
القرم— يلوح من بعيد خطا بلون البنفسج ،
ويعلوه برج منارة ابيض فوق صخرة مرتفعة .
ثم ذهبت الى قلعة فاناجوريا لاسأل قائدها متى
استطيع ان اركب السفينة الى غيلندجيك .
ولكن القائد لم يستطع ان يجزم لى بشيء
والمسافه ! فالسفن التى رأيتها فى الميناء ، بعضها
لخضر السواحل ، وبعضها الآخر مراكب تجارية لم
تشحن باى بضاعة بعد . وقال القائد :
— قد تصل سفينة البريد بعد ثلاثة ايام
او اربعة ، وعندئذ نرى ما يكون . — فرجعت مكدر
المزاج ، فرأيت القوزاقى ينتظرنى على عتبة الباب ،
وقد ظهرت على وجهه علائم الاضطراب ، قال :
— الحالة سيئة ، يا صاحب المعالى !
— نعم يا صديقى ، يعلم الله متى نساfer
من هنا !
فزادت هذه الكلمات قلقه ، وانحنى على
يقول بصوت خافت :
— هذا مكان مريب . لقد التقيت اليوم

بوكيل ضابط اعرفه ، وهو قوزاقى من البحر
الاسود ، كان من مفرزتى فى العام الماضى ،
فلما ذكرت له اين نسكن ، اجابنى بقوله :
«هذا ، يا صاحى ، مكان مريب . . . هؤلاء

اناس مشوهون !» وهذا صحيح . فما هذا
الاعمى الذى يذهب وحده الى السوق والى البئر
والى الخباز ؟ . . يظهر انهم معتادون هنا على هذا .

— وهل رأيت صاحبة البيت اليوم ؟

— نعم لقد جاءت اثناء غيابك عجوز

وابنتها .

— ابنتها ؟ ولكن ليس لها ابنة .

— ان لم تكن ابنتها ، فلست ادرى من

تكون ؛ اسمع ، ان العجوز فى البيت .

ودخلت الكوخ فرأيت فى الموقد نارا كثيرة ،

يطبخ عليها غداء فاخر لا يتناول مثله اناس فى

مثل فقرهم المدقع . ولم تجب على جميع

اسئلتى الا بانها صماء لا تسمع . ماذا اعمل ؟

التفت نحو الاعمى ، وقد جلس امام الموقد

يغذى النار باغصان يابسة ، وقلت له وانا امسك

بأذنه : وانت يا اعمى النحس ، ألا قلت لى

اين ذهبت البارحة تحمل رزمتك ؟
فأخذ الاعمى يتأوه ويبكى ويصرخ :
— اين ذهبت ؟ لم اذهب الى اى مكان . . .
رزمة ؟ اى رزمة ؟

وسمعت العجوز في هذه المرة ، فقدمت
تقول :

— لا يعرف الناس الا ان يلفقوا ! ماذا
تريد من هذا الصبي البائس ؟ ماذا صنع ؟
فازعجنى هذا كله اخيرا ، فخرجت وقد
صممت على ان اجد مفتاح السر .
وتلفعت بمعطفى اللبّادى ، وجلست على حجر
مسندا ظهري الى جدار السياج . كان البحر يمتد
امامى ، وكان لا يزال يضطرب بعاصفة الليلة
البارحة ، وكان هديره الرتيب الذى يشبه جلبة
مدينة تهم بالنوم يذكرنى بالسنين الخوالى ،
فانتقل بفكرى الى الشمال ، الى عاصمتنا الباردة .
وغرقت فى ذكرياتى ، فذهلت عن كل ما
حولى . . . وانقضت على ذلك ساعة كاملة او
يزيد ، ولاح لى فجأة اننى اسمع غناء . نعم
انه غناء . . . هي امرأة تغنى بصوت نضير .

ولكن من اين يأتى هذا الغناء ؟ وارهفت
سمعى . انه غناء غريب ، بطيء حزين تارة ،
سريع نشط تارة اخرى . ونظرت حولى فلم
ار احدا . وعدت ارهف السمع . لكأن هذه

النبرات تهبط من السماء ؟ ورفعت بصرى الى
فوق ، فلمحت على سقف البيت فتاة ترتدى
ثوبا مخططا ، يتموج شعرها فى الهواء : انها
لحورية من حوريات البحر حقا . وكانت تحمى
عينها من اشعة الشمس بيدها ، وتتفرس فى
الافق البعيد ، ضاحكة مخاطبة نفسها تارة ،
ومستأنفة غناءها تارة اخرى . وانى لاتذكر اغنيتها
كلمة كلمة :

فى البحر الجميل

تسير السفن

السفن ذات الاشرعة البيض ،

طليقة كالرياح .

بين هذه السفن

يسير قارى

قارى الذى ليس له جهاز ،

وليس له الا مجدافان .

حين تهب الزوبعة
تطوى جميع السفن القديمة
اجنحتها

وتتفرق فوق الامواج .

اما انا فانحنى للبحر

<http://www.library4arab.com/vb>

قائلة :

«حذار ايها البحر الخبيث

ان تقلب قارى ،

قارى الملىء

بالف شىء ثمين

يدير دفته فى الظلام الدامس

رجل محنك» .

ودار فى خلدى فورا ان هذا الصوت هو
الصوت الذى سمعته فى الليلة البارحة . فاذهلنى
ذلك قليلا ، حتى اذا نظرت بعد لحظة الى
السطح ، كانت الفتاة قد بارحته . . . وفجأة
رأيتها تمر امامى راكضة . كانت تغنى اغنية
اخرى ، وهى تصفق باصابعها ، ودخلت على
العجوز بسرعة كأنها الريح . وسمعتهما تتشاجران .
كانت هى تضحك فى قهقهة عالية ، وكانت

العجوز تصرخ غاضبة . وفجأة رأيت حوريتي تستأنف
ركضها المتواثب ، حتى اذا اقتربت منى ،
توقفت ، ونظرت فى عينى كأن وجودى يدهشها ،
ثم تحولت عنى فى غير احتفال ، وابتعدت نحو
الناس على بخصى ببيتة . ولكنى لم تستقر هناك ،

بل ظلت تحوم حول البيت طوال النهار ، تثب
وتغنى بلا هوادة . ما اغربها من فتاة ! لم
يكن فى وجهها اى اماره من امارات الجنون .
بالعكس ، كان فيما ترشقنى به عيناها النافذتان
من نظرة متحدية ، قوة مغناطيسية لا استطيع
وصفها وكان يترأى لى ان عينيها تنتظران
فى كل لحظة سؤالا ، ولكنى ما اكاد افتح
فمى حتى تولى هاربة ، وهى تبسم ابتسامه
متخابثة .

ما رأيت فى حياتى امرأة مثلها ، ابدا .
لم تكن جميلة ، ولكن لى فى الجمال آرائى .
انها اصيلة العرق . . . واصالة العرق هذه هى
الشيء الهام فى النساء كما فى الخيول جميعا .
تلك حقيقة يرجع الفضل فى اكتشافها الى فرنسا
الفتية . وهى تتجلى (اعنى اصالة العرق لا فرنسا

الفتية) فى المشية واليدى والساقين ، وفى الانف على وجه الخصوص . ان الانف المستقيم اندر فى روسيا من قدم صغيرة . ولاح لى ان مغنيتى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . ان مرونة

<http://www.library4arab.com/vb> قد هذا العبيبة وطريقها الخاصة فى الغناء

رأسها ، وشعرها الكستناوى الطويل ، والتماع جلدها المتلوح عند الجيد والكتفين كبريق الذهب ، وانفها المستقيم خاصة ، كل ذلك قد سحرنى وملك علىّ عقلى ورغم انى قرأت فى نظراتها المراوغة ما لا اعرف من معانى الشراسة والشبهات ، ورغم ان فى ابتسامتها شيئا لم اجد سبيلا الى فهمه ، فلقد اسرتنى اسرا قويا ، واطاش انفها الجميل صواى . وتخيلت كأنى وجدت مينيون التى تصورها غوته ، وابتدعها خياله الالمانى الجامح . والحق ان بين الفتاتين لوجوها كثيرة من الشبه : انتقال مفاجئ من الحركة الصاخبة الى الهدوء الشامل ، كلام هو الالغاز ، سير متواثب ، غناء غريب . . . فلما جاء المساء ، استوقفتها عند العتبة ، وجرى بيننا هذا الحديث :

— قولى يا بنتى الجميلة ما كنت تصنعين
اليوم على السطح ؟

— ذهبت انظر من اين تهب الريح ؟
— ولماذا ؟

<http://www.library4arab.com/vb> لان الريح تأتي بالسعادة

— وهل كانت اغنيتك تستدعى السعادة ؟

— السعادة تأتيك حيث تغنى .

— واذا اتتك اغنية بالشقاوة ؟

— الشقاوة تنقض السعادة . وبين الخير

والشر خطوة .

— من علمك هذه الاغنية ؟

— ما علمنيها احد . ما يخطر ببالي ،

اغنيه ، يسمعه من يجب ان يسمعه ، ومن

لا يجب ان يسمعه لا يفهمه .

— وما اسمك ايتها المغنية الجميلة ؟

— سل عن اسمى من سماني .

— ومن ذا الذى سماك ؟

— كيف تريد ان اعرف ذلك ؟

— ايتها الماكرة الصغيرة ! لا بأس . . . اننى

عرفت عنك بعض الامور (لم يتغير وجهها ،

ولم تمطّ شفيتها ، كاني اقصد بكلامى غيرها) .
اعرف انك ذهبت فى الليلة البارحة الى الشاطئ .
ثم اصطنعت كل ما استطيع من جدّ ،
وقصصت عليها ما رأيت بالامس كاملا . كنت
اضل الهاء استفطرت ابدا لقد انجزت

تضحك مقهقهة .

— رأيت كثيرا ، ولكنك عرفت قليلا . . .
وما عرفته ، فاحتفظ به لنفسك .

— واذا قصصت على القائد كل شىء ؟
كنت قد اصطنعت هيئة جادة بل قاسية .
فهربت فجأة وهى تغنى ، كما يهرب العصفور
من دغل حين يجفل . لقد جاءت كلمتى
الاخيرة فى غير محلها . ولم يدر بخلدى ما
عسى ان يكون لها من عواقب ، وساندم عليها
فى القريب .

هبط الليل . فامرت صاحى القوزاقى ان
يسخن غلايتى كما كان يفعل فى المعسكر ،
واشعلت الشمعة ، وجلست قريبا من المنضدة
ادخن غليونى . كنت افرغ من احتساء القدح
الثانى من الشاى حين سمعت فجأة صرير

الباب ، وسمعت ورائي حفيف ثوب ، ووقع
اقدام خفيفة . فارتعشت والتفت ، فاذا هي
حوريتي ! جلست امامي في رفق ، دون ان
تقول كلمة واحدة . ورفعت عينها ، فرأيت
نظراتها لا ادري لماذا — تفيض عاطفة
ورقة ، وذكرتي بوحدة من تلك النظرات التي
سبق ان عبثت بحياتي في كثير من الاستبداد
والطغيان . لاح لي انها تنتظر ان اسألها ، ولكنني
صمت وقد تملكني اضطراب لا سبيل الي
وصفه . كان وجهها قد اكتسى شحوبا يضرب
الي الزرقة ، ويفضح ما بنفسها من قلق واضطراب .
وكانت يدها تطوف على المنضدة بلا هدف ،
ولاحظت انها ترتعش ارتعاشا خفيفا . . . وكان
صدرها يعلو من حين الى حين ثم يتجمد كأنها
كانت تحبس نفسها . وضقت ذرعا بهذه المهزلة
في آخر الامر ، واوشكت ان اقطع جبل
الصمت بطريقة لا تخلو من غلظة ، اي بان
اقدم لها قدحا من الشاي ، فاذا هي تنهض
فجأة ، فتطبع على شفتيّ قبلة رطبة محرقة ،
فزاغ بصرى ، ودار رأسى ، وعانقتها عناقا قويا ،

عناق فتى موله . ولكنها انسلت من بين يدي
كالافعى ، وهمست فى اذنى تقول : «متى
نام جميع الناس فى هذا المساء ، تعال الى
شاطئ البحر» . ثم خرجت مسرعة كالسهم ،

<http://www.library4arab.com/vb>

فقلبت الزلافة والشحمة الى كانت على الارض
صاح صاحى القوزاقى الذى كان قد استقر
على فراشه وامل ان يستدفئ مما بقى من الشاى :
— ان بها جنا !

عندئذ فقط ، ثبت الى نفسى .
وبعد ساعتين على وجه التقريب ، حين
صمت كل شىء فى المرفأ ، ايقظت القوزاقى
وقلت له :

— متى سمعت طلقة مسدس ، فاسرع الى
الشاطئ . — فجحظت عيناه ، وقال لى دون
وعى :

— نعم يا صاحب المعالى .
ووضعت المسدس فى حزامى ، وخرجت .
كانت تنتظرنى على حافة المنحدر ، وكانت ثيابها
اخف من خفيفة . وكان شال صغير يلف جسمها
اللدن .

قالت وهي تمسك بيدي :

— اتبعنى .

واخذنا نهبط . ما زلت اتساءل الى الآن

كيف صنعت يومئذ حتى لم تُدقّ عنقى . فلما

<http://www.library4arab.com/vb> وصلت الى تحت ، التجهيزنا مبنا ، سائرين فى

الممر الذى تبعت فيه الاعمى الليلة البارحة .

ما كان القمر قد طلع بعد ، وليس فى قبة

السماء الزرقاء القاتمة الا نجمتان صغيرتان تتلألآن

كأنهما مناران يهريان سراة الليل . وكانت الامواج

ثقيلة تتعاقب بحركة رتيبة ، ولا تكاد تقوى على

رفع القارب المنعزل الذى شد الى الشاطئ .

قالت :

— لنصعد الى القارب .

فترددت قليلا ، لاننى لا احب التزهات

العاطفية فى الماء كثيرا ، ولكن اوان التراجع كان

قد فات ، فلقد وثبت الى القارب ، ففعلت

مثلها ، ولم اشعر الا ونحن فى عرض البحر ،

قبل ان ادرك ماذا يجرى . قلت لها غاضبا :

— ما معنى هذا ؟

فاجابت ، وهي تجلسنى وتطوقنى بذراعيها :

— معناه اننى احبك . . .

وجعلت خدها على خدى ، فاحسست بزفرتها
الحارة تلمح وجهى . وفجأة ، سمعت شيئاً
يسقط فى الماء . فمددت يدى الى حزامى فلم
أجد شيئاً . المسدسى ! آ . . . لقد راودتنى
شبهة رهيبة ، فصعد الدم الى رأسى والتفت
فرايت اننا بعدنا عن الشاطئ مسافة خمسين
ساجين * على وجه التقريب ، وانا لا اعرف
السباحة ! فاردت ان ادفعها عنى ، ولكنها
تشبثت بثيابى كالهرة ، ثم اوشكت فجأة
ان تلقى بى الى الماء بدفعة قوية . وترنح القارب .
ولكننى صمدت . وكان بيننا عندئذ صراع مستميت .
لقد ضاعف الغضب قواى ، ولكننى سرعان ما
لاحظت اننى دون خصمى خفة ، فقبضت على
يديها الصغيرتين وضغطتهما ضغطاً شديداً ، وانا
اقول لها :

— ماذا تريدين ؟

فقضقت اصابعها ، ولكنها لم تصرخ .
ان طبيعة الافعى فيها ، تتحمل وتتجلد . قالت :

* ساجين — وحدة لقياس الطول تساوى ٢,١٣ متر .

— لقد رأيت ، وستشى بنا !
واستطاعت بجهد كبير ان تقلبني على حافة
القارب ، فاصبح نصف جسمي ونصف جسمها
يتدليان خارج القارب ، واصبح شعرها يلامس
صفحة الماء . فاشرفنا على الهلاك . فاستندت
بركبتى الى قاع القارب ، وامسكت غدירתها باحدى
يديّ ، وامسكت خناقها باليد الاخرى ، فتركت
ثيابي ، فالقيتها الى البحر بمثل لمح البصر .
كان الظلام مخيما ، ورأيت رأسها بين الزبد
مرتين ، ثم لم ار شيئا . . .
ووجدت في قاع القارب نصف مجذاف قديم ،
فاستطعت بجهود طويلة ان اصل اخيرا الى الشاطئ .
وفيما كنت اسير الى الضفة لاعدود الى منزلي
حانت مني التفاتة الى الجهة التي جاء اليها
الاعمى امس ينتظر بخار الليل . وكان القمر قد
بدأ يزحف في السماء ، فترأى لي شبح ابيض
يجلس الى الشاطئ ، فاقتربت بخطى مختلصة
يدفعني حب الاطلاع ، وانبطحت على العشب ،
عند ذروة المنحدر ، فكنت اذا مددت رأسي
استطيع ان ارى كل ما يجري تحت . ورأيت

حوريتى . . . لم يدهشنى ذلك كثيرا بل اسعدنى
تقريبا . كانت تعقف شعرها الطويل الذى يتقاطر
منه الزبد . وكان قميصها المبلل يرسم جسمها
اللدن ، وصدرها الناهد . وما هى الا لحظة حتى
ظهر فى الافق البعيد زورق يقترب من الشاطئ
سريعا . فلما وصل خرج منه ، كالامس ، رجل
يضع على رأسه قلبا تتريا ، ولكن شعره قد
قصّ على طريقة القوزاق ، وفى حزامه سكين
كبيرة . قالت له :

— يانكو ، لقد ضاع كل شىء .
واستمر الحديث بينهما طويلا ، ولكن صوتهما
كان خافتا جدا ، فلم استطع ان اسمع منه
شيئا .

وقال يانكو اخيرا بصوت مرتفع :

— والاعمى اين هو ؟

قالت :

— لقد ارسلته . . .

وبعد بضع دقائق ظهر الاعمى يحمل على
ظهره كيسا وضعوه فى الزورق . قال يانكو :
— والآن ايها الاعمى ، اسمع جيدا ما

اقوله لك . ستحرس المكان . . . هل تفهم ماذا
اعنى ؟ . . ان هناك بضائع ثمينة . . . قل ل . . .
(لم اسمع الاسم) ان لا يعتمد علىّ بعد الآن ،
فالحالة هنا سيئة . لن يرانى ابدا . اصبح الامر
خطا . سأمضى ابحث عن عمل نى غير هذا
المكان . ولن يسهل عليه ان يجد رفيقا جسورا
مثلى . قل له لو دفع مبلغا اكبر ، لما تركه
يانكو . لن اعدم ان اجد عملا ، حيثما
هبّت ريح ، وهدر بحر .

ثم اردف يقول بعد لحظة صمت :
— انها لا تستطيع ان تبقى هنا ، فسوف
آخذها معى . قل للعجوز انه آن لها ان تموت . . .
ان تذهب الى جهنم ! وهى لن ترانا على كل
حال .

قال الاعمى بصوت متوسل :

— وانا ؟

فكان جواب يانكو :

— وماذا تريد ان اصنع بك ؟

وفى اثناء ذلك كانت حوريتى قد وثبت الى

الزورق واخذت تومئ لرفيقها ان يأتى ؛ فوضع

يانكو شيئاً في يد الاعمى ، وهو يقول :

— اليك ما تشتري به حلوى .

— هذا كل شيء ؟

— خذ ايضاً .

<http://www.Library4arab.com/vb>

سقطت قطعة من النقد على الصخرة تذبذب .
فلم يتناولها الاعمى . ووثب يانكو الى الزورق .
كانت الريح تهب من الشاطئ فنشرا شراباً صغيراً ،
ورأيتهما يتعدان بسرعة . وفي ضوء القمر رقص
شرابهما الابيض مدة طويلة بين الامواج المظلمة .
كان الاعمى لا يزال جالساً على الشاطئ ، وفجأة
سمعتة يجهش منتحباً ، وظل يبكي طويلاً
طويلاً . . . احزننى ذلك . لماذا رمانى القدر
فى هذه البيئة الهادئة ، بيئة هؤلاء المهرين
الشرفاء ؟ لقد كنت كالحصاة سقطت فى نبع
صاف فعكرته ، لقد عكرت عليهم هدوءهم ،
وكدت اهوى الى القاع ايضاً كالحصاة !
عدت الى مسكنى . فرأيت الشمعة تذوب
عند المدخل ، فى طاس من الخشب ، ورأيت
القوزاقى يغط رغم اوامرى فى نوم عميق قابضاً
على بندقيته بكلتا يديه . فتركته ينام ، وحملت

الشمعة ودخلت الى الغرفة . واحسرتاه ! ان
صندوقى الصغير ، وسيفى ذا الغمد الفضى ،
وخنجرى الداغستانى الذى اهداه الىّ احد الاصدقاء ،
كل ذلك قد اختفى . عندئذ فقط عرفت ماذا
كان يحمل ذلك الاعمى اللعين على ظهره .
فايقظت صاحى القوزاقى بضربة خشنة ، وغضبت
وزمجرت ، ولكن ما عساي اصنع ؟ ألا يكون
من المضحك ان اشكو الى السلطات صبيا اعمى
سرقنى ، وفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها كادت
تغرقنى ؟ من حسن حظى اننى اتيتحت لى فى
الغد فرصة السفر فتركت تامان . اما ماذا صار
اليه الاعمى البائس والعجوز ، فلا ادرى . ثم
وفيم تعينى افراح الناس وآلامهم ، انا الضابط
المترحل ، المكلف فوق ذلك بمهمة ! . . .

نهاية القسم الاول

الأميرة ماري

وصلت امس الى بياتيجورسك ، واستأجرت بيتا يقع عند طرف المدينة ، على اعلى مكان ، بسفح جبل ماشوك ، حتى ان السحب تصل الى سقفي ايام العواصف . وحين فتحت نافذتي في الساعة الخامسة من هذا الصباح امتلأت غرفتي برائحة الازهار النابتة في الحديقة الصغيرة ، وكانت اغصان الشجر المزهرة تطل على من النافذة ، وتشر الريح على مكثي في بعض الاحيان شيئا من اوراق زهرها الابيض . اني لأرى من الجهات الثلاث منظرا رائعا . من الغرب ارى جبل بشتو ، برؤوسه الخمسة الضاربة الى الزرقة ، كأنه «آخر سحابة من سحب العاصفة المتبددة» . وفي الشمال ينتصب جبل ماشوك ، كأنه قبعة الفرو

« بيت من قصيدة بوشكين «السحابة» .

على رأس رجل من بلاد فارس ، ويحجب عنى
كل ذلك الجزء من الافق . اما فى الشرق
فالمنظر ابهى وادنى الى القرع : فى الأسفل
تمتد امامى زركشة المدينة الصغيرة ، الجميلة
النظيفة ، واسمع خرير ينابيع ، ينابيع الاستشفاء ،
واصوات الناس تكلم لغات شتى . وراءها
الجبال تتدرج صاعدة ، وتزداد زرقة وابخرة كلما
امعت فى الصعود . وفى آخر الافق تمتد
سلسلة الذرى الفضية يغطيها الثلج ، تبدأ بجبل
كازيك وتنتهى بجبل الالبروز ذى القمتين . . .
يا لها من فرحة ان يعيش الانسان فى بلد كهذا
البلد ! ان نشوة مرحة لتسرى فى عروقى كلها ،
الهواء نقى غرض كقبلة طفل ، والشمس دافئة ،
والسماة زرقاء — ماذا اريد على هذا من مزيد ؟
لا مكان للاهواء والرغبات والحسرات هنا . . .
ولكن ها قد حانت الساعة ، يجب ان امضى
الى نبع اليزابت : فقد قيل لى ان صفوة الناس
التي جاءت للاستشفاء بالماء تلتقى هناك .

سرت ، وانا اهبط الى مركز المدينة ، فى
شارع كبير ، فالتقيت بجماعات من الناس عابسة ،
تصعد الجبل فى بطاء . ان معظمها اسر ملاكين
كبار من السهوب ، هذا ما يلاحظه المرء فورا
من اردية الازواج التى رثت واصبحت لا تجارى
الزى الحديث ، وكذلك من افراط نسائهم
وبنائهم فى التزين . لا شك انهم يستطيعون ان
يعدّوا على الاصابع جميع شباب مياه الاستشفاء
لانهم نظروا الى مستطعين فى غير قليل من
اللفظ ، غرتهم تفصيلة ردائي البطرسبرجية ،
ولكنهم ما لبثوا ان اشاحوا بوجوههم فى استياء ،
حين ابصروا على كفتى شارات ضابط من ضباط
القتال .

اما زوجات القائمين على السلطات المحلية ،
وهن اللواتى يكرمن مثنى الضيوف ، فقد كان
استقبالهن الطف واجمل . كن يحملن فى ايديهن
نظارات ذات سواعد ، ولا يلقين كبير بال الى
البدلة العسكرية ، كالاخريات . لقد تعودن ان
يلقين فى القفاس قلوبا حارة تحت الازرار ذات
الارقام ، وعقولا مثقفة تحت القبعات العسكرية

البيضاء * . ان هاته السيدات لطيفات جدا .
وليس للطفهن انقضاء . ان لهن عشاقاً جديداً
كل سنة وربما في هذا سرّ لطفهن الذي لا ينضب
له معين . وبينما كنت اصعد الدرب الضيق

<http://www.library4arab.com/vb/> الى ينبوع الرابطة مرت

المدنيين والعسكريين الذين يشكلون — كما عرفت
فيما بعد — طبقة خاصة بين الذين يأتون الى هنا
ينشدون الاستشفاء بالماء . انهم يشربون ولكنهم
يشربون شيئاً غير الماء وقلما يتنزهون وهم يغازلون
الحسان بشكل عابر . وانهم يقامرون ويشكون من
الضجر الذي يستولى عليهم . انهم متأنقون .
فهم يصطنعون اوضاعا اكاديمية وهم يغطسون
كؤوسهم المغلفة في بئر الماء الكبرى ؛ اما المدنيون
فهم يضعون ربطات عنق زرقاء ، والعسكريون
يكشفون عن تخريم قمصانهم بفك ياقة البدلة .

* يشير الكاتب الى الضباط سليلي الطبقة النبيلة ، الذين
جردوا من رتبهم وارسلوا الى القفقاس منفيين لانهم شاركوا في
انتفاضة الديسمبريين ١٨٢٥ . كان الجنود الروس يضعون على
رؤوسهم في القفقاس قبعة بيضاء ، وكان يشار الى رقم فوجهم على
ازرار بدلتهم العسكرية .

انهم يتظاهرون باحتقار عميق لمنازل الاقاليم ،
ويتنهدون اسفا على الصالونات الارستقراطية في
العاصمة التي حرموا من استقبالاتها .
ووصلت اخيرا الى البئر . . . ان على مقربة

<http://www.library4arab.com/vb>

فيه الحمامات ، وبعده ممر مسقوف يتنزه فيه
الناس حين تمطر السماء . وهؤلاء ضباط جرحى
جلسوا على مقعد كبير ، وقد شحبت وجوههم
وظهرت عليهم امارات الحزن ، ووضعت عكاكيزهم
الى جانبهم . وهناك سيدات يذهبن ويجيئن في
الساحة الصغيرة بخطى سريعة بانتظار تأثير الماء
فيهن . ان بينهن وجهين جميلين او ثلاثة .
وفي الممرات المزروعة باشجار الكرمة التي تغطي
سفح جبل ماشوك ، كانت تظهر من حين الى
حين قبعات مزركشة هي قبعات النساء اللواتي
يحببن العزلة اثنين اثنين ، لاننى المح
دائما الى جانب هذه القبعات قلنسة عسكرية ،
او قبعة مدورة كرية . اما عشاق المناظر الطبيعية
فقد برزوا على الصخرة التي يقع عليها الجناح
المسمى «معرف ايول» ، وينظرون الى جبل الالبروز

بنظارة مقربة . وكان بينهم مربيان مع تلاميذهما ،
وفدوا الى المياه استشفاء من داء الخنازير .

وكنت الهث من التعب فتوقفت عند حافة
الجبيل ، واستندت الى زاوية بيت صغير ، واخذت
السرير الذى فى هذه الساطر الخلابه ، فاذا

بصوت اعرفه يهتف من ورائى :

— هه ، بتشورين ! أنت هنا منذ زمان ؟

فالتفت ، فاذا هو جروشنييتسكى ، فتعانقنا .

لقد عرفته اثناء احدى الحملات ، وقد اصيب

برصاصة فى ساقه ، ووصل الى المياه قبلى باسبوع .

ان جروشنييتسكى جندى قضى فى الخدمة سنة

واحدة لا اكثر . وهو يصرف غندرته الى ارتداء

معطف جندى مصنوع من جوخ غليظ ويحمل صليب

القديس جرجس ، وهو صليب يعطى للجنود

من غير ذوى الرتب . انه فتى جميل ، ملوح

الجلد ، اسود الشعر ، يحسبه من يراه اول مرة

انه فى الخامسة والعشرين من عمره ، مع انه

ما كاد يبلغ الواحدة والعشرين ؛ فاذا تكلم رمى

رأسه الى الوراء ، وقتل شاربه فى كل لحظة

بيده اليسرى ، لانه يستند فى اليمنى الى عكازه .

انه يتحدث بسرعة وتصنع : وهو من اولئك الناس
الذين يملكون لكل ظرف من ظروف الحياة جملا
متفصحة جاهزة ، ولا يهزم الجمال البسيط ،
ويرفعون لواء المشاعر النادرة ، والاهواء الرفيعة ،
والآلام الفذة ، فدمعته الناس هو الذئيم الكبير ،
والحالمات من بنات الاقاليم يفتن بهم ايما
افتتان ، حتى اذا طعنوا في السن اصبحوا اما
من ملاكى الاراضى الهادئين ، واما من السكيرين ،
وقد يصبح احدهم هذا وذاك فى آن واحد .
وكثيرا ما يتصف هؤلاء الناس بمزايا عالية ،
ولكن لا فى الشعر ابدا . ولقد كان هوى
جروشنيتسكى ان ينشد الشعر ، وكان لا ينضب
معينه متى خرج الحديث عن نطاق الافكار
العادية . ولم استطع يوما ان اناقشه . انه لا
يجيب على اعتراضاتك ، ولا يصغى اليك ،
بل ينتظر ان تتوقف عن الكلام ، حتى يندفع
فى حديث طويل تظن ان له علاقة بما قلت ،
فاذا هو استمرار لخطابه لا اكثر .
وهو انسان هجاء ، وكثيرا ما تكون لذعاته
فكهة ، ولكنها لا تشتمل على حقد ، ولا تصيب

مقتلا ابدا . . . فلن يستطيع ان يقتل احدا بكلمة .
وهو لا يعرف الناس ، لا يعرف اوتارهم الضعيفة ،
لانه طوال حياته لم يهتم الا بنفسه ، وكان غايته
ان يصبح بطل رواية . وقد اراد ان يلقي في
رجح الناس انه لم يضل لهذا العالم ، وانه ميسر
لما لا ادري من آلام خفية — ومن كثرة ما كرر
ذلك على مسامع الناس اصبح يصدقه هو نفسه .
من اجل هذا يرتدى معطفه الخشن ، معطف
الجندي ، في كثير من الاعتزاز والفخر . وقد
ادركت انا هذه الحقيقة ، فهو لذلك لا يحبني ،
رغم ان علاقاتنا هي في الظاهر من اقوى علاقات
الصداقة . وهو يدعى الشجاعة والبسالة ، ولكنني
رأيت اثناء القتال : كان يهز سيفه وهو يصرخ ،
ويهجم مغمضا عينيه . ما هذه هي الشجاعة
الروسية ! . . .

وانا ايضا لا احبه . واشعر اننا سنصطدم
يوما على ممر ضيق ، فتقع الطامة على واحد منا .
واذا وُجد اليوم في القفقاس ، فلا شك ان
ذلك كان نتيجة تعصبه الرومانسي . وانا على يقين
انه في صبيحة اليوم الذي ترك فيه قرية ابيه ،

قال لامرأة ما من الجيران ، وهو متجهم الوجه :
انه لا يسافر للخدمة وكفى ، بل يسافر باحثا
عن الموت ، لان . . . ولا شك انه اضاف يقول
وهو يغطي عينيه بيده : «لا ، لا ، يجب ان
لا تعرفي (او يجب ان لا تعرفي) ! لان نفسك
بريئة نقية ، فقد تهلعين اشد الهلع اذا عرفت !
وفيم اقول لك السبب ؟ من انا بالنسبة لك ؟
هل تستطيعين ان تفهميني ؟ . . » الى آخر ما
هنالك .

ولقد قال لي هو نفسه : ان ما حملة على
الالتحاق بفوج ك . . . سيبقى الى الابد سرا
بينه وبين السماء .

على انه حين يطرح عنه قناعه التبعس . . .
شخص ممتع مسل بعض الشيء . . . ومن الشائق
ان يراه المرء مع النساء ، فلا شك انه عندئذ
ينشر ريشه !

التقينا اذن كما يلتقى صديقان قديمان ،
وسألته عن الحياة في بياتيجورسك ، وعن الاشخاص
الذين يجدر ان يعرفهم المرء ممن يعيشون فيها ،
فقال وهو يتنهد :

— الحق اننا نعيش حياة خالية من الشعر .

فى الصباح نشرب الماء ونكون واهنين كجميع المرضى ، وفى المساء نشرب الخمر ونصبح ثقيلى الظل كسائر الاصحاء . وهناك نساء ، ولكن

<http://www.library4arab.com/vb> يجد فى صحتها كبرى متعة . يعين

الورق ، ولا يجيدن التأنق فى الملابس ، ويتحدثن بلغة فرنسية رديئة . ولم يأت من موسكو هذا العام الا الاميرة ليجوفسكايا وابنتها ، ولكنى لا اعرفهما . ان معطف الجنود الذى ارتديه اشبه بخاتم البؤس ، وما يثيره من اهتمام الناس يثقل على نفسى كالصدقة .

فى تلك اللحظة مرت بنا سيدتان ذاهبتان الى البئر : اولاهما متقدمة فى السن قليلا ، والثانية صبية رشيقة خفيفة . لم استطع ان ارى وجهيهما المختبئين تحت القبعتين ، ولكن ملابسهما تلتزم ادق قواعد الذوق الانيق : فلا شىء زائد عن حدود الاعتدال . كانت الصغرى ترتدى فستانا *gris de perles* * ، ويحيط بعنقها الرشيق منديل خفيف من الحرير . وكان

* اشهب بلون اللؤلؤ .

حذاؤها العالى الاحمر، يشد قدمها الدقيقة الى الكعب
على اجمل صورة ، حتى ان اجهل الناس باسرار
الجمال لا يمكنه متى رآه الا يصيح ، من
الدهشة على اقل تقدير . وكان فى خطواتها
الجميلة على امثالها بالبالية ، شئ من

العدرة والطهارة ، لا يمكن وصفه ، ولكن البصر
يدركه . وحين مرت قربنا فاح منها عبق لا سبيل
الى تفسيره ، عبق كالذى يخرج من رسائل حببية .
قال لى جروشنيتسكى :

— هى الاميرة ليجوفسكايا ، وابنتها مارى ،
كما تناديهما على الطريقة الانجليزية . هما هنا
منذ ثلاثة ايام فقط .

— ها ، وعرفت اسمها ؟

قال وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل :
— سمعته مصادفة . اعترف لك باننى لا

احرص على ان اتعرف اليهما . فالذى يخدم فى
الجيش يكاد يكون فى نظر هؤلاء الارستقراطيين
المتعجرفين انسانا متوحشا ، لا يعينهم كثيرا ان
يكون هنالك عقل يفكر تحت القبعة المرقمة ،
او قلب يخفق تحت معطف الجوخ الغليظ .

قلت مبتسما :

— مسكين هذا المعطف ! ولكن قل لي ،
من هو هذا السيد الذي يتقدم نحوهما ويمد
اليهما قدحا ، في كثير من اللطف ؟

— هو رايفتش ، رجل مفرط الاناقة من
موسكو ؛ مقامر ، يُعرف ذلك فورا من السلسلة
الذهبية الكبيرة المعلقة بصدّارته الزرقاء . وانظر
الى هذه العصا الكبيرة ! لكأنها عصا روبنسون
كروزيه ! ثم انظر الى لحيته ، والى شعره
* à la moujik

— انت تحقد اذن على النوع البشرى كله .
— هناك ما يدعو الى ذلك . . .
— صحيح ؟

وفي اثناء ذلك كانت السيدتان قد غادرتا
البئر ، فلما مرتا بالقرب منا رفع جروشنييتسكى
صوته قائلا بالفرنسية ، وهو يصطنع مع عكازه
وضعا دراميا :

— Mon cher, je haïs les hommes pour ne

* تسريحة على طريقة الفلاح الروسى .

pas les mépriser, car autrement la vie se-
rait une farce trop dégoûtante.*

فالتفت الاميرة الصبية الجميلة ، وكافأت
الخطيب بنظرة مستطلعة طويلة لا يمكن تعريف
معناها ، ولكنها لم تكن نظرة ساخرة على كل
حال . ولا اکتکم اننى فى اعماق نفسى
هنأته من صميم فؤادى .
قلت له :

— ان الاميرة مارى فاتنة . ان لها عينين
مخمليتين ، نعم مخمليتين ، وانصحك بانتحان
هذا التعبير لنفسك اذا تكلمت عن عينيها .
بعد . وان اهدابها تبلغ من الطول ان اشعة
الشمس لا تنعكس فى البؤبؤ . احب هذه الاعين
التي ليس لها بريق . انها عذبة جدا . يحس
المرء انها تلاطفه . . . على اننى اعتقد ان ليس
فى وجهها من جمال غير هذا . ولكن هل
اسنانها بيضاء ؟ هذا امر اساسى ! يؤسفنى ان
عبارتك المتنفخة لم تحملها على الابتسام .

* يا عزيزى ، انا اكره الناس كى لا احتقرهم ، ولا
اصبحت الحياة مسخرة تدفع الى كثير من الاشمئزاز .

فقال جروشنيتسكى مستاء :
— انك تتحدث عن امرأة جميلة حديثك
عن حصان انجلىزى .
فقلت محاولا ان اصطنع لهجته :

Mon cher, je méprise les femmes pour
<http://www.library4arab.com/vb>
ne pas les aimer, car autrement la vie se-
rait un mélodrame trop ridicule.*

وهنا ادرت له ظهري وابتعدت ، وقضيت
نحو من نصف ساعة اتزه فى شعاب الكروم
بين صخور الكلس والجدوع . واشتدت الحرارة ،
فاردت ان اعود الى بيتى ، فلما مررت بالقرب
من النبع ، وقفت تحت السقيفة اتنفس فى
ظلها ، فاتيح لى ان ارى مشهدا شائقا :
الاشخاص قد توزعوا هكذا : الاميرة الام والمتظرف
الموسكوى جالسان على مقعد ، وقد استغرقا فى
حديث يلوح خطيرا ؛ والفتاة التى لعلها فرغت
منذ لحظة من شرب كأسها الاخيرة ، تسير حالمة
بالقرب من البئر حيث يقف جروشنيتسكى . ولم

* يا عزيزى ، انا احتقر النساء كى لا احبهن ، والا غدت
الحياة ميلودراما تدفع الى كثير من الضحك (بالفرنسية فى الاصل) .

يكن في الساحة الصغيرة احد غير هؤلاء .
فاقتربت ، واختبأت وراء زاوية من السقيفة .
وفي هذه اللحظة سقط كأس جروشنييتسكى
على الرمل ، فانحنى يحاول التقاطه ، ولكنه
لم يستطع ذلك بسبب ساقه المريضة . مسكين !
ما اكثر ما بذل من جهود وهو يستند الى عكازه ،
دون ان يظفر بالكأس ! في هذه اللحظة كان
وجهه المعبر ينم حقا عن الالم .
كانت الاميرة مارى قد رأت هذا كله خيرا

منى .
فاندفعت نحو جروشنييتسكى خفيفة كعصفور ،
وانحنت على الارض ، فتناولت الكأس ، ومدتها
اليه بحركة لا نهاية لسحرها ، واصطبغ وجهها
بحمرة شديدة ؛ ثم التفت بسرعة الى جهة
السقيفة ، فلما تأكدت من ان امها لم تر شيئا ،
ارتد اليها هدوؤها فورا . وحين فتح جروشنييتسكى
فمه ليشكر لها جميلها ، كانت قد ابتعدت .
وبعد دقيقة خرجت من الرواق مع امها وراييفتش ،
ومرت بالقرب من جروشنييتسكى ، وهى تتخذ
هيئة الجد والوقار ، حتى انها لم تلتفت الى

وراء ، ولا لاحظت تلك النظرة الموهبة التي
تابعها بها وهي تهبط الجبل الى ان غابت وراء
زيرفونات الشارع . . . ثم لمحت قبعتها فجأة
في الشارع ، ورأيتها تدخل باب بيت من اجمل
بيوت بياتيجورسك ، وكانت الاميرة تتبعها ،
فلما وصلت الى الباب ، استأذنت رايفتش .
عندئذ لاحظ الجندي المسكين وجودى .
قال وهو يضربني بيده ضربة قوية :

— هل رأيت ؟ انها لملك ! . . .

قلت له اتكلف السذاجة :

— لماذا ؟

— انت اذن ما رأيت ؟

— بل رأيتها تناولك كأسك . ولو كان الحارس

هناك افعل ما فعلت ، ولاسرع الى ذلك اكثر
منها ، لانه قد يأمل في عطاء . ثم انها قد

اشفقت عليك : كان وجهك يتجدد تجعدا

رهيبا وانت تستند الى ساقك الجريحة . . .

— ألم يهزك ، فى تلك اللحظة ، ان

ترى روحها تشع فى وجهها ؟

— لا .

لقد كذبت ، ولكنني كنت اريد ان احنقه .
اني لاهوى المعاكسة بفطرتي ، وحياتي كلها
لم تكن الا نسيجا من المتناقضات الحزينة الشقية
بين عقلي وقلبي . يكفي ان ارى شخصا متحمسا
حتى اصبح باردا كالثلج ، واعتقد انني اذا
عاشت شخصا بارد العاطفة رخوا اصبحت من
اشد الجالمين جموح هوى . ويجب ان اعترف
ان شعورا مؤلما اعرفه من قبل قد حز في قلبي
قليلا في هذه اللحظة . انه الغيرة . اقول ذلك
بلا لف ولا دوران ، لانني تعودت ان اعترف
بكل شيء صراحة . ثم انه ليندر ان نجد شابا
(اقصد شابا من الطبقة الراقية تعود على ان يتملق
الناس غروره) يلتقى بامرأة جميلة ، وينتبه اليها
خلسة ، ثم لا يؤذيه ان يراها ، على حين
فجأة ، تؤثر عليه ، ايثارا واضحا ، شخصا
آخر لا تعرفه اكثر مما تعرفه هو .

وهبطنا الجبل صامتين ، ومررنا في الشارع
امام البيت الذي غابت فيه الحساء . لقد كانت
جالسة الى النافذة . فشدني جروشنيتسكى
من كمي ، وارسل اليها نظرة من تلك النظرات ،

العاطفية المضطربة في آن واحد ، التي ليس لها
في النساء كبير تأثير . اما انا فصويت اليها نظارتي .
فرايت ان نظرة جروشنيتسكى تجعلها تبسم ،
وان نظارتي الوقحة تغضبها كثيرا : كيف يجرؤ
ضابط بخدم القفتماس ان يمداد نظارته الى
اميرة من موسكو ؟ . .

١٣ ايار .

في هذا الصباح اتى الى الطبيب . ان اسمه
فرنر ، ولكنه روسى . وهل في هذا عجب ؟
لقد عرفت المانيا كان يدعى ايفانوف .
ان فرنر شخص فذ في اكثر من ناحية .
انه ريبى مادي ، كسائر الاطباء على وجه التقريب .
وهو الى ذلك شاعر — اقول هذا جادا لا هازلا :
هو شاعر دائما في اعماله ، وحيانا في اقواله ،
وان لم ينظم في حياته بيتين من الشعر . لقد
درس جميع اوتار القلب الانساني ، كما تدرس
الاعصاب في جثة تشرح ، ولكنه لم يجن من
معرفة اي فائدة يوما ، كما يتفق لعالم كبير

في التشريح ان لا يشفى من حمى ! وكان
من عادة فرنر ان يسخر من مرضاه خفية ، ولكنني
رأيتة يبكي وهو ينحنى على جندي يحتضر . . .
كان فقيرا ويحلم بالملايين ، ولكنه ما كان
ليفعل « الامر » طمعا في مال . قال لي يوما
انه يؤثر ان يخدم عدوا على ان يخدم صديقا ،
لان في خدمة الصديق شيئا من بيع الاحسان ،
في حين ان الكره يزداد على قدر نبل الخصم .
وكان سليط اللسان في اغتياب الناس : اكثر
من رجل طيب احاله هجاؤه في اعين الناس
غرا احمق . وقد اشاع عنه اطباء المياه ،
خصومه الحاسدون ، انه يصور مرضاه تصويرا
كاريكاتوريا ، فاستاء المرضى منه ، وكادوا
ينقطعون جميعا عن استشارته . وحاول اصدقاءه ،
اعني جميع الممتازين ممن يخدمون في القفقاس ،
ان يردوا الى الناس ثقتهم به ، بعد ان تزعزعت ،
ولكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا .
كان من اولئك الناس الذين يزعجك
منظرهم اول مرة ، ولكنه يعجبك بعد ذلك ،
متى عرفت عينك ان تكتشف في ملامحه

المتنافرة روحا مجربة نبيلة رفيعة . لقد رأينا نساء
يحببن رجالا مثله حبا مجنونا ، ولا يبادلن دما ماتهم
بجمال انصر الشباب عودا وازهاهم وردا ،
كأنديميون * . يجب ان نعرف للنساء بهذه

<http://www.library4arab.com/vb/> وهي اليمن يمكن - مال النفس بالفريرة ،

ولعل هذا هو السبب في ان رجلا مثل فرنر
يحبهن ايضا اعنف الحب .
كان فرنر قصير القامة ، نحिला ، رهيفا ،
كطفل . وكانت احدى ساقيه اقصر من الاخرى ،
كبايرون . وكان رأسه يبدو كبيرا بالقياس الى جسمه .
وكان شعر رأسه قصيرا فلو رأى عالم من علماء
الجمجمة ما يظهر في جمجمته العارية من
نقوشات ، لادهشه هذا التزاوج العجيب بين ميول
متعارضة اشد التعارض . وان عينيه الصغيرتين
السوداوين اللتين لا تستقران على حال من القلق ،
تحاولان ان تسبرا اغوار فكره . وترى من ملبسه
انه ذو ذوق ، وانه يعتنى بهندامه ، قفازه
الضارب الى الصفرة يغطي يديه الصغيرتين العصبيتين ،

* انديميون — هو شاب في القصة اليونانية القديمة يرمز
الى الشباب والجمال الخالدين .

وردائه وربطة عنقه وصدارته سوداء اللون دائما .
ولقد لقبه الشباب باسم مفستوفيليس * . فكان
يتظاهر بالاستياء من ذلك ، ولكن هذا اللقب
كان يتملق غروره في اعماق نفسه . لقد تفاهمنا

<http://www.library4arab.com/vb> www.library4arab.com/vb www.library4arab.com/vb

التعارف ولا اقول الصداقة ، لاننى فى حقيقة
الامر عاجز عن الصداقة ، ذلك لان احد
الصديقين لا بد ان يكون عبدا للآخر ، ولو
ان احدا منهما لا يريد ان يعترف بذلك لنفسه
فى كثير من الاحيان . وانا امرؤ لا يمكن ان اكون
عبدا ، كما ان القيادة متعبة فى هذه الحال ، اذ لا
بد لمن يقود من ان يجيد الخداع . ثم اننى
املك خدما ومالا ، فما لى ولهذا كله . . .

واليكم كيف تعارفنا : لقد لقيت فرنر فى
س . . . ، فى حلقة من الشباب غفيرة صاحبة ؛
ودار الحديث فى آخر السهرة فلسفةً وميتافيزيقا .
كنا نتحدث عن العقائد ، وكان لكل منا عقائده
التي تختلف عن عقائد الآخرين .

* هو اسم الروح الشريرة فى الحكايات الالمانية القديمة ،
وربما يقصد ليرمونتوف هنا شخصا من مسرحية غوته «فاوست» .

قال الدكتور :

— اما انا فلا اعتقد الا بشيء واحد . . .

ظلت تدفعنى الرغبة فى معرفة رأى هذا

الشخص الذى ظل الى ذلك الحين صامتا :

<http://www.library4arab.com/vb> ما هو هذا الشيء ؟

قال :

— اننى سأموت فى ذات صباح ، قريب

او بعيد .

قلت :

— انا اغنى منك . . . لاننى اعتقد بشيء

آخر ايضا : هو اننى فى ذات مساء مشغوم

ولدت .

ووجد جميع الناس ان ما نقوله سخف .

ومع ذلك لم يقل احد منهم كلاما اقرب منه

الى العقل . ومنذ ذلك الحين تميزنا كلانا عن

العامة . وكنا نلتقى كثيرا ، فتجاذب اطراف

الحديث فى شؤون مجردة جادين ، الى ان

لمحنا فى ذات لحظة ان كلا منا يتلاعب

بالآخر ، فنظر كل منا الى صاحبه نظرة صارمة ،

كما كان يفعل العرافون الرومانيون ، على ما

يزعم شيشرون ، ثم انفجرنا ضاحكين . . . وظللنا
نضحك مدة طويلة ، ثم افترقنا ، وقد سرّ
كل منا بهذه السهرة .

كنت مستلقيا على اريكة ، انظر الى السقف

وقاد رضى عنى يدي تحت عنتى حين دخل فرزير
<http://www.Library4arab.com/vb>

الى غرفتى . فجلس على احد المقاعد ، بعد
ان وضع عصاه فى ركن من اركان الغرفة ، وابلغنى
وهو يتشاءب ان الجو حار فى الخارج ، فاجبته
بان الذباب يزعجنى ؛ ثم صمتنا .
قلت له بعد لحظة :

— لاحظ يا عزيزى الدكتور ان الدنيا تصبح

مملة اذا خلت من الحمقى . انظر : نحن هنا
رجلان ذكيان ، نعلم مقدما اننا نستطيع ان
نتناقش فى كل امر الى غير نهاية . . . ونحن لذلك
لا نتناقش فى اى امر . ان كلا منا يعرف
تقريبا جميع ما يدور فى رأس الآخر من افكار
خفية . ورب كلمة واحدة هى عندنا قصة برمتها .
انا نرى بذرة كل عاطفة من عواطفنا من خلال
جميع الحجب . وما هو محزن يتراءى لنا
مضحكا ، وما هو مضحك يبدو لنا محزنا ،

ويمكن القول على وجه العموم اننا لا نحفل بشيء ،
غير انفسنا . لذلك لا يمكن ان يقوم بيننا
تبادل في العواطف والافكار . نحن نعرف الواحد
عن الآخر كل ما نريد ان نعرفه ولا نريد ان
نعرف اكثر من ذلك . وليس انا اذن الا مخرج
واحد : هو ان نتبادل قصص الحكايات . فهات
قصص على حكاية من الحكايات .

وتعبت من هذا الخطاب الطويل ، فاغمضت
عيني ، واخذت اثئاب ، فقال لى الدكتور
بعد لحظة من تفكير :

— فى كلامك الملتبس ، مع ذلك ، فكرة !

— بل فكرتان !

— قل لى الاولى اقول لك الثانية .

— ابدأ .

قلت ذلك وانا انظر الى السقف وابتسم بينى

وبين نفسى .

قال :

— انت ترغب فى مزيد من المعلومات عن

شخص وافد الى المياه ؛ وانا اعرف من هو ذلك

الشخص ، لانهم طلبوا معلومات عنك هناك .

— دكتور ، يستحيل علينا حتما ان نتحدث :
ان كلا منا يقرأ ما بنفس الآخر .
— الى الآن بالفكرة الثانية .

— الفكرة الثانية هي هذه : كنت اريد

ان تقص أنت شيئا عليّ ، اولا لان الاستماع
لا يتعب كما يتعب الكلام ؛ ثانيا لان ذلك لا
يورطنى فى ان اقول اكثر مما يجب ان اقول ؛
ثالثا لان المرء يستطيع بالاستماع ان يلم باسرار
غيره ؛ رابعا ، لان الاذكياء من امثالك يؤثرون
ان يكون امامهم مستمعون لا محدثون . ولننتقل ،
بعد ذلك ، الى الموضوع . ما الذى قالته لك الاميرة
الام عنى ؟

— أنت واثق انها الام . . . لا البنت ؟

— واثق .

— لماذا ؟

— لان البنت سألت عن جروشنييتسكى .

— انت فى النفاذ الى الامور صاحب موهبة

عظيمة . لقد قالت الفتاة انها متأكدة من

ان هذا الشاب الذى يرتدى معطف ضابط حُرْم

من رتبته على اثر مبارزة . . .

— ارجو ان تكون قد تركت لها هذا الوهم

الممتع !

— طبعا .

فهتفت فرحا :

— اقول وجداننا المقيدة وسنعنى بعد الآن

بالحل الذى ستنتهى اليه المهزلة . يابى القدر
ان يتركنى الضجر ، هذا واضح .

قال الدكتور :

— احس سلفاً أن جروشنيتسكى المسكين

هذا سيكون ضحيتك . . .

— تابع كلامك يا دكتور .

— قالت الام ان وجهك ليس غريبا عليها . . .

فقلت لها لعلك رأيتہ يا سيدتى بيطرسبرج ، فى
المجتمع . . . وذكرت لها اسمك . . . كانت تعرف
اسمك . يظهر ان قصتك اثارت هناك كثيرا
من الجلبة . واخذت الاميرة تقص على مغامراتك ،
ولا شك انها اضافت الى اقوال الناس تعليقات
من عندها . . . وكانت ابتها تصغى اليها فى كثير
من الاستطلاع ؛ حتى اصبحت فى خيالها بطلا
من ابطال الروايات . . . ولم اكذب شيئا مما

قالت الاميرة ، رغم علمى بان ما تقوله هراء
سخيف .

فهمت وانا امد يدي ليصافحها :
— انت صديقى !

<http://www.LibraryArab.com/vb>

التأثر ، وقال :

— اذا شئت قدمتك اليها . . .

فقلت وانا اضرب كفا بكف :

— عفوك . . . هل يقدم الابطال ؟ انهم

يُعرفون حين ينقذون حبيبتهم من موت محقق . . .

— هل تنوى حقا مغازلة الاميرة الصغيرة ؟

— ابدأ ، ابدأ . ها أنا اظفر اخيرا يا

دكتور : انك لا تفهمنى .

وقلت بعد لحظة من صمت :

— ويؤسفنى ذلك . . . اننى لا ابوح ابدأ

باسرارى ، بل احب كثيرا ان تحزر حزا ، حتى

استطيع ان انفيها متى اردت . ولكن يجب ان

تصف لى الام وابنتها ، وان تقول لى من هما .

— اولا ، الام ، هى امرأة فى الخامسة

والاربعين من عمرها ، جيدة المعدة ، ولكنها

فاسدة الدم ، على خديها بقع حمراء . قضت
فى موسكو النصف الثانى من عمرها ، فسمت
هناك من قلة العمل وترهلت . وهى تحب الحكايات
البديئة ، وقد تقول هى نفسها اشياء جريئة ،
حين لا تكون ابنتها هناك . لقد قالت لى ان
ابنتها عذراء كحمامة . وما شأنى انا فى هذا ؟
وددت لو اجيبها : «اطمئنى بالا ، فلن اقول
هذا لاحد» . الام تستشفى من الروماتزم ، والبنت
الله اعلم بما تستشفى منه ! ولقد نصحت لهما
بان تشرب كل منهما كأسين من الماء الكبريتى
فى اليوم ، وان تستحما بالماء المعدنى مرتين
فى الاسبوع . ويظهر ان الام لم تتعود الامر
والنهى ؛ وهى تفيض احتراما لذكاء ابنتها ،
ولثقافة ابنتها ، التى قرأت بايرون بالانجليزية
كما انها تعرف الجبر . يظهر ان الفتيات بموسكو
اندفعن فى ميدان العلوم ؛ يمينا انهن ليحسن
صنعا ! فالرجال ، هنا ، على وجه العموم ،
ليسوا على حظ وافر من الظرف ، ولا شك ان
المرأة الذكية لا تطيق ان تلهو معهم . والام
تحب الشباب كثيرا ، اما ابنتها فتنظر اليهم فى

شيء من الاحتقار : تلك عادة من موسكو !
هناك لا يستملحن الا العقول الذكية ذات الاربعين
عاما .

— هل كنت بموسكو يا دكتور ؟

— نعم ، كان لي فيها زبائن .
<http://www.library4arab.com/vb>
— كمل .

— اعتقد اننى قلت كل شيء . . . ها !

نسيت : يبدو ان الصبية تحب حديث العاطفة
والهوى وما الى ذلك . ولقد قضت شتاء بيطرسبرج ،
فلم تسرّ فيها ولا سيما فى مجتمع الاكابر :
يظهر ان الناس استقبلوها هناك استقبالا باردا .

— ألم تر عندهما اليوم احدا ؟

— بلى . كان عندهما شخص من الحاشية ،

وضابط من الحرس شديد التبهرج ، وسيدة وصلت
منذ قريب ، تمت الى الاميرة بقرابة من ناحية
زوجها ، سيدة جميلة جدا ، ولكنها تعاني
مرضا شديدا فيما يبدو . . . ألم تلقها عند البئر ؟
انها شقراء ، متوسطة القامة ، متسقة القسمات ،
شاحبة اللون كالمصدرين ، وعلى خدها الايمن
شامة سوداء . لقد خطف وجهها بصرى ، فانه

معبّر جدا .

فدمدمت بينى وبين نفسى :

— على خدها شامة ؟ أهذا ممكن ؟

فنظر الىّ الدكتور ، وقال مفخما كلامه ،

وهو يضع يده على قلبي :

<http://www.library4arab.com/vb>

— أنت تعرفها !

هذا صحيح ، ولقد اشتدت خفقات قلبي .

قلت له :

— انت الآن المنتصر ، ولكننى اعتمد

عليك ، لا تفضحنى . اننى ما رأيتها بعد ،

ولكننى ابصر فى هذه الاوصاف ، يقينا ، وجه

امرأة احببتها منذ زمن بعيد . فلا تأت على ذكرى

بكلمة ، واذا سألتك فحدثها عنى بسوء .

فقال فرر وهو يهز كتفيه :

— لك ما تريد .

فلما ذهب الدكتور شعرت بحزن شديد يقبض

صدرى . أهى الصدفة تجمعنا مرة اخرى فى

القفقاس ، ام انها تعمدت ان تجئ الى هنا

ليقينها بانها ستلقانى ؟ وما عسى ان يكون

لقاؤنا ؟ ولكن ، اولا ، أهى هى حقا ؟ اننى

ما اخطأت يوما فيما اوجس من مشاعر ! ما
من رجل يسيطر عليه الماضي كما يسيطر عليّ .
فان ذكرى الحزن او الفرح لتترجع في نفسى ترجعا
اليما ، وتخرج منها دائما نفس الاصوات . . .
هكذا شاءت الاقدار ان اكون . لا انسى شيئا ،
لا انسى شيئا .

بعد الغداء ، فى نحو الساعة السادسة ،
ذهبت الى الشارع الكبير . كان الشارع يغص
بالناس ، وكانت الاميرة وابنتها جالستين على
احد المقاعد ؛ وكان الشباب يحومون حولهما .
فاتخذت لى مكانا على مقعد آخر يبعد قليلا عن
ذلك المقعد . واستوقفت ضابطين اعرفهما من
د . . . واخذت اقص عليهما حكاية . . . ويظهر
ان الحكاية كانت هزلية كثيرا ، فلقد اخذا
يضحكان كالمجانين . واجتذب حب الاستطلاع
الى حلقتنا بعض من كانوا يحيطون بالاميرة .
وشيئا فشيئا هجرها الجميع وانضموا الينا . لم ينضب
معينى . كانت حكاياتى فكهة الى درجة الهذيان ،
وكان تندرى على من يمر امامنا من اشخاص
متفردين خبيثا الى حد الجنون . . . وظللت افكه

جمهورية وابهجه الى ان غابت الشمس . وقد
مرت الاميرة الصغيرة من امامى عدة مرات ،
وهى تمسك بيد امها ، يصحبهما عجوز قصير
اعرج . وكان بصرها حين يقع علىّ فى كل مرة
يعبر عن الغيظ ، وان حاولت ان تظهر مظهر
اللامبالي .

وسألت شابا عاد اليها على سبيل الادب :
— ماذا كان يقص عليكم ؟ لا شك ان
حديثه كان شائقا ؟ لعله كان يحدثكم عن مآثره
فى المعارك ؟ . . .

قالت ذلك بصوت عال ، وربما كانت تنوى
ان تغمز من قناتى . قلت فى نفسى : «هاها . . .
ها انت تغضبين اذن ايتها الاميرة العزيزة . . .
انتظرى ، فلسوف ترين ما هو ادهى من
ذلك» .

وكان جروشنيتسكى يتبعها كحيوان كاسر ،
ولا يفارقها بنظره . اراهن على انه سيطلب ان
يقدمه احد الى الاميرة غدا . وسيسرها ذلك
كثيرا ، لانها ضجرة .

لقد تقدمت اعمالى خلال يومين تقديما هائلا .
ان الاميرة الصغيرة حانقة علىّ ، ما فى ذلك
ربى . حتى لقد نُمى الىّ انها اغتابتنى مرتين
او ثلاث مرات ، بقُدْح لا يخلو من مرارة ،
ولكنه لا يخلو من كثير من مداراة .
انها لتستغرب كثيرا كيف ان رجلا اختلف الى
المجتمع الراقى ، وعرف بنات عمها وعماتها فى
بطرسبرج ، لا يحاول ان يتعرف عليها . اننا
نلتقى كل يوم عند البئر فى الشارع الكبير . واحاول
بكل ما اوتيت من قوة ان انتزع منها عبادها
المعجبين بها ، وهم من ضباط الحاشية البارزين ،
ومن الموسكوبيين الشاحبين وغيرهم ، وكنت اظفر
بذلك دائما على وجه التقريب ، وانا امرؤ اكره
ان استقبل الناس فى بيتى ، ولكن بيتى يعج
بهم الآن فى كل يوم ، يتغدون ويتعشون ويلعبون .
ان الشمبانيا التى اقدمها لهم تنتصر على ما فى
عينها الجميلتين من قوة جاذبية مغناطيسية !
لقيتها امس فى مخزن تشيلاخوف ، تساوم

على سجادة رائعة من السجاد العجمي . كانت
تضرع الى امها ان لا تتباخل ، فان هذه السجادة
ستكون جميلة جدا في مخدعها ! . . فزدت
عليها اربعين روبلا ، واخذت السجادة . فكافأتنى

على ذلك بنظرة يلتمع فيها حتى يفتن القلب . .
<http://www.library4arab.com/vb>

وتعمدت فى وقت الغداء ان ارسل حصانى الشركسى
يتنزه تحت نوافذ بيتها ، وقد فرش ظهره بهذه
السجادة . وقال لى فرنر ، الذى كان فى تلك
اللحظة عندهما ، ان اثر ذلك فى نفسها كان
اثرا دراميا شديدا . ان الاميرة الصغيرة تريد
ان تؤلب جميع الناس على ، حتى لقد لاحظت
على ضابطين من ضباط الحاشية انهما اوشكا
ان لا يلقيا على التحية اثناء وجودها ، ولكن
ذلك لا يمنعهما من المجئ الى بيتى للغداء
كل يوم .

اما جروشنيتسكى فقد اصبحت حاله غريبة .
انه يسير ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، لا
يعرف احدا ولا يلوى على شىء . وكأنما شفيت
ساقه بسحر ، فهو الآن لا يكاد يعرج . وقد
اتيح له ان يخاطب الاميرة الام ، وان يثنى

على ابنتها . ولا شك انها ترضى بالقليل ، ولا تلحف ، فها هي ذى ترد تحيته منذ ذلك الحين بابتسامة محبة لطيفة .

وسألني امس :

— أأنت اذن تصبر على ان لا تتعرف الى

السيدة ليجوفسكايا وابنتها ؟

قلت :

— نعم .

قال :

— ولكن بيتهما امتع بيوت المياه قاطبة . . .

ان الطبقة الراقية كلها هنا . . .

— يا عزيزى ، هذه الطبقة الراقية تزعجنى

كثيرا . . . هنا او هناك . ولكن هل تتردد انت

عليهما ؟

— لم اذهب اليهما بعد ، لقد تحدثت مع

الاميرة الصغيرة مرتين او ثلاث مرات ، ولكن

المرء يخجل ان يفرض نفسه فى بيت ، رغم

ان هذا مألوف هنا . . . لو كان لى على الاقل

شارات ضابط . . .

— عفوا ، انك على ما انت عليه اكثر

لفتا للاهتمام . وكل ما فى الامر انك لا تعرف
الاستفادة من مزايا الظرف الذى انت فيه . . .
ان معطف الجنود الذى ترتديه يجعلك فى نظر
فتاة عاطفية بطلا وشهيدا .

فايتسم جروشنتسكى ابتسامة الرضى ، وقال :
<http://www.library4arab.com/vb>
— دعك من هذا الكلام !

فاردت اقول :

— انا واثق من ان الفتاة تحبك منذ الآن .
فاحمر حتى الاذنين ، وتجهم .
ايه ايها الغرور ، انت الرافعة التى كان يبحث
عنها ارخميدس ليرفع العالم ! . . .
قال جروشنتسكى وهو يتصنع الزعل :
— انت تحيل كل شىء الى مزاح . . .
فالفتاة ، اولا ، لا تعرفنى الا قليلا جدا . . .
— النساء لا يحببن الا من لا يعرفنه .
— ولكننى لا اطمع فى ان اعجبها . كل
ما فى الامر اننى اريد التعرف الى اسرة ممتعة ،
ومن المضحك ان تداعبنى آمال اخرى . . . اما
انتم ، يا غزاة بطرسبرج ، فشأنكم شأن آخر . . .
يكفى ان تنظروا الى امرأة حتى تذوب فورا . . .

بالمناسبة ، هل تعرف ان الاميرة قد تحدثت
عنك ؟

— كيف ؟ حدثتك عنى ؟

— ولكن ليس لك ان تسر بما قالته عنك .

لقد بدأت معها حديثا بالقرب من البئر ، على
سبيل المصادفة تماما . فما كدنا نتبادل ثلاث
كلمات حتى سألتنى : «من ذلك السيد ذو
المنظرة القاسية المنفرة ؟ .. لقد كان معك حين ..»
ثم احمرت فقد تذكرت بادرتهما اللطيفة ، ولم
تشأ ان توضح . قلت لها : «لا حاجة بك الى
ان تعينى لى ذلك اليوم ، فستظل ذكراه منقوشة
فى نفسى الى الابد ..» يا عزيزى بتشورين ، لست
اهنئك ، فانها ترى فيك رأيا سيئا . . . وهذا
مؤسف حقا ، لان مارى فتاة لطيفة جدا . . .
واحب ان الفت نظركم الى ان جروشنيتسكى
هو من اولئك الذين اذا تحدثوا عن امرأة لا
يكادون يعرفونها ، قالوا : عزيزتى مارى ، او
عزيزتى صوفيا ، متى حظيت برضاهم عنها ،
واعجابهم بها .
قلت بنبرة جادة :

— حقا لا بأس بها . . . ولكن حذار
يا جروشنيتسكى ! ان اكثر الفتيات الروسيات يغتدين
بحب افلاطونى ، دون ان يربطن به فكرة
الزواج . والحب الافلاطونى اشد انواع الحب قلعا .

يلج الى ان الاميرة من تلك النساء اللواتي يردن
ان يتسلين ، فاذا ضجرت معك دقيقتين متعاقبتين ،
ضعت الى الابد . . . صمتك يجب ان يثير
استطلاعها ، وحديثك يجب ان لا يرويها تماما .
يجب ان تجعلها دائما فى حالة تعلق . لسوف
تخاصم من اجلك رأى الناس جميعا عشر مرات ،
لسوف تعد هذا تضحية منها فى سبيلك ، ولكنها
سوف تأخذ بتعذيبك جزاء لنفسها ، ثم اذا
بها ، فى ذات صباح ، تقول لك بلامرعاة
انها اصبحت لا تطيقك . ان لم تتسلط عليها ،
فان قبلتها الاولى نفسها لن تعطيك حقا فى
قبلة ثانية . ستغنج لك ما شاء لها الغنج ،
ثم اذا بها ، بعد عام او عامين ، تتزوج قردا
اشوه اطاعة لامها ، وتروح تندب حظها الشقى ،
وتقول انها ما احبت فى حياتها الا رجلا واحدا
هو انت . ولكن الاقدار لم تشأ ان تجمعها

بذلك الرجل ، لانه يرتدى معطف جندى ،
رغم ان قلبا نبيلاً فياضاً بالحب يخفق تحت
ذلك المعطف الغليظ الرمادى . . .

فضرب جروشنيتسكى المنضدة بيده ، واخذ

يذهب ويحيى في الغرفة . . . <http://www.library4arab.com/vb>

وضحكت فى اعماق نفسى ، حتى لقد
ابتسمت مرتين ، ولكنه ، لحسن الحظ ، لم
يلاحظ ابتسامتى . واضح انه عاشق مدنف ،
لانه اصبح اكثر ثقة مما كان . ولاحظت انه
يحمل خاتماً من تلك الخواتم الفضية المنقوشة
التي تصنع هنا . فاشتبهت فى امر هذا الخاتم ،
فنظرت فيه ، فرأيت اسم ماري منقوشاً فى داخله
باحرف صغيرة ، والى جانب الاسم نقش تاريخ
اليوم الذى ناولته فيه الكأس ! لم اقل شيئاً .
فانى لا احب ان اضطره اضطراراً الى البوح
بكل شىء ، وانما اريد ان يتخذنى نجياً من
تلقاء ذاته ، فعندئذ سأنفكه . . .

.
استيقظت اليوم فى ساعة متأخرة من الصباح ،
فلما وصلت الى البئر لم اجد هنالك احداً .

وكان الجو حارا . وغمامات صغيرة بيضاء ،
شعثة ، تتراكم من الذرى التى يغطيها الثلج ،
وتنذر بالعاصفة . وكان الدخان يتصاعد من قمة
ماشوك كما يتصاعد من مشعل أطفئ . وهذه

مزق من الغيوم تتسرح وتتجوزج كالغمامين كأن

الادغال الشائكة هى التى تحبسها عن المسير .
كان الهواء مشحوناً بالكهرباء ؛ فتسربت تحت
عرائش الممر الذى يؤدى الى المغارة . كنت
مكتئبا حزين النفس ، افكر فى المرأة التى على
خدها شامة ، والتى حدثنى عنها الدكتور . . .
لماذا جاءت ؟ ولكن أهى هى حقا ؟ وما
الذى جعلنى اعتقد انها هى ؟ ما الذى يجعلنى
على يقين من ذلك ؟ ان كثيرا من النساء على
خدودهن شامات . وفيما انا افكر فى ذلك ،
وصلت الى المغارة . كانت تجلس هنالك على
مقعد من الحجر ، تحت القبة الظليلة الرطبية ،
امرأة تلبس قبعة من القش ، تتلفع بشال اسود ،
وقد احنت رأسها على صدرها . كانت قبعتها
تخفى وجهها ، وكنتُ اهم ان اعود ادراجى ،
حتى لا اعكر عليها احلامها ، فاذا هى تنظر

الىّ . فهتفت بالرغم منى :

— فيرا !

فارتعشت ، ورأيت وجهها يمتقع . قالت :

— كنت اعرف انك هنا .

فجلست وتنازلت يدها . ان اضطرابا نسيتها

منذ زمن بعيد ، سرى فى كيانى كله حين سمعت

صوتها الحبيب . واخذت عيناها العميقتان تنظران

فى عينى . فقرأت فى نظراتها ارتيابا ، وشيئا

يشبه ان يكون لوما . قلت :

— ما اطول هذه المدة التى لم ارك خلالها !

— نعم انها طويلة جدا ، وقد تغيرنا كلانا

كثيرا .

— اى انك اصبحت لا تحببى ؟

— انا متزوجة ! . . .

— وتزوجت مرة اخرى ؟ ولكن زواجك لم

يكن يمنعنا من شىء منذ بضع سنين . . .

فسلت يدها من يدى ، واحمر وجهها احمرارا

شديدا .

— لعلك تحبين زوجك الثانى ؟

فلم تجب على سؤالى ، واشاحت بوجهها عنى .

— لعله شديد الغيرة ؟

وظلت صامته .

— فماذا اذن ؟ لعله شاب ، لعله جميل ،

لعله غنى جدا ، وانت تخشين . . .

ونظرتُ اليها ، فارتعدتُ خوفاً . . .

يعبر عن يأس عميق . . . وكانت الدموع تترقق

في عينيها ، تمتت تقول :

— يلذ لك اذن ان تعذبني ؟ كان ينبغي

ان اكرهك منذ عرفتك ، لانك لم تهب لى

غير الشقاء . . .

كان صوتها يرتعش ، ثم انحنت على ،

واسندت رأسها الى صدرى .

قلت اخاطبها بينى وبين نفسى : «لعلك من

اجل هذا بعينه احببتنى ، لان الافراح تُنسى ،

اما الاتراح فلا تنسى مدى الحياة . . .»

وشددتها بين ذراعى شدا قويا ، وظللنا

هكذا مدة طويلة ، ثم تقاربت شفطانا واتحدثنا

بقبلة طويلة مسكرة . كانت يداها باردتين كالثلج ،

وكان جبينها يحترق احتراقا . ودار بيننا عندئذ

حديث من تلك الاحاديث التى اذا سجلت على

الورق لم يبق لها معنى ، من تلك الاحاديث التي لا يمكن تكرارها بل ويتعذر تذكرها ؛ ذلك لان ما يعبر عنه الصوت يغنى عما يقوله اللسان ويكمله ، كما فى اوبرا ايطالية .

انها تصير اصرارا جازما على ان لا اتعرف الى زوجها ، العجوز القصير الاعرج الذى لمحتة فى الشارع الكبير . لقد تزوجته من اجل ابنها . فهو غنى ومصاب بالروماتزم . . . ولم ابح لنفسي اى مزاح فى حقه ، لانها تحترمه كأب ، ولكنها تخونه زوجها . . . ما اعجب قلب الانسان ، لا سيما اذا كان قلب امرأة !

ان زوج فيرا ، واسمه سميون فاسيليفتش ، يمت الى الاميرة ليجوفسكايا بقرابة بعيدة ، وبيتاهما متلاصقان ، فكثيرا ما تذهب فيرا الى الاميرتين . وقد وعدتها بان اتعرف الى السيدة ليجوفسكايا وابنتها ، وان الاطف الفتاة لكى يحسبوا ان الهوى حيث انظر . وهكذا لم يتغير فى خططى شىء ، وسوف اتسلى . . .

اتسلى ! . . نعم ! لقد تجاوزت من الحياة تلك المرحلة التى لا تسعى فيها النفس الى غير السعادة ،

والتي يشعر فيها القلب بحاجة الى حب قوى
جامح . ان كل ما ارغب فيه الآن هو ان اكون
محبوبا ، وان لا تحبنى الا بضعة نساء ! بل
اننى لاشعر ان تعلقا دائما يمكن ان يكفينى :

ما ابأسها للقلب من عادة !
<http://www.library4arab.com/vb>

ثمة شىء ادهشنى دائما ، هو اننى لم
اكن فى يوم من الايام عبدا للنساء اللواتى
احببتهن . بالعكس ، كنت اسيطر على ارادتهن
وعلى قلوبهن سيطرة لا سبيل لهن الى دفعها ،
دون ان افعل من اجل ذلك شيئا . أيرجع هذا
الى اننى لا احرص على اى شىء حرصا عميقا ،
والى انهن يخشين فى كل لحظة ان افلت منهن ؟
أيرجع الى ان جسمى قوى ذو تأثير مغناطيسى ؟
ام يرجع ، بكل بساطة ، الى اننى لم التق
امراة ذات ارادة قوية ؟

يجب ان اعترف ، من جهة اخرى ، اننى
لا احب النساء اللواتى يملكن طبعاً قويا : وهل
على النساء ان يملكن طبعاً قويا ؟ . . .

على اننى اذكر الآن اننى احببت مرة ، مرة
واحدة ، امراة قوية عنيفة ، لم استطع ان

انتصر عليها ، فافترقنا عدوين ، واغلب ظنى
انا لو تعارفنا بعد ذلك الوقت بخمس سنين ،
اذن لكان يمكن ان نفترق على غير هذه الصورة . . .
ان فيرا مريضة جدا ، رغم انها لا تريد
الاعتراف بذلك . اخشى ان تكون مصابة بالسيل ،
او بهذا المرض الذى يسمونه *fièvre lente* * ،
وهو مرض ليس روسيا ابدا ، وليس له فى لغتنا
اسم يسمى به .

وحبستنا العاصفة التى هبت اثناء وجودنا فى
المغارة ، نصف ساعة ايضا . لم تطلب فيرا
ان اعاهدها على الوفاء ، ولا سألتنى هل احببت
غيرها منذ افترقنا . . . بل عاد اطمئنانها الي ،
كسابق عهدها . ولن اخونها . . . انها المرأة
الوحيدة التى اعجز عن خيانتها . اعرف انا
سنتفرق مرة اخرى ، وان هذا الفراق قريب ،
وقد يكون فراقا لا لقاء بعده . . . وعندئذ يسير
كل منا فى طريق غير طريق صاحبه ، الى ان
نموت ، ولكن ذكراها ستظل منقوشة فى قلبى :

* الحمى المضية .

قلت لها ذلك غير مرة ، وهي تصدقني ، رغم
انها تدعى خلاف ذلك .

وافترقنا اخيرا ، وتابعتها بنظراتي طويلا ،

الى ان غابت قبعتها بين الادغال والصخور .

وانقبض صدري انقباضا اليما ، كانقباضه يوم

انفصلنا اول مرة . اه ، كم سعدت بهذا الشعور !

أهو الشباب يريد ان يعود اليّ بعواصفه الممتعة

ام هي نظرة الوداع يلقيها عليّ آخر هدية يريد

ان يبقيا لي ذكرى ؟ . . انه ليضحكني ان

اتصور انني لو رأني احد لحسب انني ما ازال

شابا في ميعة الصبا ! ان وجهي ما يزال نظرا

على شحوبه ، واعضائي مرنة متناسبة ، وهذه

غداثر كثة تحف بجبيني . . . عيناى تلتمعان ،

ودمي يغلى . . .

فلما عدت الى منزلي امتطيت صهوة جوادى ،

ومضيت اعدو في السهوب ، احب ان ارانى

على ظهر حصان قوى البأس ، بين الاعشاب

العالية فى ريح السهول ! اننى لاتنسم الهواء

المعطر بشراهة ، واغرق بصرى فى الافق البعيد

الازرق ، محاولا ان اميز حواشى الاشياء ، وهي

غامضة ثم تتضح لحظة بعد لحظة . مهما تكن
المرارة التي تثوى في قلبي ، ومهما يكن الغم
الذي يرهق فكري ، فان هذا كله يتبدد عندئذ
في لحظة ، ويهدأ قلبي : ان تعب الجسم
ينتصر على قلق النفس . لا ، ما من نظرة
امراة الا واستطيع ان انساها ، حين اسرح طرفي
في الجبال المشبوكة تضيئها اشعة الظهيرة ، او
حين اتأمل السماء الزرقاء ، او حين اسمع السيل
يتدحرج من صخرة الى صخرة هادرا مصطخبا .
لا شك ان القوزاق الذين يتشاءبون وهم في
ابراجهم يراقبون ، قد تصدعت رؤوسهم طويلا ،
وهم يرونني اعدو بلا سبب ولا هدف ، اذ لا
ريب انهم ظنوني من لباسى شركسيا . وكثيرا
ما قيل لى ، فى الواقع ، اننى حين اكون على
صهوة جوادى بلباس الشراكسة ابدو كابارديا اكثر
من الكابارديين انفسهم . ويجب ان اعترف اننى
فى كل ما يتصل بهذا اللباس الحربى النبيل ،
شخص انيق جدا : ما من شريطة زائدة ،
والاسلحة ثمينة ذات زخارف جد بسيطة ، وفروة
القلبى ما هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، والجورب

الجلدى ، والحذاء متناسبان كل تناسب ،
وجلباب ابيض ، وقفطان بني . ولقد درست طويلا
طريقة الجبلين فى الفروسية ، ولا يفرح قلبى
لشئ كما يفرح للثناء على براعتى فى امتطاء
صهوة الحصان كالفقاسين . انى املك اربعة
احصنة ، احدها لى انا ، والثلاثة الباقية
لاصدقائى ، حتى لا ينتابنى الضجر وانا اعدو فى
الحقول وحدى . واصدقائى يركبون خيلى مسرورين ،
ولكنهم لا يرافقونى ابدا . كانت الساعة قد
بلغت السادسة حين تذكرت ان اوان الغداء
قد ازف . وكان حصانى مكدودا ، فسرت فى
الطريق التى تمضى من بياتيجورسك الى المستوطنة
الالمانية التى كثيرا ما يذهب اليها مجتمع المياه
فى نزعات التسلية . ان الطريق تتلوى وسط
الادغال ، وتهبط احيانا الى وديان صغيرة تجرى
فيها السواقي مغردة فى ظل الاعشاب الطويلة .
والجبال الزرقاء ، جبال بشتو ، وزمينايا ،
وليسايا ، تنتصب فى الافق البعيد صاعدة على
درجات . فلما قطعت واديا من تلك الوديان
(يسميه سكان المنطقة بالكا) ، وقفت ليرد

حصانى الماء ، فلاحى لى جماعه زاهيه من
الفرسان تنزه فى الطريق ، وتحدث جلبه كبيره ،
فاما السيدات فيرتدين اثواب الفارسات سوداء
وزرقاء ؛ واما الرجال فيرتدون مزيجا من لباس
الشراكسه ولباس الروس . رأيت - جروشنييتسكى فى
طليعه الركب مع مارى .

ان السيدات اللواتى يفتدن الى المياه ما زلن
يعتقدن ان للشراكسه هجمات فى وضع النهار ،
وربما كان ذلك هو الذى دفع جروشنييتسكى الى
ان يحمل فوق معطف الجندى الذى يرتديه ،
سيفا ومسدسين ، لقد كان منظره
مضحكا بهذا الزى البطولى العجيب . كان يخفىنى
عن اعينهما دغل كبير ، ولكننى كنت اراهما
من خلال الاوراق ؛ وادركت من تعبير وجهيهما
ان الحديث عاطفى . ووصلا اخيرا الى المنحدر ،
فامسك جروشنييتسكى بزمام حصان الاميره ،
وسمعت نهايه حديثهما . قالت الاميره :
— وهل تريد ان تقضى حياتك كلها فى

القفقاس ؟

فاجاب الفارس :

— ما لي ولروسيا ؟ روسيا بلد يعتقد فيه
الوف الناس ان من حقهم ان يحتقروني ، لانهم
اغنى مني . . . اما هنا ، فان هذا المعطف
الغليظ لم يحل بيني وبين التعرف اليك . . .

قالت وقد احمر وجهها :
<http://www.library4arab.com/vb>
— بالعكس .

فارتسمت علائم الرضى على وجه جروشنييتسكى ،
واردف يقول :

— هنا ، تحت رصاص المتوحشين ، ستنقضى
حياتي مضطربة سريعة ، دون ان اشعر بها . . .
واذا ارادت مشيئة الله ان ترسل اليّ فى كل عام
نظرة مشرقة من عيني امرأة ، نظرة مثل نظرة . . .
وكانا قد وصلا الى حيث كنت ،
فلكزت حصانى ، وخرجت من بين الادغال . . .
فصاحت الاميرة مذعورة :

—Mon dieu, un circassien!..*

فاجبتها بالفرنسية ، كى ابرر خطأ ظنها :

* يا الهى ، شركسى ! . . .

- Ne craignez rien, madame, - je ne suis pas plus dangereux que votre cavalier* .

قلت ذلك وانا انحنى لها قليلا . فظهرت على وجهها علائم الاضطراب . ترى أَلانها اخطأت الظن ، ام لانها عدت حواشي وقحا ؟ اود لو يكون الافتراض الثانى هو الصحيح . والقى على جروشنيتسكى نظرة استياء .

فى ساعة متأخرة من المساء ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، ذهبت اتزهر تحت زيزفونات الشارع الكبير . كانت المدينة نائمة ، وليس ثمة الا بضعة نوافذ ما تزال تضىء . ومن جهات ثلاث تتراءى الدرى السوداء من سلاسل الجبال التى تلاصق جبل ماشوك الذى انتشرت على قمته سحابة تنذر بشر . وكان القمر يطلع من الشرق ، وفى الافق البعيد يلتمع الهدب الفضى من الجبال التى تغطيها الثلوج . وكانت اصوات الخفراء تمتزج بخيرير الينابيع الحارة التى تفتح فى الليل . ومن حين الى حين ، يسمع صوت حوافر حصان

* لا تخافى يا آنسى ، فليست اخطر من فارسك .

على ارض الشارع ، يصحبه صرير عربة او غناء
تترى حزين . وجلست على احد المقاعد ،
واستغرقت فى افكارى انى لاشعر بحاجة
قوية الى الافضاء بما فى نفسى الى احد . . .
ولكن الى من انضى بها فى نفسى ؟ وذكرت
فيرا . . . ترى ماذا تصنع ؟ ليتنى استطع ان
اشد على يدها الآن بيدي .

وفجأة سمعت وقع خطوات سريعة متفاوتة .
لا بد انه جروشنيتسكى . . . حقا انه هو !

— من اين تأتى ؟

— من عند الاميرة ليجوفسكايا .

قال ذلك بنبرة فخورة . ثم اردف :

— ليتك سمعت مارى تغنى ! . . .

— هل تريد ان اقول لك ؟ انى لاراهن

على انها لا تعرف انك جندى ، بل تحسب

انك ضابط جُرد من رتبته . . . — فاجابنى ذاهلا :

— هذا ممكن ! ولكن فيم يهمنى ؟ . . .

— عفوا . لقد قلت ذلك كما يمكن ان

اقول شيئا آخر . . .

— ولكن هل تعلم انها حانقة عليك اشد

الحق ؟ لقد رأيت انك على جانب من الوقاحة
لا نظير له . وبذلت كل ما بوسعي من جهد
حتى اقنعها بانك شخص مثقف وانك تعرف
المجتمع الراقى ، فلا يعقل ان تكون قصدت
اجانتها . فقال : ان نظرتك رقيقة ، وانك لا
شك مغرور بنفسك .

— ليست على خطأ . . . ولكن يبدو لي
انك تريد ان تظاهرها ؟
— ليس لي حق في ذلك بعد ، مع
الاسف . . .

قلت في نفسي : «ان له اذن لاملأ . . .» .
واردف جروشنيتسكى يقول :
— يا حسرتي عليك . لن يسهل ان تتعرف
اليهما بعد ذلك الحادث . هذه خسارة ! ان
بيتهما لمن امتع ما عرفت من بيوت .
فابتسمت بيني وبين نفسي .
— ما من بيت يبدو لي في هذه اللحظة
امتع من بيتي .

قلت ذلك وانا اثناء ، ونهضت لاذهب .
قال :

— اعترف مع ذلك بانك نادم ؟ . .
— هه ! ولكننى استطيع ان اذهب اليهما
منذ مساء الغد ، ان اردت .

— سنرى . .

— وسأبدأ بمغازلة الاميرة الصغيرة اكراما لك

اذا شئت . . .

— هذا اذا اصغت اليك !

— ما علىّ الا ان انتظر اللحظة التى يضجرها

فيها حديثك . . . هيا ، هيا ، عم مساء ! . .

— سأطوف قليلا ، فانه ليستحيل علىّ ان

انام . . . فاذا شئت ذهبنا الى المطعم نلعب ؟ . .

اننى الآن لفى حاجة الى احساسات قوية . . .

— اتمنى لك ان تخسر . . .

قلت له ذلك ، وعدت الى بيتى .

٢١ ايار .

انقضى ما يقرب من اسبوع ، ولم اتعرف

بعد الى السيدة ليجوفسكايا وابنتها . اننى انتظر

فرصة مناسبة . ان جروشنييتسكى يتبع الاميرة

الصغيرة كظلمها ، وهما يتحدثان احاديث ما لها

من نهاية . تُرى متى يضجرها ؟ ان الام لا
تلقى الى ذلك بالا ولا تحاذر ، لان الرجل ليس
بالذى تريده لابنتها بعلا . هكذا منطلق الامهات !
لقد فاجأت الصبية تلقى على جروشنيتسكى نظرة

<http://www.libraryarab.com/> عاطفية ثلاث مرات يجب ان

يوضع حد لهذا .

امس جاءت فيرا الى البئر لاول مرة . . . لم
تخرج منذ اليوم الذى التقينا فيه بالمغارة ؛
اغطينا قدهينا معا ، فانخت على وهمست بي :
— ألا تريد ان تتعرف الى الاميرتين
ليجوفسكايا ؟ ان بيتهما هو المكان الوحيد الذى
يمكن ان نلتقى فيه . . .

هذا عتاب ! . . هذا شيء مضجر ! ولكننى
استحقه . . .

بالمناسبة : غدا تقام فى قاعة المطعم حفلة
راقصة بالاكتاب ، سأرقص مع الاميرة رقصه
المازوركا .

٢٢ ايار .

اجتمعت الطبقة الراقية فى بهو المطعم ،
فما ازفت الساعة التاسعة حتى كانوا جميعا هناك .

لقد وصلت الاميرة وابنتها مع آخر من وصلوا .
وكان كثير من هاته السيدات ينظرن اليها نظرة
حسد وعداوة ، لان ماري كانت انيقة كل الاناقة .
واللواتي يعددن انفسهن من الطبقة الارستقراطية ،
اخفين حسدهن ، فاقتربن منها هل يمكن ان
لا يقع هذا ؟ متى اجتمعت النساء تكونت على
الفور حلقة عليا وحلقة دنيا ! وكان جروشنييتسكى
بين الجمهور على مقربة من النافذة ، قد الصق
وجهه بزجاجها ، واخذ يتأمل معبودته لا يفارقها
بصره لحظة . ولقد اقت عليه الاميرة ، وهي
تمر ، تحية لا تكاد تلاحظ ، فاشرق وجهه
كالشمس . . . وبدأ الرقص برقصة بولونية . . . ثم
عزفت الجوقة الفالس ، فاخذت المهاميز ترن ،
واخذت ذيول الثياب ترفرف وتدور .
كنت وراء سيدة سميئة غارقة في ريش وردى
اللون ، ذكرني فستانها بعهد زى السلال ،
وذكرتني برقشة جلدها المحبب بذلك العصر الجميل ،
عصر الحرير الاسود المذبوب . وكان في رقبتها
ثؤلول كبير اخفته تحت قفل عقدها . وسمعتها
تقول لفارسها ، وهو رئيس خيال :

— ان هذه الصغيرة ليجوفسكايا طفلة لا
تطاق ! تصور انها اصطدمت بي ولم تقدم
الىّ اعتذارها ؛ واكثر من ذلك انها التفتت وحدقت الىّ
بنظارتها التي في يدها * C'est impayable!

بم تعترض هذا الاعتزاز كله ؟ انها في حاجة الى
درس قاس .

فاجابها الرئيس المهذب :

— ستعطى درسا !

ومضى الى الحجرة المجاورة .

فاقتربت من الاميرة الشابة فورا . ودعوته الى
رقصة فالس ، مستفيدا من هذه العادة المألوفة
هنا ، وهي ان يستطيع الرجل مراقبة نساء لا
يعرفهن . لم تكذ تستطيع ان تكبح ابتسامتها
وان تخفى فرح انتصارها . ولكنها سرعان ما
اصطنعت عدم المبالاة بل والقسوة ؛ فاسبلت
يدها على كتفي باهمال ، وعطفت رأسها قليلا
الى جانب ، واخذنا ندور . لا اعرف قدا الذّ
من هذا القد ولا الدن ! كانت انفاسها الطرية
تهب على وجهي خفيفة واحيانا تنزلق على

* ان هذا مضحك ! . . .

خدى الملهب غديرة من غدائرها انفصلت عن
اخواتها فى زوينة الفالس . . . درنا حول الحلبة
ثلاث مرات (انها تجيد الفالس اجادة رائعة) ،
واخذ منها التعب كل مأخذ ، واضطربت عيناها ،
ولم تكدر تستطع شفتها المنفتحتان قليلا ان
تقولا «Merci, monsieur» * ، وهو شكر لا
بد منه .

قلت لها بعد بضع لحظات من صمت ،
وانا اتصنع غاية الخضوع والضراعة :
— بلغنى ، ايتها الاميرة ، انك من سوء
حظى غير راضية عنى ، رغم انك لا تعرفينى . . .
وانك ترينى سفيها وقحا . . . فهل هذا صحيح ؟
فاجابت ، وهى تقلب شفتها قليلا عن سخر
(يجب ان اذكر ان هذه الحركة تنسجم كثيرا
مع وجهها القلّب) :

— وهل تريد ان تبقينى على رأى هذا ؟
— لئن تجاسرت فاسأت اليك ، فاسمحي
لى الآن بجسارة اكبر ، هى ان اتوسل اليك
طالباً عفوك ومغفرتك . يمينا ان غاية ما اصبو

* شكرا يا سيدى .

اليه واطمع فيه ، ان ابرهن لك على انك اخطأت
الظن بي .

— سيصعب عليك هذا كثيرا . . .

— لماذا ؟

<http://www.library4arab.com/vb> لانك لا تأتينا ، وحفلة كهذه

لن تتكرر كثيرا .

قلت في نفسي «معنى هذا ان بابهما موصل
عنى الى الأبد» .

وقلت لها في شيء من الحسرة :

— ألا تعرفين ايتها الاميرة ان المجرم

التائب يجب ان لا يصدّ ، والا تضاعف اجرامه ،
وعندئذ . . .

هنا سمعت قهقهات وهمسات فاضطرت
ان اقطع جملتي وان التفت الى وراء . فرأيت
رهطا من الرجال قد وقفوا على مسافة بضع
خطوات منى ، وبينهم الرئيس الخيال الذى
يبيت لاميرتى الصغيرة نية الشر والعداوة . كان
يبدو سعيدا جدا ، وهو يفرك يديه ، ويتبادل
الغمزات مع رفاقه . وفجأة خرج من الرهط
رجل يرتدى لباس السهرة ، وله شاربان طويلان

وقد التمع وجهه بعلائم السكر ، اتجه نحو
الاميرة بخطى مترنحة ، حتى اذا وقف امامها ،
وقد اضطربت هي من ذلك اشد الاضطراب ،
شبك يديه وراء ظهره ، وحدق اليها بعينه
المادبتين المشرشتين ، وقال بصوت ابح :

— هل تسمحين . . . ولكن لم هذه الكلفة
كلها ! ببساطة ، احجزك لرقصة المازوركا . . .
فقلت بصوت مضطرب ، وهي تلقى حولها
نظرة توصل :

— ماذا تريد مني ؟

ومن سوء الحظ ان امها كانت بعيدة ، ولم
يكن ثمة اى رجل ممن تعرفهم ، الا واحدا
من ضباط الحاشية ، رأى كل شىء فيما اعتقد ،
ولكنه اختبأ بين الجمهور ، حتى لا يتدخل فى
الامر .

قال السيد السكران وهو يغمز الضابط الخيال
الذى كان يشجعه بحركة من رأسه :

— ماذا ؟ لا تريدين ؟ اكرر ما قلت : لى

الشرف ان اطلبك * pour mazure... *

* لرقصة المازوركا .

لعلك تظنين اننى سكران ؟ لا بأس . . . السكر
يزيدنى براعة فى الرقص ، استطيع ان اوكد
لك ذلك جازما . . .
رأيت انها تكاد يغمى عليها من شدة الرعب

<http://www.library4arab.com/vb> والاستياء

فسرت الى السيد السكران ، وقبضت على
ذراعه فى خشونة ، وحدقت فى بياض عينيه ،
وطلبت اليه ان ينسحب ، مضيفا الى ذلك ان
الاميرة وعدتنى بان تراقصنى المازوركا منذ مدة
طويلة . فقال وهو يضحك بضجة :

— اذن لا سبيل ! . . فى مرة اخرى ! . .
قال ذلك ، ومضى يلتحق برفاقه الذين
شعروا بخزى شديد ، وقادوه حالا الى حجرة اخرى .
كافأتنى الاميرة على ذلك بنظرة عميقة ،
نظرة لا تنسى . ومضت الى امها ، تقص
عليها كل شىء ، فبحثت الام عنى حتى
وجدتنى ، فشكرتنى ، وقالت انها تعرف امى ،
وانها صديقة نصف «دزينة» من عماتى وخالاتى ،
واضافت الى ذلك :

— كيف لم نتعارف الى الآن ؟ اعترف ان

الذنب ذنبك . انت تتهرب من جميع الناس .
ما هذا ؟ آمل ان يستطيع هواء صالونى تبديد
سأمك ، أليس هذا صحيحا ؟

فسقت اليها عبارة من تلك العبارات الفصيحة
التي يجب ان يحفظها المرء على ظهر القلب
لمناسبة كهذه المناسبة .

وطال رقص الكادريل ثم طال الى غير نهاية .
واخيرا انفجر الاوركستر يعزف المازوركا ، فى
الرواق . فجلسنا انا والاميرة .

لم المح مرة واحدة الى حادثة السيد السكران ،
ولا الى سلوكى السابق ، ولا الى جروشنيتسكى .
وكان الانزعاج الذى احده فيها ذلك الحادث
الكريه قد ذهب شيئا فشيئا ، فاسترد وجهها
تورده ، واخذت تمزح فى كثير من الظرف ،
وكان حديثها فكها دون ان تقصد الى الفكاهة ،
وكان كلامها حيا طلقا رشيقا ، وكانت ملاحظاتها فى
بعض الاحيان عميقة والمحتُّ بعبارة مضطربة
ملتبسة الى انى معجب بها منذ زمان طويل ،
فاحت رأسها واحمرت قليلا .
ثم قالت وهى تحمل نفسها على الضحك

حملا ، وترفع نحوى عينيها المخمليتين :

— انت رجل غريب !

واستأنفت كلامى اقول :

— ولئن لم اشأ ان اتعرف اليك ، فلانك محاطة

بجمهور كبير من العباد ، وكنت اخشى ان

<http://www.library4arab.com/vb>
اضيع بينهم تماما .

— انت مخطئ ! انهم جميعا مملون .

— جميعا ! هل هذا ممكن ؟

فحدقت الىّ ، كأنها تحاول ان تتذكر ،

واصطبغ وجهها مرة اخرى بحمرة خفيفة ،

وقالت اخيرا بلهجة جازمة :

— نعم ، جميعا !

— وحتى صديقى جروشنيتسكى ؟

فهمت تقول فى لهجة الشك :

— أهو صديقك ؟

— نعم ، هو صديقى .

— لا ، طبعا ، هو لا يدخل فى عداد

المملين . . .

فقلت ضاحكا :

— اذن يدخل فى عداد البؤساء ؟

— طبعا . وهل تجد في هذا ما يضحك ؟
ليتني اراك في مكانه
— لقد كنت جنديا انا ايضا واؤكد
لك ان تلك الفترة كانت اجمل ايام حياتي ! . .

قالت في حيرة :
<http://www.library4arab.com/vb>

— أهو اذن جندي ؟ . .
ثم اردفت تقول :
— كنت اظن
— ماذا كنت تظنين ؟ . .
— لا شيء ! . . ترى من هذه السيدة ؟
ودار الحديث في اتجاه آخر ، ثم لم نعد
الى ذلك الموضوع .
وانتهت رقصة المازوركا ، فافترقنا على كلمة
الى اللقاء . وانصرفت السيدات فذهبت
اتناول طعام العشاء ، ولقيت فرنر . قال لي فرنر :
— ها ها ! لقد قبضت عليك متلبسا
بالجرم ، يا من قلت انك لا تريد ان تتعرف
الى الاميرة الا بانقاذها من موت محقق .
قلت :
— فعلت ما هو خير من ذلك ، انقذتها

من اغماء فى قلب حلبة الرقص ! ..
— كيف وقع ذلك ؟ قص علىّ ! ..
— بل احزره ، يا من تحزر كل شىء فى
الدنيا !

<http://www.library4arab.com/vb>

٢٣ ايار .

فى الساعة السابعة من المساء ذهبت اتزّه
فى الشارع الكبير . فرآنى جروشنيٲسكى من بعيد .
فجاء الىّ . كانت تلمع فى عينيه حماسة
مضحكة ، فصافحنى بقوة ، وقال بصوت
تراجيدى :

— شكرا بتشورين . . . هل تفهمنى ؟ . .
— لا . . . ثم اننى لا اذكر ان ما صنعت
يستحق ان اشكر عليه .
— كيف ! امس ؟ هل نسيت ؟ لقد
قصت علىّ مارى كل شىء . . .
— ها ، نعم ! ولكن هل اصبح كل
شىء بينكما مشتركا ؟ حتى العرفان بالجميل ؟
فقال جروشنيٲسكى بلهجة الجد :

— اسمع ! لا تسخر من حى اذا اردت
ان تظل صديقى . انت ترى اننى احبها الى
حد الجنون واعتقد ارجو انها تحبنى
ايضا . لى رجاء اتوجه به اليك . ستذهب
الهما هذا المساء ، وعدنى بان تلاحظ كل
شئ . ان لك خبرة فى هذه الامور ، وانت
تعرف النساء اكثر منى آه من النساء !
آه من النساء ! من ذا الذى يستطيع ان يفهمهن ؟
بسماتهن تكذب نظراتهن ؛ وكلامهن يعد ويجذب ،
ونبرة صوتهن تبعد وتصد تارة يفهمن كل
مادق من خطرات فكرنا ، وتارة يعجزن عن
فهم اوضح الايماءات هذه مارى مثلا :
امس كانت عيناها تلتمعان بهوى عنيف وهى
تنظر الىّ ، واليوم اراهما كابتين باردتين
قلت :

— لعل هذا من تأثير المياه .

قال :

— أوه انت ترى الامور دائما من
جانبها الدميم — ثم اضاف فى احتقار :
— اذهب فأنت مادي ولكن فلنغير

مادة الحديث . . . — وسرّ كثيرا بهذا التلاعب في
الالفاظ ، واصبح اكثر مرحا .
وفي الساعة الثامنة ذهبنا الى بيت الاميرة
معا ، فلما مررنا تحت نوافذ فيرا رأيتها تطل
من احداها ، فتبادلنا نظرة سريعة ، ثم اذا
بها تصل الى صالون السيدة ليجوفسكايا بعدنا
بقليل . فقدمتني اليها الاميرة الام على انها قريبتها .
فتناولنا الشاي ، وكان هناك عدد كبير من الناس ،
وكان الحديث عاما . وقد حرصت على ان
احظى باعجاب السيدة ليجوفسكايا ، فكنت
امرح ، حتى اضحككتها ضحكا يخرج من
صميم القلب عدة مرات . وكانت ابتها تود
لو تضحك ، ولكنها كانت تكظم ضحكها حتى
لا تخرج عن الدور الذي اصطنعته ، فلقد كانت
تري ان السامة تليق بجمالها ، ولعلها على حق .
وسرّ جروشنيتسكى جدا ان مرحى لم يكتسبها .
وبعد تناول الشاي ذهبنا الى الصلاة . قلت
لفيرا ، وانا امر الى جانبها :

— أنت راضية عن طاعتي يا فيرا ؟

فألت عليّ نظرة تفيض حبا وشكرا . اننى

متعود على هذه النظرات ، ومع ذلك فما أكثر ما كانت تبث في نفسي من سعادة ! واجلست الاميرة ابنتها الى البيانو ، ورجاها الناس ان تغنى . ولم انبس انا بكلمة واحدة ، بل انتهزت الفرصة ، وانسللت الى قوب النافذة مع فيرا التي كانت تريد ان تفضى الىّ بشيء خطير يهمننا كلينا . . . ترهة من الترهات !

واحقق عدم اكرائى هذا الاميرة كثيرا ، كما لاحظت ذلك في نظرة ساخطة من عينيها اللامعتين . آه كم افهمها هذه اللغة ، هذه اللغة الخرساء ، ولكنها معبرة ، وهى وجيزة ولكنها عنيفة !

واخذت اخيرا تغنى . ان صوتها جميل ، ولكنها لا تجيد الغناء . . . ثم اننى لم احسن الاصغاء . اما جروشنييتسكى فقد توكأ على البيانو امامها ، وراح يلتهمها بنظراته التهاما ، ويقول فى كل لحظة بصوت خافت :

* «Charmant! délicieux!»

قالت لى فيرا :

* عظيم ! رائع ! (بالفرنسية فى الاصل) .

— اسمع ! لا اريد ان تتعرف الى زوجى ،
ولكن عليك ان تحوز على رضى الاميرة الام .
وهذا سهل عليك ، انك تستطيع كل ما
تشاء . فى هذا المكان وحده نستطيع ان

<http://www.library4arab.com/vb> نلتقى

— فى هذا المكان وحده ؟

فاحمر وجهها ، واستمرت تقول :

— انت تعرف اننى عبدتك ، واننى لم
استطع ان اقاومك يوما ، وسأنال عقاب ذلك
حين افيق فاذا انت لا تحبنى ! ولكننى اريد
ان تصون سمعتى ، لا من اجل نفسى ، انت
تعرف ذلك كل المعرفة . اتوسل اليك ان لا تعذبنى
كما كنت تعذبنى ، بشكوكك العقيمة وبيروتك
المفتعلة . اظن اننى سأموت قريبا ، فانى احس
بالوهن يزداد يوما بعد يوم . . . ومع ذلك لا استطع
ان افكر فى الحياة الآتية ، ولا احلم الا بك . . .
ان الرجال لا يفهمون الافراح التى تشيعها فى
القلب نظرة عين او لمسة يد . . . اقسم لك
اننى حين اسمع صوتك ، اشعر بسعادة عميقة ،
غريبة ، لا تغنى عنها احرّ القبلات . . .

وفى اثناء ذلك توقفت الاميرة ماري عن
الغناء ، واذا بالمديح يتقاطر عليها من كل
صوب ، اقتربت منها آخر من اقترب ، وقلت
كلمتين فى الثناء على صوتها ، بلهجة لا اكرث
فيها

<http://www.library4arab.com/vb>

فاطالت شفثها السفلى ، واحنت رأسها احناء
ساخرة وقالت :

— يسرنى ثناؤك كثيرا ، ولا سيما انك لم
تسمع شيئا البتة . ولكن لعلك لا تحب الموسيقى .

— بالعكس ، ولا سيما بعد الغداء .

— كان جروشنيتسكى على حق حين قال ان

اذواقك ليس فيها شىء من الشعر . فها

أنت ذا لا تحب الموسيقى الا من زاوية

الطعام .

— مخطئة . . . لست ممن يحبون الطعام ،

فان معدتى سيئة جدا . ولكن الموسيقى ،

بعد الطعام ، تحمل على النوم ، ومن الخير

للصحة ان ينام المرء بعد تناول الغداء ، فانا

اذن احب الموسيقى من زاوية الطب . اما فى

المساء ، فالموسيقى تثيرنى ، تجعلنى حزينا

مسرّفاً فى الحزن او فرحاً مسرّفاً فى الفرح ، ومن
المتعّب ان يحزن المرء او ان يفرح حين لا
يكون ثمة داع جدى يدعو الى الحزن او الى
الفرح . . . ثم ان الحزن ، بين الناس ،

مضحك ، والفرح ان زاد عن الحد كان وقاحة . . .

لم تصغ الى كلامى حتى النهاية ، بل
ذهبت تجلس الى جانب جروشنيتسكى ، ودار
بينهما عندئذ حديث عاطفى . وتراءى لى ان
الاميرة كانت تجيب على عباراته البليغة ، ذاهلةً
لا تعرف ماذا تقول ، على تظاهرها بانها تصغى
الى كلامه فى كثير من الانتباه . ذلك انه كان
ينظر اليها فى بعض الاحيان نظرة استغراب ،
محاوِلاً ان يدرك سبب هذا الاضطراب الخفى
الذى تفضحه نظرتها القلقة من حين الى
حين . . .

ولكننى فهمتك ايتها الاميرة العزيزة . حذار
منى ! تريدان ان تقتصى لنفسك بالسلاح
عينه ، تريدان ان تجرحى عزتى . لن تظفرى
بذلك ! واذا اعلنت علىّ الحرب ، فلن تأخذنى
بك رحمة .

تظاهرت عدة مرات ، اثناء السهرة ، باننى اريد الاشتراك فى حديثهما ، ولكنها استقبلت كلامى بشيء من الجفاف ، فابتعدت اخيرا وانا اتظاهر بالاسى والحقق . انتصرت الاميرة .

<http://www.library4arab.com/vb> وانتصر جروشنييتسكى ايضا . انتصرا ، يا صديقتى ،

وحثا الخطى . ! عمر نصركما قصير ! . . . اوجس ذلك ! انى حين اتعرف الى امرأة ادرك انها سوف تحبنى او لن تحبنى ، وما خاب ظنى يوما . . .

قضيت باقى السهرة الى جانب فيرا نتحدث فى الماضى حديثا طويلا حتى شبعت . . . اننى لا اعرف حقا لماذا تحبنى كل هذا الحب ، لا سيما انها الوحيدة التى فهمتنى فهما عميقا ، وعرفت ما بنفسى من ضروب الضعف الحقيق والهوى الفاسد . . . هل يمكن ان يكون الشر جذابا الى هذا الحد ؟ . . .

وخرجت مع جروشنييتسكى ، وامسك بيدي فى الشارع ، وقال بعد برهة طويلة من الصمت :
— ما رأيك ؟

وددت لو اقول له : «رأى انك غبى» ،

ولكننى امسكت عن الكلام ، واكتفيت بان
اهز كتفى .

٢٩ ايار .

خلال هذه الايام كلها لم اخرج مرة واحدة
عن الخط الذى رسمته لسلوكى . اخذ حديثى
يرضى الاميرة الشابة . لقد قصصت عليها بعض
الاحداث الغريبة من حياتى ، واخذت تنظر
الى نظرتها الى رجل فريد عجيب . اننى اسخر
من كل شىء . واسخر من العواطف اكثر من
اى شىء . اخذ هذا يرعبها . انها لا تجرؤ على
الشروع فى حديث عاطفى مع جروشنيتسكى
بحضورى . حتى انها اجابت على فوراته بابتسامة
ساخرة عدة مرات . ولكننى كنت ، كلما
اقترب منها ، اصطنع هيئة الاذعان ، وادعهما
وحدهما . سُرت من ذلك فى المرة الاولى ،
او تظاهرت بانها سُرت . ولكنها فى المرة
الثانية سخطت على . وفى المرة الثالثة سخطت
عليه هو .

قالت لى امس :

— انت قليل الاعتزاز بنفسك . . . ما
الذى يوهمك بان صحبة جروشنيتسكى امتع عندى
من صحبتك ؟
فاجبتها قائلا :

— انى اضحى بلذتى فى اسيل سعادة
<http://www.library4arab.com/vb>

صديقى . . .
قالت :

— وتضحى بلذتى ايضا .
فحدقت اليها بنظرة رصينة ، ثم لم اتجه
اليها بكلمة واحدة طوال ذلك اليوم . . . كانت
فى المساء واجمة تفكر ، وفى صباح اليوم كانت
اشد وجوما . وحين اقتربت منها اليوم ، كانت
تصغى ذاهلة الى جروشنيتسكى الذى كان يتدفق
فى الحديث عن جمال الطبيعة ، فيما اعتقد ،
فلما رأتنى اخذت تضحك ضحكا عاليا (فى
غير محله) متظاهرة بانها لم تلمحنى . فابتعدت
واخذت اراقبها خلسة ، فرأيتها تشيح
بوجهها عن محدثها ، تتشاءب مرتين .
ان جروشنيتسكى يضجرها ، ما فى ذلك
ريب . سأظل يومين ايضا لا اخاطبها بكلمة .

٣ حزيران .

كثيرا ما اتساءل لماذا انصب هذا الانصباب على اثاره الحب في قلب فتاة لا انوى اغراءها ولا اريد ان اتزوجها ؟ ما هذا الطبع المغناج

<http://www.library4arab.com/vb/> الذى يالين بامرأة ؟ ان فيرا حنين حيا لى

تقدر على مثله الاميرة مارى . . . ولو كانت الاميرة تبدو لى صعبة المنال لقلت ان الصعوبة تغرينى . . . ولكن الامر ليس كذلك . لست اذن بصدد

تلك الحاجة القلقة الى الحب التى تعذبنا فى السنين الاولى من شبابنا ، وما تنفك تنقلنا من امرأة الى اخرى ، الى ان نجد امرأة لا تستطيع ان تطيقنا ، فاذا نحن نثبت على الهوى ،

ونشعر بذلك الحب الجامح الصادق اللانهائى ، الذى يمكن ان نعبر عنه فى الرياضيات بخط يبدأ من نقطة ويغيب فى الفضاء الفسيح . . .

ان سر هذه اللانهاية هو العجز عن بلوغ الهدف اى الوصول الى الغاية . . .

ولكن ما الذى يحملنى اذن على هذا العناء كله ؟ أتكون هى الغيرة من جروشنيتسكى ؟ مسكين جروشنيتسكى ، انه لا يستحق حقا

هذه الغيرة ! . . ام لعلى انسان مع تلك العاطفة
الخبیثة الجارفة التى تدفعنا الى تحطيم ما تفيض
به نفس الجار من اوهام عذبة ، حتى ننع
بتلك اللذة الصغيرة ، وهى ان نجيبه ذات يوم

حين يسألنا وقد تملكه الیس : «من اثار بعد»

الآن ؟ فنقول له : «اسمع يا صديقى ، لقد
مررت بمثل ما تمر به الآن ، ها أنذا مع ذلك ،
كما ترى ، اتغدى واتعشى ، وانام هادئا ، وآمل
ان استطيع لقاء الموت بلا صراخ ولا دموع !»
ثم ، أليس فى امتلاك نفس فتية ، لم
تكذ تفتح ، لذة لا تقاوم ؟ انها كتلك الزهرات
التي تنشر عقبها العطر لاولى اشعة الشمس :

ففى تلك اللحظة انما يجب ان تجتنى ، لترمى
من ثم على قارعة الطريق ، بعد ان تُشم حتى
الشمالة : وربما تجد يومئذ من يلتقطها . انى
لاشعر بنهم فى نفسى لا يشبع ، يلتهم كل
ما يصادفه على الطريق . ولا انظر الى آلام
الآخرين وافراحهم الا من ناحية صلتها بى ،
اى على انها غذاء لنفسى . اصبحت عاجزا عن
الاندفاع المجنون بتأثير هوى جامع . لقد خنقت

الظروف طموحي . ولكنه يظهر الآن بوجه آخر ،
لان الطموح ليس الا الظماً الى السيطرة ، وغاية
اللذة عندي ان أخضع من يحيط بي . وان
توحى بالحب والوفاء والخوف ، أليس ذلك اول
علامة من علامات اللطف و أكبر نصر تحققة
قوتك ؟ ان تكون مبعث ألم أو لذة لآخر ،
دون ان يكون لك اى حق فى ذلك ، أليس
هذا اعذب غذاء تغذى به كبرياؤك ؟ وما
هى السعادة ؟ انها ارتواء الكبرياء . لو اعتقدت
اننى احسن الناس واقواهم ، لاصبحت سعيدا .
ولو أحببى جميع الناس ، لوجدت فى نفسى ينباع
من الحب لا تنضب . والشر يلد الشر
ان الألم الاول الذى تعانيه يطلعك على اللذة
التي يحققها لك تعذيب الآخرين . ولا يمكن
ان تخطر فكرة الشر ببال أحد ، الا ويفكر فى
تحقيقها فوراً . قال أحدهم : الأفكار مخلوقات
عضوية ، ولادتها تهب لها شكلا ، وشكلها
هو الفعل . والذى تولد فى ذهنه الأفكار أكثر من
غيره ، يفعل أكثر من غيره . ويتبع ذلك ان
العبرى اذا سُمِّرَ على كرسى الوظيفة فاما أن

يموت واما ان يجن ، مثله كمثل من اوتى
جسما قويا ، اذا عاش حياة خاملة ساكنة ولم
ينفق من قوته شيئا ، مات بسكته القلب .

ما الأهواء الجامحة الا افكار فى اول مرحلة

من مراحل نموها . هى من شأن القلب الفتى ،

وما أشد حماقة من يتصور انه يتمكن ان يظل

مضطربا بها ، حياته كلها . كثير من الأنهر

الهادئة هى فى اول امرها سيول عارمة جارفة .

ولكن ما من نهر منها يظل يتواثب ويرغى ويزبد

حتى لحظة انصبابه الى البحر . وكثيرا ما يكون هذا

الهدوء دليل قوة كبيرة كامنة . ان الأفكار

والعواطف الواسعة العميقة تنفى الفورات الهائجة

والاندفاعات المجموعة . والنفس ، فى المها

ولذتها ، تعى كل ما يجرى فيها ادق الوعى ،

وتقنع ذاتها بأن ما كان لا بد ان يكون . تعرف

انها ، بدون العواصف ، تجففها حرارة الشمس

الدائمة . انها تتغذى بحياتها نفسها . تدلل

ذاتها وتعاقب ذاتها ، كما يدلل ويعاقب طفل

حبيب . لا يستطيع الانسان ان يفهم العدالة

الالهية الا اذا بلغ هذه الدرجة العليا من معرفة نفسه .

حين اعدت قراءة هذه الصفحة لاحظت
اننى ابتعدت عن موضوعى . . . ولكن لا ضير ! . . .
اننى اكتب هذه اليوميات لى نفسى ، وكل ما
اخطه سيكون لى فى المستقبل ذكرى ثمينة .

<http://www.library4arab.com/vb>

جاءنى جروشنيتسكى ، ووثب الى عنقى :
لقد اصبح ضابطا . وشربنا الشمبانيا . وما هى
الا برهة حتى دخل الدكتور فرنر . قال فرنر
يخاطب جروشنيتسكى :
— لا اهنتك .
— لماذا ؟

— لان معطف الجنود الذى كنت ترتديه جميل
عليك جدا . ثق ان بدلة ضابط من ضباط
المشاة تصنعها هنا ، لا تجعلك شائقا كثيرا .
انظر ، لقد كنت الى الآن فريدا فذا ، اما
اليوم فقد اصبحت كسائر الناس .
— لك ان تقول ما تشاء يا دكتور ، فلن
يمنعنى كلامك من ان افرح ! . . .

وهمس فى اذنى :
— انه لا يعلم الآمال التى تهبها لى هذه

الشارات . . . آه . . . شارات ، شارات !
نجمات ذات سلطان . . . نعم ! اننى الآن
سعيد كل السعادة .
قلت له :

ها ترافقتنا فى جولة حول الغور ؟
<http://www.library4arab.com/vb>

— انا ؟ لن اظهر للاميرة قبل ان ارتدى
بدلتى الجديدة .

— هل تكلفنى ان ابلغها النبأ السعيد ؟

— كلا ، ارجوك ، لا تقل لها شيئاً . . .

اريد ان افاجئها بالامر مفاجأة . . .

— قل لى على الاقل الى اين وصلتما ؟

القاء سؤالى هذا فى اضطراب ، واخذ

يفكر . كان يود لو يمّوه ويتباهى ، ولكنه لم

يجرؤ . وهو يخجل ان يذكر الحقيقة .

— هل تعتقد انها تحبك ؟ . .

— هل اعتقد انها تحبنى ؟ افكارك غريبة

يا بتشورين ! . . وكيف تريد ان تحبنى بمثل

هذه السرعة ؟ . . وهبها تحبنى ، أفيمكن

لامرأة مهذبة ان تبوح بهذه الامور . . .

— عظيم ! . . ولعلك ترى ايضا ان على

الشارات . . . آه . . . شارات ، شارات !
نجمات ذات سلطان . . . نعم ! اننى الآن
سعيد كل السعادة .
قلت له :

— ها ترافقنا فى جولة حول الغور ؟
<http://www.library4arab.com/vb>

— انا ؟ لن اظهر للاميرة قبل ان ارتدى
بدلتى الجديدة .

— هل تكلفنى ان ابلغها النبأ السعيد ؟

— كلا ، ارجوك ، لا تقل لها شيئاً . . .

اريد ان افاجئها بالامر مفاجأة . . .

— قل لى على الاقل الى اين وصلتما ؟

القاء سؤالى هذا فى اضطراب ، واخذ

يفكر . كان يود لو يمّوه ويتباهى ، ولكنه لم

يجرؤ . وهو يخجل ان يذكر الحقيقة .

— هل تعتقد انها تحبك ؟ . .

— هل اعتقد انها تحبنى ؟ افكارك غريبة

يا بتشورين ! . . وكيف تريد ان تحبنى بمثل

هذه السرعة ؟ . . وهبها تحبنى ، أفيمكن

لامرأة مهذبة ان تبوح بهذه الامور . . .

— عظيم ! . . ولعلك ترى ايضا ان على

الرجل المهذب ان يسكت ، هو الآخر ، عن
هواه ؟ . . .

— ولكن يا صديقى هنالك السلوك . . .

بعض الاشياء لا تقال ولكنها تحزر . . .

<http://www.library4arab.com/vb>

يُقرأ في العينين لا يربط امرأة ، في حين ان
الكلام . . . انتبه يا جروشنيتسكى ، انها تهزأ
بك . . .

— هي ؟

هتف بذلك ، وهو يرفع عينيه الى السماء ،
ويبتسم ابتسامة تفيض بمعنى الرضى والاكتفاء .
واضاف :

— اننى ارثى لك يا بتشورين ! . . .

ثم مضى الى سبيله .

فى المساء اتجه جمع غفير نحو الغور سيرا

على الاقدام .

يرى علماء البلد ان هذا الغور ليس الا فوهة

بركان منطفى . وهو يقع فى احد سفوح جبل

ماشوك ، على مسافة فرست من المدينة .

ويؤدى الى الغور ممر ضيق يتعرج بين الادغال

والصخور . وقد قدمت ذراعى للاميرة الشابة
حتى تجتاز الجبل ، فلم تتركها بعد ذلك خلال
الزهوة كلها .

دار حديثنا فى اول الامر عن الناس نغتابهم

ونتنازل عليهم ، فاستعرضت من نعرفهم منهم

حاضرين وغائبين ، واخذت اتفكه بمضحكاتهم ،

ثم اخذت اتحدث فى عيوبهم ونقائصهم .

واندفعت فى الحديث . بدأت بمزاح لطيف ،

ثم انتهيت الى اقداع خبيث . وطربت هى

لذلك فى اول الامر ، ولكنها ما لبثت ان

اعتراها خوف . قالت :

— انت رجل خطر . انى لأوثر ان اسقط

فى غابة تحت سكين قاتل سفاك ، على ان

يتناولنى لسانك السليط . . . اسألك جادة لا

هازلة : اذا بدا لك يوما ان تقول فى قول

السوء ، فانتض سكيننا واذبحنى . . . وما اظن

ان ذلك عليك عسير .

— هل هيئتى هيئة قاتل ؟

— انت شر من ذلك . . .

ففكرت لحظة ثم قلت لها وقد بدا على

وجهى تأثر عميق :

— نعم ، ذلك كان حظى منذ نعومة
اظفارى ! كان جميع الناس يقرأون فى وجهى
علامات غرائز شريرة انا منها برىء ، وما زالوا
يفترضونها . حتى نبتت ، فأصبحت . كنت
خجولا ، فاتهمونى بالمكر ، فاصبحت كتوما .
وكنت احس بالخير والشر احساسا عميقا ، ولكن
احدا لم يعطف علىّ ، بل كانوا جميعاً يؤذونى ،
فاصبحت حقودا احب الانتقام . وكنت حزين
النفس ، وكان الاطفال الآخرون فرحين هدارين ،
وكنت اشعر اننى فوقهم ، فقيل لى اننى دونهم ،
فاصبحت حسودا ؛ وكنت مهياً لان احب جميع
الناس ، فلم يفهمنى احد ، فتعلمت الكره .
لم يكن شبابى الخالى من الفرح الا صراعا
مع الناس ومع نفسى . خوفا من الهزء ، دفنت
انبل عواطفى فى اعماق قلبى ، فماتت هنالك .
وكنت احب ان اقول الحقيقة ، فلم يصدقنى
احد ، فاخذت اكذب . وقد تعلمت ان اسبر
اغوار الناس ، وان ادرك الدوافع التى تحركهم
فاصبحت بارعا فى فن الحياة ، ولاحظت ان

غيرى ممن لا يملكون هذا الفن كانوا سعداء ،
ينعمون ، من غير جهد ، بهذه الخيرات التى
كنت اجهد للحصول عليها بلا كلال ؛ فولد
اليأس فى قلبى ، لا ذلك اليأس الذى تذهب
به رصاصة من مسدس ، بل هذا اليأس البارد ،
العاجز الذى يختفى وراء سلوك لطيف ، وابتسامة
طيبة . اصبحت روحى مشلولة . ذهب نصف
نفسى : جف ، تبخر ، مات . قطعتة ورميته
بعيدا عنى . بينما كان النصف الآخر يتحرك
ويتمنى ان يخدم جميع الناس . ولكن احدا لم
يلاحظ ذلك ، لان احدا لم يعرف ان النصف
الضائع كان موجودا . ولكنك ايقظت الآن فى
نفسى ذكراه . فقرأت لك ما كتب على قبره .
كثير من الناس يرون ما يكتب على القبور مضحكا ،
اما انا فلا ، لا سيما حين افكر فيمن يرقد
تحت . على اننى لا اسألك ان تشاركينى الرأى . . .
واذا رأيت فورتى مضحكة ، فاضحكى ما شاء
لك الضحك . . . وثقى ان الضحك لن
يجرحنى ابدا .
فى هذه اللحظة التقيت بعينها ، فاذا

بالدموع تترقق فيهما كانت ذراعها المستندة
الى ذراعى ترتعش ، وكان خداهما مخرجين
بالحمرة . انها تشفق علىّ ، وترثى لحالى . ان
الشفقة ، هذه العاطفة التى سرعان ما تستسلم
لها المرأة ، قد انشت اظفارها فى اعماق
قلبها البرىء الذى لا خبرة له . فظلت صامته
طوال النزهة ، ولم تعابث احدا . هذه علامة
خطيرة !

وصلنا الى الغور ، وافلتت كل سيدة ذراع
فارسها ولكنها ظلت ممسكة بذراعى .
لم تبهجها فكاهات المتطرفين من اهل المنطقة ،
ولا اخافها المنحدر الشاهق الذى كانت عليه
كما اخاف غيرها من الاوانس اللواتى اخذن
يطلقن صرخات صغيرة ويغمضن اعينهن .
وحين عدنا ، لم استأنف حديثنا الحزين
الاول ؛ ولكنها لم تكن تجيب على اسئلتى
المبتدلة وعلى امازيحى الا اجابات موجزة ،
وهى شاردة اللب ذاهلة .

سألتها اخيرا :

— هل احببت ؟

فحدقت الىّ ، وهزت رأسها بالانكار ،
ثم عادت . مطرقة تحلم . كان واضحاً انها
تود لو تقول شيئاً ، ولكنها لا تعرف من اين
تبدأ . كان صدرها يخفق . . . ما العمل ؟

ان كما من الحرب الشفاف لا يمكن ان يكون
<http://www.LibraryFarab.com/vb>

حصناً منيعاً : لقد سرت شرارة كهربائية من
ذراعى الى ذراعها . يكاد ينشأ الغرام دائماً
هكذا ، ومن الخطل ان نتصور ان النساء يحببنا
لصفاتنا الجسمية او النفسية ، فثن كانت هذه
الصفات تهيبّ الجو ، وتعد قلوبهن لاستقبال
النار المقدسة ، فان الملامسة الاولى هى التى
تقرر كل شىء .

قالت بعد انتهاء الزهة ، وهى تحمل نفسها
على الابتسام :

— ألم اكن لطيفة جداً فى هذا اليوم ؟
— وافترقنا .

انها غير راضية عن نفسها . . . انها تتهم
نفسها بالبرودة . . . هذا نصر اول ، هذا اهم
نصر ! . . . ستحاول ان تعوض علىّ فى الغد .
اعرف ذلك على ظهر القلب ، وهذا ما يضجر !

٤ حزيران .

رأيت اليوم فيرا . صدعت رأسي . بغيرتها !
اظن ان الاميرة اتخذتها نجية ، فافضت اليها
باسرار قلبها . يجب ان اعترف انها احسنت

<http://www.library4arab.com/vb>

الانتظار !
قالت فيرا :

— اعرف الى اين تريد ان تصل . لماذا لا

تقول انك تحبها ؟

— ولكنني لا احبها !

— فلماذا اذن تحاصرها ، وتشوشها ، وتقلق

خيالها ؟ انني لاعرفك . اسمع ، اذا كنت

تريد ان اطمئن الى ما تقول ، فتعال بعد

اسبوع الى كيسلوفودسك . سنذهب انا وزوجي

الى هناك بعد غد ، وسنستقر هناك . اما

الاميرة فستبقى بعض الوقت ايضا . استأجر بيتا

قريبا من بيتنا . سنسكن نحن في البيت الكبير

الذي يقع على مقربة من النبع . سنحتل نحن

الطابق العلوي ، ولقد استأجرت الاميرة ليجوفسكايا

الطابق الارضى ، غير ان البيت الذي يقع

الى جانب هذا البيت ، ويملكه صاحب هذا

البيت نفسه ، لا يزال خاليا . . . هل تأتي ؟
فوعدها بالمجيء ، حتى لقد ارسلت وصيفي
لاستئجار ذلك المنزل .

أتاني جروشنيتسكى فى الساعة السادسة ،
وانابى بان بدلته ستكون جاهزة فى الغد ، مرعد
الحفلة الراقصة ، واطاف يقول :

— سأستطيع أخيرا ان اراقصها طوال السهرة . . .
وسأفضى لها بكل ما فى صدرى .

— متى الحفلة الراقصة ؟

— غدا ! ألم يبلغك نبأها ؟ هى حفلة

كبيرة تقيمها السلطات المحلية . . .

— تعال نتجول قليلا فى الشارع .

— يستحيل ان اخرج بهذا المعطف الحقيقير .

— كيف ؟ اصبحت لا تحبه ؟ . . .

وخرجت وحدى ، ولقيت الاميرة مارى ،

ودعوته الى رقصة المازوركا ، فبدا ان ذلك

ادهشها وسرّها . قالت وهى تبسم ابتسامة فاتنة :

— كنت احسب انك لا ترقص الا لضرورة ،

كالمرة الماضية .

كان يبدو عليها انها لا تنتبه الى غيبة

جروشنيتسكى . قلت لها : تنتظرى غدا مفاجأة
سارة .

— ما هى ؟

— هذا سر . . . ستكتشفينه فى الحفلة .

<http://www.library4arab.com/vb> قضيت باقى اليوم فى بيت الاميرتين ، ولم

اجد هناك الا فيرا ، وعجوزا ظريفا جدا .
كنت مشرق المزاج ، وارتجلت عددا من الاقاصيص
العجيبة . كانت الاميرة الصغيرة جالسة امامى ،
فكانت تصغى الى استطراداتى بانتباه بلغ من
العمق ، والتركز ، بل ومن الرقة ، اننى ارتبكت .
اين حيويتها ، وغنجها ، ونزواتها ، وكبرياؤها ،
وبسمتها الساخرة ، ونظرتها الغائبة ؟

ولاحظت فيرا كل شىء ، فاذا وجهها الذى
غيره المرض يلم به حزن عميق . كانت جالسة
فى الظلام ، فى قاع مقعد كبير ، بالقرب من
النافذة . . . لقد اشفقت عليها ورثيت لها . . .
فاخذت عندئذ اقصى تلك الحكاية الدرامية ،
حكاية لقائنا الاول ، وحبنا ، مع تغيير جميع
الاسماء .

فبلغت من جمال تصوير عاطفتى وقلقى

واندفاعي ، ومن حسن الثناء على افعالها وطباعها ،
انها اضطرت الى ان تغفر لي معايشي للاميرة .
فتركت مقعدها ، وانتعشت فجأة ، وجاءت
تجلس الى جانبنا . . . ودقت الساعة الثانية من
الليل ، حين تذكرنا ان الاطباء هنا ينصحون
بالنوم في الحادية عشرة .

٥ حزيان .

دخل عليّ جروشنيتسكي قبل حفلة الرقص
بنصف ساعة ، مشرق الوجه ، مرتدياً بدلته
الجديدة ، بدلة ضابط من ضباط المشاة ،
وقد ربط بالزر الثالث من قميصه سلسلة من
البرونز علق بها نظارة . كانت شارتا الكتفين
مرتفعتين كجناحي إله حب صغيرين . وكان
حذاءه يزقزق . وكان يمسك بيده اليسرى قفازاً
نياً وقبعة . وكان يمر بيده اليمنى ، في كل
لحظة ، على الغدائر الصغيرة من ذؤابته المجددة .
كان وجهه يعبر عن الرضى والتوجس في آن
واحد . ان منظره المحتفل ، وسيره المتعطر ،

خليقان بان يحملانى على ضحك شديد ،
لولا ان ذلك يتعارض مع ما بيّت من خطط .
ورمى قفازه وقبعته على المنضدة ، واخذ
يشد ذيل بدلته ، ويصلح من زينته امام المرآة .
لقد عقد ربطة سوداء على ياقته العالية التى
تستند اليها ذقنه ، وكانت الربطة ترتفع عن زيق
القميص مسافة اصبعين ، ولكن يظهر ان هذا
بدا له غير كاف ، فرفعها حتى صارت عند
اذنيه . وانفق فى ذلك جهدا كبيرا ، ذلك
ان زيق البدلة كان ضيقا جدا ، وكان يزعجه
كثيرا ، فاحمر من ذلك وجهه .

قال لى فى شىء من عدم المبالاة ، ودون ان
ينظر الىّ :

— يظهر انك كنت خلال جميع هذه الايام
تغازل اميرتى بلا انقطاع !
فقلت أستعير ذلك التعبير الذى كان يؤثره
ماكر من الطف الماكرين فى عصر آخر اشاد
به بوشكين :

— هذا الشاى لم يخلق لقمى الردىء .
— قل لى ، بدلتى هذه ، هل هى

جميلة علىّ ؟ آه من ذلك اليهودى اللعين ! . .
انها لتزعجني تحت الذراعين . . . هل عندك عطر ؟
— ايضا ؟ . . لقد شممتُ رائحة عطر
الورد الذي تطيبت به ، من مسافة فرست كامل .

<http://www.library4arab.com/vb>

وصبّ نصف زجاجة العطر على ربطته ،
ومنديله ، واكمامه . سألني :

— هل ترقص الليلة ؟

— لا اظن .

— اخاف ان ابدأ المازوركا مع الاميرة ،

وانا لا اكاد اعرف اى خطوة من خطواتها . . .

— ولكن هل دعوتها لرقصة المازوركا ؟

— لم ادعها بعد . . .

— انتبه ! من الممكن ان تسبق الى ذلك . . .

فضرب جبينه قائلا :

— هل تعتقد ؟ اذن الى اللقاء ! سانتظرها

عند المدخل .

وهنا اخذ قبعته وذهب بخطى واسعة .

وبعد نصف الساعة ، خرجت انا ايضا .

ان الشوارع مظلمة مقفرة . والناس يُهرعون حول

المجتمع الراقى ، او حول المطعم ، سمّه ما
شئت . كانت النوافذ مضيئة ، وحمل الى
نسيم المساء اصوات موسيقى عسكرية . كنت
اسير على مهل ، لا اسرع . وكنت حزين النفس .
تساءلت : هل يمكن ان تكون رسالتى
كلها فى هذه الحياة الدنيا هي ان احطم آمال
البشر ؟ اننى منذ عشت وفعلت ، يستخدمنى
القدر دائما لحل درامات الناس ، كأن احدا
لا يستطيع بدونى ان يموت او ان يئأس !
كنت الشخصية التى لا بد منها فى الفصل
الخامس . وقد مثلت ، رغم انفى ، ذلك
الدور المؤلم ، دور جلاد او خائن . ماذا كانت
غاية القدر ؟ أترأه اراد ان يجعل منى مؤلف
تراجيديات برجوازية ، وروايات عائلية ، او
كاتب اقاصيص لمجلة «مكتبة للقراءة» مثلا ؟ . .
اين لى ان اعرف ذلك ؟ . . ما اكثر اولئك
الذين يحسبون ، حين يبدأون حياتهم ، انهم
سيختمونها كالاسكندر الكبير او كاللورد بايرون ،
ثم يظلون حياتهم كلها مستشارى شرف ؟
حين دخلت الى القاعة ، اختفيت بين

جمهور الرجال ، واخذت اراقب . كان جروشنيتسكى واقفا الى جانب الاميرة الشابة يحدثها بحرارة ، وكانت تصغى اليه ذاهلة ، وهى تنظر من حولها ، عاضة على مروحتها بشفتيها . ان وجهها يعبر

عن الهم ونفاد الصبر . ان عينها تبجثان / <http://www.library4arab.com/vb>

احد . فاقتربت على هون من وراء ، لاستمع الى حديثهما ، قال جروشنيتسكى ،

— انك تعدينى ايتها الاميرة ، لقد تغيرت

كثيرا اثناء غيابى .

فقلت له الاميرة وهى تلفه بنظرة سريعة

لم يدرك ما فيها من سخر خفى :

— وانت ايضا تغيرت .

— انا ، تغيرت ؟ . . . لن اتغير فى حياتى

كلها ! انت تعرفين ان هذا مستحيل ! من

يراك مرة واحدة يحتفظ بخياله بصورتك الالهية

مدى الحياة

— كفى

— لماذا اصبحت لا تريد ان تسمى

ما كنت تصغين اليه بالامس راضية ؟ . . .

— لاننى لا احب التكرار ، — قالت ذلك

وهي تضحك

— آه لقد اخطأت الظن خطأ مؤلماً

مرا ! . . . كنت مجنوناً إذ ظننت ان هذه الشارات

ستهب لى حق الامل على الاقل . . . لا ، لا ،

كان ينبغي ان ارتدى الى الابد معطفي الحقيب

الذى لعل الفضل يرجع اليه فيما اظهرت من

اهتمام بى

— حقا كان معطفك انسب لك

فى هذه اللحظة تقدمتُ منها وحييتها ،

فاحمر وجهها قليلا ، وقالت :

— أليس صحيحاً يا سيد بتشورين ان

معطفه الرمادى كان اجمل ؟

— لست من هذا الرأى ، ان بدلته تظهره

افتى مما كان يبدو .

لم يستطع جروشنيتسكى ان يتحمل الضربة ،

فهو يطمع كسائر الشباب ان يكون طاعناً فى

السن منذ الآن . انه يتخيل ان الهوى قد

خلف فى وجهه آثاراً عميقة تغنى عن الآثار

التي يخلفها تعاقب السنين . فنظر الى نظرة

حانقة ، وضرب الارض بقدمه ، وابتعد عنا .

قلت للاميرة :

— أما كنت منذ مدة قريبة ، على رغم
انه كان مضحكا دائما ، تجدينه طريفا شائقا . . .
بمعطفه الرمادي ؟ . .

<http://www.library4arab.com/vb>

فغضت طرفها ، ولم تحب شي .
ظل جروشنيتسكى طوال السهرة يلاحقها ويلازمها ،
ويرقص معها او يرقص امامها . وكان يلتهمها
بعينه التهاما ، ويتنهد ، ويزعجها بتوسله وعتابه .
فلما انتهت رقصة الكادريل الثالثة ، كانت ماري
قد اشمأزت منه .

قال لي وهو يقترب مني ، ويمسك بذراعي :
— ما كنت اصدق ان تفعل ذلك !

— ماذا ؟

فأجاب بصوت فخم :
— سترقص المازوركا مع ماري ؟ لقد اعترفت

لي . . .

— طبعا ! وهل يجب ان تجعل من الامر
سرا ؟

— كان ينبغي ان اتوقع ذلك من هذه
البت الصغيرة . . . من هذه العابثة . . . ولكنني

سأنتقم !

— يجب ان تحقد على معطفك او على
شارتك ، ولا عليها هي ! هل يكون الذنب
ذنبها اذا انت لا تعجبها الآن ؟ . . .

<http://www.libraryfarab.com/vb>

— ولماذا املت انت ؟ انا افهم ان يرغب
الانسان فى شىء ، وان يسعى الى الحصول
عليه ، اما ان يأمل ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— لقد ربحت الرهان ، ولكنك لم تربحه

تماما .

وبدأت المازوركا . فلم يختر جروشنيتسكى ،
طوال الوقت ، الا الاميرة ، وكان يجىء اليها
فرسان آخرون يدعونها كل لحظة . . . واضح ان
كل هذا تأمر على . لا بأس . انها تريد ان
تتحدث معى ، فحاولوا بينها وبينى ، وستزداد
من ذلك رغبتها فى التحدث الىّ .

شدت على يدها مرتين ، وفى المرة الثانية
سلت يدها دون ان تنبس بكلمة . قالت بعد
انتهاء المازوركا :

— لن انا اليوم نوما هادئا !
— هل هذا بسبب جروشنييتسكى ؟
— لا ، لا !

كان فى وجهها من علائم الحزن والكآبة ما

جعلني اقطع على نفسي عهدا ان اقبل يدها فى ذلك المساء نفسه .

وانفض الجمع ، فلما ساعدتها على الصعود الى عربتها ، اسرعت فحملت يدها الصغيرة الى شفتى . وكان الظلام مخيما ، فلم ير احد شيئا .
عدت الى القاعة راضيا عن نفسى كل الرضى .

كان هناك عدد من الشباب يتعشون حول مائدة كبيرة . وكان جروشنييتسكى بينهم . فلما دخلت سكتوا جميعا عن الكلام : كان واضحا انهم يتحدثون عنى . ان كثيرا من الناس يحنقون علىّ ، منذ حفلة الرقص الاولى ، ولا سيما الرئيس الخيال . لا شك ان عصابة تتألف ضدى ، ولا شك ان جروشنييتسكى هو رأسها . ها هو ذا يرفع عقيرته ، ببسالة وخطرة . . .

حسن . اننى احب اعدائى ، لا حبا
مسيحيا طبعاً . . . انهم يسألونى ، وينشطون
دمى . . . ان اظل دائما على يقظة ، ان
افاجئ كل نظرة من نظراتهم ، ان احزر كل
كلمة من كلماتهم ، ان انفذ الى صميم نواياهم ،
ان احبط مشاريعهم ، ان اتظاهر باننى غرّ
مخدوع ، ثم اهدم بضربة واحدة كل ما بنوا
بالجهد الطويل الشاق والمكر والحيلة : تلكم
هى عندى الحياة .

لم ينقطع جروشنيتسكى والرئيس الخيال ،
طوال السهرة ، عن التهامس وتبادل نظرات المكر .

٦ حزيان .

سافرت فيرا هذا الصباح الى كيسلوفودسك
مع زوجها . لقد التقيت بعربتها فى طريقى
الى بيت الاميرة ليجوفسكايا ، فهزت لى رأسها ،
وكان فى نظرتها شىء من العتاب .

ولكن ما ذنبى ؟ لماذا لا تريد ان تتبخ لى
خلوة ؟ الحب كالنار ، ينطفىء اذا لم نغده

بالوقود . لعل الغيرة ان تنجح ، حيث اخفقت
توسلاتي .

بقيت مع الاميرة الام ساعة كاملة ، ولم
ار ماري : انها مريضة . لم تخرج هذا المساء
الى الشارع الكبير . ان العصابة التي تألفت قد
تسلحت بنظارات ، واصطنعت هيئة التهديد .
سرنى ان الاميرة مريضة . كان يمكن ان
يزعجوها . . . رأيت جروشنيتسكى اشعث الشعر ،
وقد لاحت على وجهه علائم اليأس . واعتقد
انه متألم ، ولا سيما من ناحية عزته الجريحة .
ولكنه من اولئك الناس الذين يضحك المرء
حتى من يأسهم .

حين عدت الى بيتي ، شعرت ان شيئا
ينقصني . . . اننى لم ارها ! انها مريضة !
أترانى احبها ؟ . . دع عنك هذا الهراء !

٧ حزيان .

فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، وهى
الساعة التى اعتادت السيدة ليجوفسكايا ان تذهب

فيها الى حمامات ييرمولوف للتعرق ، مررت امام بيتها ، فرأيت الاميرة ماري جالسة الى النافذة . تحلم ، فلما رأتنى اسرعت تنهض .

ودخلت ، ولم يكن في حجرة المدخل احد ، فاستعمت الحرية التي تبيحها العادات هنا ، فنفذت الى الصالون دون استئذان . . .

كان وجه الاميرة الجميل شاحبا كايها . وكانت واقفة بالقرب من البيانو ، قد وضعت يدها على مسند مقعدها . . . كانت يدها ترتعش قليلا . فاقتربت منها بهدوء ، وقلت لها :
— أنت حانقة عليّ ؟

فرفعت اليّ نظرة ذابلة عميقة ، وهزت رأسها . . . كانت شفتها تريدان ان تقولوا شيئا ، ولكنهما لا تستطيعان . وامتلات عيناها بالدموع ، وتهاوت على مقعدها وهي تخفي وجهها بيديها . قلت لها وانا اتناول يدها :

— ما بك ؟

فقلت :

— لا شك انك تحتقرنى ! . . دعنى ،

دعنى ! . .

فلما ابتعدت بضع خطوات . . . استوت
على مقعدها ، ورأيت الشرر يتطاير من عينيها . . .
وقفت ، وانا اضع يدي على قبضة الباب ،
وقلت لها :

سامحيني ايتها الاميرة ! لقد تصرفت
تصرف مجنون . . . ولن يقع هذا بعد الآن
ابدا . . . سأحترس . . . فيم اطلعك على ما
قام فى نفسى حتى الآن ؟ انك لن تعرفيه ،
ومن الخير لك ان لا تعرفيه . وداعا !
وحين خرجت ، خيل الىّ اننى سمعتها تبكى .
ظللت حتى المساء هائما على وجهى فى
جوار ماشوك ؛ حتى اذا عدت الى البيت ارتميت
على سريري وقد اخذ منى الاعياء كل ماخذ .
وجاءنى فرنر يسألنى :

— هل صحيح انك ستتزوج الاميرة ليجوفسكايا؟
— نعم ؟

— المدينة كلها تلغظ فى الامر . ومرضاي
جميعا يتحدثون فى الخبر الهام ، والمرضى
اناس يعرفون دائما كل شىء !
قلت فى نفسى : «لا شك ان جروشنيتسكى

هو الذى دبر هذه المكيدة» . قلت للدكتور :
— كى ابرهن لك ، يا دكتور ، على كذب
هذه الشائعات ، افضى اليك بهذا السر المكتوم ،
وهو اننى مسافر غدا الى كيسلوفودسك .

<http://www.library4arab.com/vb>

— ستبقى هنا اسبوعا آخر ايضا .

— اذن لن تتزوجها ؟

— يا دكتور ، يا عزيزى الدكتور ، انظر
الىّ ، هل ترى فىّ اى شىء مما يُرى فى خطيب ؟
فاجاب :

— لا اقول هذا

ثم اضاف وهو يتسم ابتسامة خبيثة :

— ولكنك تعلم ان هناك حالات يضطر
فيها رجل شريف الى الزواج ، وهناك امهات
لا تفعل شيئا من اجل تحاشى هذه الحالات . . .
اليك نصيحة صديق : كن على حذر من الامر ! ..
ان الهواء ، هنا ، فى المياه ، خطر جدا . . .
كم من شباب ممتازين مضوا من هنا رأسا الى
الكنيسة ، مع انهم كانوا يستحقون حظا اجمل ! ..
وانا نفسى ارادوا ان يزوجونى ، هل تصدق ؟

هى ام من القضاء ، بنتها مصابة باليرقان .
لسوء حظى قلت لها ان الوان ابنتها تعود اليها
بعد الزواج ، فاذا هى تعرض على ، ودموع
الشكر تفيض من عينيها ، ان اتزوج ابنتها
وان احظى بثروتها . كانت ثروتها خمسين
نفسا فيما اظن . ولكنى اجبتها باننى عاجز
عن ان اكون زوجا .

وتركنى فرر ، مقتنعا كل الاقتناع بانه نبهنى
وجعلنى على حذر من امرى .
لقد حفظت من كلامه كله ما يلى : ان
اشاعات خبيثة عنى وعن الاميرة ، تدور فى
المدينة . سيدفع جروشنيتسكى ثمن ذلك !

١٠ حزيان .

انا فى كيسلوفودسك منذ ثلاثة ايام . اننى
ارى فيرا على البئر ، وفى النزهة ، كل يوم .
متى استيقظت فى الصباح اذهب الى النافذة ،
واسدد نظارتى الى شرفتها ، وتكون هى مرتدية
ثيابها منذ مدة طويلة تنتظر الاشارة المتفق عليها ،

فالتقى في الحديقة التي تهبط من بيتنا الى
البئر ، كأنما مصادفة على غير ميعاد . ان هواء
الجبل المنعش قد اعاد الى لونها نضارته ، ورد
اليها شيئا من القوة . صدق من قال ان نارزان
تصنع هراقلة . ان سكان المنطقة يؤكدون ان
هواء كيسلوفودسك يفتح القلوب للحب ، وان
الروايات التي تبدأ على سفح ماشوك تنحل عقدها
هنا . ان جو العزلة يفوح من كل شيء في
هذا المكان ، كل شيء هنا سرّ : الظلال
الكثيفة في دروب اشجار الزيزفون المنحنية على
السيال الذي يرغى ويزبد واثبا من صخرة الى
صخرة ، ويشق طريقه بين الجبال المخضوضرة ؛
الفجاج المليئة بالضباب والصمت ، تتشعب في
كل اتجاه ؛ طراوة الهواء العبق ، المحمل
بروائح الاعشاب العالية الجنوبية ، وعبير اشجار
الاكاسيا البيضاء ؛ خريير المياه يهدد الآذان
بغير انقطاع . . . خريير السواقي الباردة التي تتلاقى
على طرف الوادى لتجرى معا الى مصبها في
نهر بودكوموك . . . ان الثغرة تتسع من هذه
الجهة ، وتستحيل الى واد تملؤه الخضرة ويتلوى

فيه طريق اغبر . كلما نظرت الى هذا الطريق
تراءى لى ان عربة تصل ، يطل من نافذتها
وجه جميل فاتن . لقد مرت عربات كثيرة .
ولكن العربة التى انتظرها لم تصل . . . ان

الضيعة التى وراء القاعة ، تملج بالناس ومن <http://www.library4arab.com/vb>

خلال صفين من اشجار الحور ارى عند المساء
انوار المطعم الذى بنى على الهضبة الواقعة على
بعد بضع خطوات من منزلى . واطل اسمع
حتى ساعة متأخرة من الليل جلبة الاصوات ،
ورنين الكؤوس .

ما من مكان يشرب فيه الناس من خمر
كاختيا ومن الماء المعدنى مثلما يشربون فى
هذا المكان :

فبعض الناس يخلطون هذين العاملين
ولست انا من عداد هؤلاء .

ان جروشنيتسكى وعصابته يحدثون كثيرا من
الصخب فى المطعم . ولا يكاد يلقى على
التحية .

لقد وصل امس ، وتشاجر حتى الآن مع
ثلاثة شيوخ ارادوا ان يدخلوا الحمام قبله : لا
شك ان تعاسته قد احواله امرأ يحب القتال !

<http://www.library4arab.com/vb>

١١ حزيان .

اخيرا وصلتا . كنت جالسا الى النافذة حين
سمعت صوت عربتهما . لقد ارتعش عندئذ
قلبي . . . ما معنى هذا ؟ أأكون عاشقا ؟ . .
ليس هذا بمستبعد على طبعي العجيب .
تغديت في منزلهما . وقد نظرت الى الام
نظرة رقيقة ، ولكنها لا تترك ابنتها . . . الحال
سيئة ! غير ان فيرا ، في مقابل ذلك ، تغار
من الاميرة : جاءت اذن السعادة التي طالما
بحثت عنها ! اى شيء تمتنع المرأة عن فعله
من اجل ان تغيب غريمتها ؟ اذكر ان امرأة
قد احببني يوما لاننى كنت احب غيرها . لا
شيء اعجب من منطقتهم : يستحيل ان تقنعهم
باى شيء ، يجب ان تتأدى بهن الى ان
يقنعن انفسهن بانفسهن . ان فرع الحجج الذى

يمكن ان يهدم ما استقر في اذهانهم فريد
في نوعه . يجب عليك اذا اردت السيطرة
على منطقتهم ان تتخلي عن ابسط قواعد المنطق .
مثال : هذا استدلال طبيعي :

<http://www.library4arab.com/vb> هذا الرجل يحبني ، ولكنني متزوجة . اذن

يجب ان لا احبه .
وهذا استدلال امرأة :

يجب ان لا احبه ، لانني متزوجة ، ولكنه
يحبني ، اذن . . .

وهنا نصمت . . . لان العقل ليس هو
الذي يتكلم ، بل اللسان ، والعينان ، ثم
القلب ، اذا كان لهن قلب .
لو وقعت هذه الكلمات تحت عيني امرأة ،
لاستاءت من ذلك اشد الاستياء ، وقالت — هذا
افتراء ! . . .

منذ نظم الشعراء شعرا ، ومنذ قرأ النساء
هذا الشعر (ويجب ان نشكر لهن ذلك اعمق
الشكر) سُميت النساء ملائكة ، وبلغت هذه
التسمية من التكرار انهن من بساطة قلوبهن
صدقنها ، ناسيات ان هؤلاء الشعراء انفسهم

يمكن ان يضعوا نيرون فى مصاف انصاف الالهة ،
فى سبيل مال يحصلون عليه . . .
لماذا اقول فى النساء هذا الكلام الهاجر ،
انا الذى لا احب فى الدنيا غيرهن ، انا
الذى استطعت ان اضع من اجلهن براحتى ،
بطموحى ، بحياتى ؟ ولكننى اذا انتزعت عن
وجوه النساء هذا الحجاب السحرى الذى لا تستطيع
ان تنظر الى ما وراءه الا عين متمرسه ، فاننى
لا افعل ذلك مدفوعا بحق شديد وكبرياء جريحة .
كل ما اقله عنهن ليس الا نتائج

ملاحظات العقل البارد
والقلب تملؤه المرارة * .

ينبغى للنساء ان يتمنين ان يعرفهن جميع
الرجال كما اعرفهن انا ، لاننى منذ اصبحت
لا اخافهن ومنذ فضحت نواحي الضعف الصغيرة
فيهن ، ازداد حى لهن مائة مرة .
لقد شبه فرنر النساء ، ذات مرة ، بالغبابة

* بيتان من رواية بوشكين الشعرية «يفغينى اونيجين» .

المسحورة التي يتحدث عنها تاسو في «تحرير
القدس» ، فيقول : «متى اقتربت انتابتك
الوان الذعر كلها : الواجب ، الغرور ، الادب ،
رأى الناس ، سخرهم ، احتقارهم . . . ولكن
يجب عليك ان تتقدم دون ان تنظر . . . فاذا
بهذه الاشباح تختفى شيئا بعد شيء ، ثم
اذا انت امام فسحة هادئة مضيئة يزهر فيها
الأس المخضوضر . ولكن ويل لك اذا خفق
قلبك منذ الخطوات الاولى ، ونظرت الى الوراء !»

١٢ حزيران .

كانت سهرة اليوم حافلة بالاحداث . على
مسافة ثلاثة فرسات من كيسلوفودسك ، في
القع الذى يجرى فيه بودكوموك ، هناك صخرة
تسمى **الحلقة** ، هى اشبه بباب صنعته يد
الطبيعة . انها تنتصب قائمة على هضبة عالية ،
واليها ترسل الشمس عند المغيب نظرتها الملتهبة
الاخيرة . ذهبنا الى هناك رهطا من الفرسان
نريد ان نتأمل غياب الشمس من هذه الكوة

الصخرية . . . الحقيقة ان احدا لم تخطر له
الشمس ببال . . . كنت ارافق الاميرة الصغيرة
على حصانى . وعند العودة كان يجب علينا
ان نقطع بودكوموك مخاضا . ان انهار الجبال
خطرة ، مهما تكن صغيرة ، لا سيما وان
قاعها منظار سحرى حقيقى ، يتغير بضغط
المياه كل يوم ، فاذا المكان الذى كانت فيه
بالامس صخرة اصبح اليوم ثغرة . امسكت بأعنة
حصان الاميرة ، وادخلته فى الماء الذى لم
يصل الى اعلى ركبته ، واخذنا نقطع النهر
على مهل ، فى عكس اتجاه التيار ، مواربة .
وانتم تعلمون ان المرء حين يقطع نهرا سريعا
يجب ان لا ينظر فى الماء ، والا اصيب بدوار .
وقد نسيت ان انبه الاميرة مارى الى ذلك .
فما ان وصلنا الى منتصف النهر ، حيث
يتدفق الماء اسرع ما يكون ، حتى رأيت
الاميرة تترنح على سرجها ، وتقول بصوت ضعيف :
«اشعر اننى فى حالة سيئة !» فانحنيت عليها
بسرعة ، وطوقت جسمها اللدن بذراعى ، وتمتمت
اقول لها :

— انظري الى فوق . . . الامر بسيط !

ولا تخافي ، فاني معك .
وشعرت بتحسن ، فارادت ان تنسل من
بين ذراعي ، ولكنني شددت قدها الرشيقة اللدن
شدا اقوى ، حتى كان يلامس خدي خدها . . .
وكان خدها يتوقد كانه اللهب .

— ماذا تعمل ؟ .. يا الهى ! ..

ولكنني لم الق بالا الى قلقها واضطرابها . . .
ولامست شفطاي وجنتها الناعمة . فارتعشت ولكنها
لم تقل شيئا . كنا وراء الجميع ، فلم يرنا احد .
فلما وصلنا الى الضفة الثانية من النهر ، كانوا
جميعا يخبون . وحبت الاميرة حصانها عن
العدو ، وظلت انا الى جانبها . كان واضحا
ان صمتي يقلقها ، ولكنني كنت قد حلفت
الا انبس بكلمة ، من قبيل حب الاطلاع .
كنت اريد ان اعرف كيف تخرج من هذا المأزق .
فقلت لى اخيرا بصوت تمازجه الدموع :

— اما انك تحتقرني ، واما انك تحبني
كثيرا ! لعلك لا تريد الا ان تعبت بي وتسخر
منى ، تدخل القلق والاضطراب الى نفسي ،

ثم تدعني وشأني . . . سيكون هذا من الحقارة
والخسة والجبن بحيث ان تصويره وحده . . .
لا ، لا ، أليس كذلك ؟ (استدركت هذا
الاستدراك بلهجة عذبة من الثقة) ، اذ ليس
فأشياء يمكن ان يحرمني من الاحترام الذي
استحقه ؟ اما جرأتك ، فيجب عليّ ، نعم
يجب عليّ ، ان اغفرها لك ، لانني سمحت
بها . . . ولكن اجبني ، تكلم ، اريد ان
اسمع صوتك . . .

كان في كلماتها الاخيرة هذه فراغ الصبر
الانثوي ، ولم املك الا ان ابتسم له بالرغم
منى . ومن حسن الحظ ان الظلام كان قد
بدأ يخيم . . . ولم اجب بشيء .
فاردفت تقول :

— ما تزال صامتاً ؟ لعلك تريد ان اكون
انا البادئة بالاعتراف باننى احبك ؟ . . .
فظللت ملتزماً الصمت . . .
فاستأنفت تقول وهى تلتفت الىّ فجأة :
— قل ، أهذا ما تريد ؟
وكان فى قوة نظرتها وصوتها شيء يخيف .

فاجبت وانا اهز كتفى :

— لا داعى الى ذلك !

فضربت حصانها بالسوط ضربة قوية ، واندفعت
فى الطريق الضيق الخطر لا تبالى . وبلغ عدوها
من السرعة اننى لم استطع ان الحق بها الا
فى كثير من العناء ، وحين وصلت اليها كانت
قد ادركت الركب . وظلت ، حتى وصلنا الى
البيت ، لا تزيد على ان تضحك وتكلم . كان
فى حركاتها شىء من الحمى . ولم تلتفت الىّ
بنظرة واحدة . لاحظ الجميع هذا المرح غير
المألوف . وسرت الاميرة الام بذلك بينها وبين
نفسها . ولكن ابنتها كانت تعاني نوبة عصبية ،
لا اكثر ولا اقل . قلت فى نفسى لن تنام
هذه الليلة ، وستبكى كثيرا . وحدثت هذه
الفكرة فى نفسى لذة عظيمة . ثمة لحظات
افهم ذلك الشبح الذى يخرج من القبر يمتص
دماء الاحياء . . . ومع ذلك فانا ابدو فتى طيبا
شجاعا ، وافعل كل شىء من اجل ذلك .
ونزلت السيدات عن خيولهن ، ودخلن الى
بيت الاميرة . كنت فى قلق واضطراب ، فمضيت

اعدو على حصانى فى الجبل ، تبديدا لهذه
الافكار التى تتلاحق سريعة فى رأسى . وجاء
المساء رطبا بليلا بالندى ينشر طراوة مسكرة .
وطلع القمر وراء الذرى المظلمة . كانت كل
خطوة من خطوات حصانى تدوى فى الفجاج
الصامتة دويا اصم . واوردت دابتي شلالا من
الماء . وما زلت اعب الهواء النقى من هذه
الليلة الجنوبية ، حتى قفلت راجعا اعود الى
بيتى . كنت اجتاز القرية . ان الانوار اخذت
تنطفئ فى النوافذ . وخفراء سور القلعة يتخاطبون
مع العسس من جنود القوزاق بصوت بطيء . . .
ولاحظت ضوءا غير مألوف فى بيت بنى
على ضفة واد من الوديان : وسمعت اصواتا
مبهمة وصرخات . لا شك انهم عسكريون يقصفون ،
فوثبت عن حصانى ، واندست تحت النافذة ،
وكان احد مصراعيها لم يحكم اغلاقه ، فاستطعت
ان ارى وان اسمع . كانوا يتحدثون عنى .
كان الرئيس الخيال ، وقد استخفته الخمرة
وثارت حماسه ، يضرب المنضدة بيده ، يطلب
الصمت والاصغاء ، ثم يقول :

— ايها السادة ، هذا امر لا يمكن قبوله .
ان بتشورين يستحق ان نلقنه درسا . ان هؤلاء
الاعرار الذين يأتون من بطرسبرج يظنون شامخين
الى ان يتلقوا ضربة على الانف حسنة . يظن
انه وحده عاقل في المجمع الراقى .
يلبس دائما قفازين نظيفين ، وينتعل حذاءين
لامعين .

— وانظروا الى هذه الابتسامة المتكبرة ! . .
الا اننى على يقين من انه جبان ، نعم ، نعم ،
جبان

قال جروشنيتسكى :

— اعتقد بذلك ايضا . لقد تعود ان يتخلص
من المآزق بالمزاح . فى ذات يوم ، بلغت من
القسوة عليه فى الكلام ان احدا غيره لو كان
فى مكانه لقتلنى حتما . ولكنه استقبل كلامى
بضحك ! طبعا ، لم اطلبه للمبارزة . . . تركته
وشأنه . . . ثم اننى لم اشأ ان ابدأ . . .

وهنا ارتفع صوت يقول :

— جروشنيتسكى حائق عليه لانه خطف
منه الاميرة .

— هذا كلام سخيف ! صحيح اننى توددت الى الاميرة قليلا ، ولكننى سرعان ما كفت ، لاننى لم اكن انوى ان اتزوجها ، وليس من مبادئى ان اغرر بفتاة .

قال الرئيس الخيال .
<http://www.library4arab.com/vb>

— اوكد لكم انه اجبن انسان على وجه الارض . . . اقصد بتشورين لا جروشنيتسكى . . . جروشنيتسكى رجل شهم شجاع . ثم انه صديقى . . . ايها السادة ، هل يجب احد منكم ان يدافع عن بتشورين ؟ لا احد ؟ هذا حسن . هل تريدون ان تمتحنوا شجاعته ؟ سيسليكم ذلك . . . — نعم ؛ ولكن كيف ؟

— اسمعوا . ان جروشنيتسكى هو الحاقد عليه بوجه خاص ، فعليه اذن يقع تمثيل الدور الاول ! يماحكه ويناقره عند اول مناسبة تافهة ، ويطلبه للمبارزة . . . انتظروا ، يطلبه للمبارزة ، نعم ! ويتم كل شىء ، التحدى ، التهيئة ، الشروط ، على احسن ما يرام . . . بصورة فخمة ، بصورة مؤثرة . سيكون هذا من شأنى انا . واكون انا مرافقك ، يا صديقى !

نعم ! كل شيء الى هنا حسن . واليكم الآن
المضحك فى الامر . لن نضع فى المسدسين
رصاصا . وانا كفيل لكم بان بتشورين سيتراجع !
اضع كلا منهما على بعد ست خطوات من
الآخر . ما قولكم ايها السادة ؟

<http://www.library4arab.com/vb>

فهتفوا من كل صوب يقولون :

— عظيم ! فكرة عظيمة !

— وانت يا جروشنيتسكى ، ما رأيك ؟

انتظرت جواب جروشنيتسكى وانا ارتعد .

ان غضبا باردا قد استولى علىّ ، وانا اتصور

اننى ، لولا هذه المصادفة العابرة ، لاتخذنى

جميع هؤلاء الحمق اضحوكة . ولو ان جروشنيتسكى

رفض ، لو ثبت اعانقه . ولكنه بعد بضع لحظات

من الصمت ، نهض واقفا ، ومد يده الى

الرئيس يقول «اتفقنا» .

يصعب وصف الحماسة التى ظهرت عندئذ

على وجوه جميع هؤلاء الناس .

وعدت الى بيتى فريسة شعورين متعارضين .

اما الاول فهو شعور الحزن . «لماذا يكرهنى

هؤلاء الناس جميعا ؟ هل اسأت الى احد

منهم ؟ لا . . . هل يمكن ان يكون منظري
وحده يوحى بالكره والعداوة ؟» واما الشعور الثانى
فهو وحشية شريرة تجتاح نفسى شيئا فشيئا .
قلت وانا اذهب واجيء فى الغرفة : «حذار
يا سيد جروشنيتسكى ! لا مزاح من هذا
النوع معى . . . ستدفع غالبا ثمن مجاملتك
لرفاقتك هؤلاء الاغبياء . . . لن اسمح بان اكون
العوبتكم ! . . .»

ولم استطع ان اغمض جفنى الليل كله .
حتى اذا نهضت من فراشى فى الصباح كان
وجهى اصفر كليمونة .

ولقيت الاميرة عند البئر فى الضحى .

قالت وهى تحديق الىّ :

— أنت مريض ؟

— لم انم طوال الليل .

— ولا انا نمت . كنت اتهمك . . .

ربما ظلما ؟ ولكن اشرح . . . اننى استطيع

ان اغفر لك كل شىء . . .

— كل شىء ، حقا ؟

— نعم ، على شرط ان تقول الحقيقة . . .

اسرع . . . لقد فكرت طويلا . وحاولت ان
اعلل سلوكك ، وان ابرره . . . لعلك تخشى
بعض العوائق من جهة اهلى ؟ ولكن ليس
هذا شيئا . . . (وهنا اضطرب صوتها) سأتوسل

اليهم . لعل هذا هم وضعك . . . ولكن
ثق اننى استطيع ان اضحى بكل شىء فى
سبيل من احب . . . أوه ! اجبنى بسرعة ،
ارحمنى . . . ألا تحتقرنى ؟ قل !
وكانت قد امسكت بيدى .

كانت امها سائرة امامنا مع زوج فيرا ،
فلم تر شيئا . ولكن المرضى الذين يتنزهون
كان يمكنهم ان يرونا . . . وهم اطول الناس
لسانا فى النيمة ، فسرعان ما سللت يدي من
وثاقها العنيف الجامح . وقلت لها :

— سأقول لك الحقيقة كلها ، لا احاول
ان ابرر نفسى ، ولا ان اعلل سلوكى . انا
لا احبك .

فاصفرت شفتها قليلا ، وقالت بصوت لا يكاد
يسمع :
— دعنى .

فهزرت كفتي ، ثم ادرت لها ظهري ،
وابتعدت .

١٤ حزينان .

<http://www.library4arab.com/vb> انني لاحتقر نفسي في بعض الاحيان

تُرى أليس هذا هو السبب في انني احتقر
الآخرين ؟ .. لقد اصبحت عاجزا عن الاندفاعات
النبيلة ، اذ اخشى ان اصبح في نظر نفسي
مضحكا . لو كان غيري في مكاني ، لقدم
للاميرة *Son coeur et sa fortune* * ،
ولكن كلمة الزواج تفعل في نفسي فعل السحر ،
فقد احب امرأة من النساء حبا جامحا عنيفا ،
حتى اذا اشعرتنى قليلا بان عليّ ان اتزوجها ،
زال حبي ، ومضى ! ان قلبي يصبح عندئذ
كصخرة ، فلا يحركه بعد ذلك شيء . انني
قادر على جميع التضحيات ، الا هذه . . .
يمكن ان اجازف بحياتي عشرين مرة ، بل
قد اجازف بشرفي ايضا . . . ولكنني لن ابيع

* قلبه وثروته (بالفرنسية في الاصل) .

حريتي . تُرى ما الذى يجعلها غالية عندى الى هذه الدرجة ؟ . . ماذا اجد فيها ؟ ما الذى اعد له نفسى ؟ ماذا انتظر من المستقبل ؟ . . يمينا ، لا شىء . ولكنه خوف فُطرت عليه ، وترجع الى الاستطیع . . . اناس يخافون من العناكب ، من الصراصير ، من الفئران ، دون ان يعرفوا لخوفهم هذا سببا . هل اعترف لكم بشىء ؟ . . حين كنت صغيرا تنبأت امرأة عجوز لامي بان الموت سيأتينى من زوجة شريرة . ولقد اضطربت يومئذ اضطرابا عميقا ، واصبحت انفر من الزواج نفرة لا سبيل الى مغالبتها . . . ومع ذلك ان شيئا يهتف بى ان النبوة ستتحقق . سأحاول على الاقل ان ارجئها ما استطعت الارضاء .

١٥ حزيان .

وصل امس الى هنا المشعوذ ابفلباوم . وقد ألصق على باب المطعم اعلان طويل يزف الى الجمهور الكريم ان الملقب بأبفلباوم ، الحاوى المدهش ، البهلوان الرائع ، العالم فى الكيمياء

والضوء ، يسره ان يقيم حفلة كبرى فى الساعة
الثامنة من مساء هذا اليوم نفسه ، فى صالون
الطبقة الراقية (اى فى المطعم) . ثمن التذكرة :
روبلان ونصف روبل .

<http://www.library4arab.com/vb>

ان جميع الناس يريدون ان يذهبوا الى
المطعم لمشاهدة الحاوى المدهش . وقد اشترت
الاميرة ليجوفسكايا تذكرة ، رغم ان ابنتها
مريضة ، وستذهب وحدها .
بعد الغداء ، مررت تحت نوافذ فيرا .
كانت وحدها على شرفتها ، فاذا برسالة منها
تسقط بين قدميَّ :

«هذا المساء فى الساعة العاشرة ، تعال
الىّ ، من السلم الكبير . ذهب زوجى الى
بياتييجورسك ، ولن يعود الا فى صباح الغد .
لا الخدام ، ولا الخادومات ، لن يكونوا فى
البيت . اشتريت لهم جميعا تذاكر ، وكذلك
لخدام الاميرة . انتظرى . تعال حتما» .
قلت لنفسى : «هاها . . . قد وصلتُ
اخيرا الى ما كنت اريد» .

ذهبت الى المطعم لمشاهدة المشعوز ، فى

الساعة المضروبة . ولم يلتئم جمع الجمهور الا
فى الساعة التاسعة . ثم بدأت الحفلة . رأيت
خدام وخدامات فيرا والاميرة فى الصفوف الاخيرة .
كانوا جميعا هناك . ورأيت جروشنييتسكى فى
الصف الاول ، يحمل نظارته ، واليه كان يتوجه
المشعوذ كلما كان فى حاجة الى منديل ، او
ساعة ، او خاتم ، او ما شاكل ذلك .
ان جروشنييتسكى لا يحينى منذ مدة . وقد
نظر الىّ اليوم مرتين شزرا ، فى شىء من الوقاحة .
سأذكره بذلك كله فى حينه .
وقبل الساعة العاشرة بقليل نهضت وخرجت .
كان الظلام فى الخارج دامسا . وكانت سحب
ثقيلة باردة ، تجثم على ذرى الجبال المجاورة .
ومن حين الى حين تهب نسمة خفيفة بطيئة ،
تهز رؤوس اشجار الحور حول المطعم . فيسمع
حفيف اوراقها خفيفا . كان الجمهور يسارع
الى النوافذ . وهبطت الهضبة . حتى اذا تجاوزت
الباب الكبير الذى تدخل منه العربات حثت
الخطى . فترأى لى فجأة ان شخصا يسير
ورائى . فتوقفت انظر . كان يستحيل علىّ ان

ارى فى هذه الظلمة الكثيفة شيئا . وعلى سبيل
الاحتراس ، درت حول البيت ، كمن يتنزه .
فلما مررت تحت نوافذ الاميرة مارى سمعت مرة
اخرى ، وقع خطوات ورائى : ومّر بسرعة خاطفة ،
رجل يرتدى معطفا عسكريا . فتطربت من ذلك .
غير اننى اقتربت من درج الباب بخفة ، وصعدت
السلم فى الظلام بسرعة . وفتح الباب ، وامتدت
يد صغيرة تمسك بيدي . . .

قالت فيرا وهى تشد نفسها الىّ :

— هل رآك احد ؟

— لا !

— هل انت مقتنع الآن باننى احبك ؟ آه .

لقد ترددت كثيرا ، وتألّمت كثيرا . . . ولكنك
تصنع بى ما تشاء .

كان قلبها يخفق بقوة ، وكانت يداها
باردتين كالثلج . وبدأ عتاب الغيرة ، وبدأ
اللوم والشكوى . واخذت تستحثنى على ان اعترف
لها بكل شيء ، قائلة انها ستحمل خيانتى
لها دون تدمير ، لانها لا ترغب الا فى شيء
واحد ، هو ان ترانى سعيدا . لم اصدقها تماما ،

ولكننى هدأت روعها بالعهود والوعود الى آخر
ما هناك .

— اذن لن تتزوج ماري ؟ اذن انت لا
تحبها ؟ . . . وهى تظن . . . هل تعرف انها
مجنونة غراما بك ، مسكينة ماري !

وفي الساعة الثانية من الصباح ، فتحت
النافذة ، وانزلت على عامود مستعينا بشالين
رُبط احدهما بالآخر ، حتى وصلت الى الشرفة
تحت . لا يزال فى غرفة ماري ضوء . وشعرت
بشيء يدفعنى نحو نافذتها . لم تكن الستارة
مسدولة تماما ، فاستطعت ان القى على غرفتها
نظرة مستطلعة . كانت ماري جالسة على سريرها ،
وقد شبكت يديها على ركبتيها . وكان شعرها
الكثيف مضموماً تحت قلنسوة صغيرة لليل يزيناها
حرير مخرّم ، وكان يغطى كتفيها الابيضين
شال احمر ، وكانت قدماها الصغيرتان مختبئتين
فى بابوج عجمى صارخ الالوان . كانت ساكنة
خافضة رأسها ، وامامها كتاب مفتوح فوق منضدة

صغيرة ، ولكن عينيها الجامدتين المليئتين بحزن
قاهر كانتا كأنهما تطوفان على هذه الصفحة
للمرة المائة . . . انها شاردة اللب .

وفي هذه اللحظة سمعت شيئا يتحرك وراء
دغلي . فقفزت من الشرفة التي كنت عليها الى
الارض فوق العشب ، فاذا يد لا اراها تقع على
كتفى ، ويقول صاحبها بصوت خشن :

— ها . . . لقد قبضت عليك متلبسا
بالجرم ! تذهب الى الاميرات في الليل ! . .
وصاح صوت آخر خرج من الظلام :
— اقبض عليه جيدا !

انهما جروشنيتسكى والرئيس الخيال .
فهويت على رأس هذا الاخير بضربة اسقطته
على الارض ، ووليت هاربا بين الاشجار الكثيفة .
كنت اعرف جميع ممرات الحديقة التي تغطي
المنحدر امام بيوتنا . وسمعتهما يصرخان :

— سارق ، سارق ! اقبضوا على السارق ! . .
وسمعت صوت طلقة من بندقية ، وسقطت
بين قدميّ تقريبا باشورة مدخنة .
وبعد دقيقة كنت في بيتي . خلعت ثيابي ،

واستلقت على سريري . وما كاد خادمي يقفل
بالمفتاح ، حتى جاء جروشنيتسكى والرئيس يطرقان
الباب .

وسمعت الرئيس يصيح :

— بتشورين ! انت نائم ؟ انت هنا ؟
فقلت محتدا :

— نعم ، انا نائم !

— انهض ، انهض ! هناك لصوص . . .

شراكسة . . .

— اننى مصاب بزكام واخاف ان يدركنى برد .

وذهبا . لقد اخطأت اذ رددت عليهما .

كان ينبغى ان ادعهما يبيحثان عنى ساعة اخرى

فى الحديقة . واطلقت اشارة الخطر اثناء ذلك .

فوصل احد القوزاق من القلعة ، وكان هرج

ومرج عمّ جميع الناس . اخذوا يبيحثون عن

الشراكسة بين جميع الادغال ، فلم يجدوا

احدا ، طبعا . . . ولكن ظل كثيرون يعتقدون

ان عشرين لصا من اللصوص على الاقل كان

يمكن القبض عليهم فورا ، لو ان الحامية اظهرت

مزيدا من السرعة والبراعة .

١٦ حزيران .

لم يكن للناس من حديث في هذا الصباح ،
عند البئر ، الا هجوم الشراكسة في الليل .
افرغت في جوفى من مياه نارزان العدد المعين
من الكؤوس ، واخذت اتحول تحت اشجار
الزيزفون في الممر ، فلما كنت اذهب واجيء
كثيرا ، لقيت زوج فيرا الذى عاد من بياتيجورسك
منذ قليل ، فامسك بذراعى ، وذهبنا الى
المطعم تناول طعام الغداء . كان قلقا على
زوجته اشد القلق . قال :

— لقد خافت في الليلة البارحة كثيرا . . .
هل كان من الضرورى ان لا يقع هذا الا اثناء
غيابى ؟

جلسنا الى المائدة نتغدى ، على مقربة
من الباب الذى يطل على غرفة فى الركن .
كان فيها ما يقرب من عشرة شباب بينهم
جروشنييتسكى . وهأنذا اسمع ، للمرة الثانية ،
على سبيل المصادفة ، حديثا سيعين مصيره .
كان لا يرانى ، فلا يمكن ان اقدر اذن انه
قال ما قال عن خطة مقصودة . ولكن ذنبه

من اجل ذلك لا يصغر فى رأى بل يكبر .
سأل احدهم :

— هل كانوا شراكة حقا ؟ ثم هل رآهم احد؟
فأجاب جروشنيتسكى :

— سأقص عليكم الحكاية كلها ، ولكن <http://www.Library4arab.com/vb>

اياكم ان تشوا بى . هذا ما وقع : جاءنى
امس رجل لن اسميه لكم يقول انه رأى شخصا
يتسلل فى نحو الساعة العاشرة من المساء الى
بيت الاميرتين ليجوفسكايا . لاحظوا ان الاميرة
الام كانت هنا ، وان ابنتها بقيت وحدها فى
المنزل . فذهبنا معا ، وربطنا تحت نافذتها
لنراقب ذلك الانسان السعيد .

اعترف اننى خفت ، رغم ان مؤاكلة كان
منهمكا بتناول طعامه . فلقد كان يمكن ان
يسمع شيئا يسوءه لو ان جروشنيتسكى حزر الحقيقة .
لكنه ، وقد اعمته الغيرة ، لم تخطر له الحقيقة
ببال . واستمر جروشنيتسكى يقول :

— وقد ذهبنا ببندقية مشحونة بخرطوشة بدون
رصااص ، على سبيل التخويف . وظللنا ننتظر
فى الحديقة حتى الساعة الثانية من الصباح ،

واخيرا ظهر رجل ، لا ندري من اين جاء .
لم يهبط من النافذة على كل حال . لان
النافذة كانت موصدة . ولا بد انه مرّ من الباب
الزجاجي وراء العامود . المهم اننا رأينا يهبط
من الشرفة . يا لهذه الاميرة ! آه من آنسات
موسكو ! بمن يثق الانسان ، والى من يطمئن ؟
واردنا آن نقبض عليه ، ولكنه فر منا ، وولى
هاربا كالارنب بين الادغال . وعندئذ اطلقت
النار .

هنا قامت حول جروشنيتسكى جلبة من عدم
التصديق ، فاردف يقول :
— ألا تصدقون ؟ اقسم لكم بشرفى اننى
لم اقل غير الحقيقة ، واذا شتم برهانا على
ذلك سميت لكم الشخص .
فصاحوا به من كل جانب :
— سمه ، سمه ، من هو ؟
فقال جروشنيتسكى :
— هو بتشورين .

وفى هذه اللحظة ، رفع بصره ، فرانى
على العتبة ، امامه تماما . فاصطبغ وجهه

بلون القرمز . اقتربت منه ، وقلت له ، على مهل ، بصوت واضح :

— يؤسفنى كثيرا اننى لم ادخل الا بعد ان حلفت بشرفك تدعم احقر افتراء ، واحط اكدوبة .
فاننى انى دخلت قبل ذلك لىنعك وجودى من
اقتراف هذه الرذيلة الاخيرة زيادة على الرذائل
التي سبقتها .

فنهض فجأة ، واراد ان يعلو علىّ فى القول ، فتابعت كلامى دون ان اغير من لهجتى شيئا :
— اسحب ما قلت فورا ، فانت تعلم انه محض اختلاق . ولا اعتقد ان عدم اهتمام سيدة بمزايك اللامعة يستحق انتقاما حقيرا الى هذا الحد من الحقارة . فكر فى الامر ، فاذا اصررت على مزاعمك ، فقدت الحق فى ان تسمى رجلا شريفا ، وعرضت حياتك للخطر .
كان جروشنيتسكى واقفا امامى ، خافض البصر ، مضطربا اشد الاضطراب . ولكن الصراع بين ضميره وكبريائه لم يدم طويلا ، كما ان الرئيس الخيال الذى كان جالسا الى جانبه ، لكزه بكوعه . فانتفض وقال بسرعة ، دون

ان يرفع بصره :

— ايها السيد العزيز ، حين اقول شيئا ،
فاننى اعنيه ، واننى مستعد لتكراره . . . لست
اخاف تهديداتك . وانا مستعد لكل شىء .

فاجتته ببرود :

<http://www.library4arab.com/vb>
— هذا ، قد سبق ان اظهرته .

ثم امسكت بذراع الرئيس الخيال ، وخرجت
من الغرفة .

قال الرئيس :

— ماذا تريد ؟

قلت :

— انت صديق جروشنيتسكى ، ولا شك انك
ستكون مرافقه .

فانحنى الرئيس فى احتفال ، واجاب :

— نعم ، هذا صحيح ؛ بل ان من
واجبى ان اكون مرافقه ، لان الاهانة التى
وجهتها اليه تصيبنى انا ايضا .

واضاف وهو ينصب قامته المقوسة قليلا :

— لقد كنت معه فى الليلة البارحة .

— ها ! هذا انت اذن من هويت على

رأسه بضربة طائشة .

فاصفر من ذلك وجهه ، ثم ازرق ، وارتسمت عليه آثار غضب مكبوح . واضفت اقول ، وانا احببه في لطف ولباقة ، متظاهرا باننى لم

الاحظ غضبه : <http://www.library4arab.com/vb>

— يشرفنى ان ابعث اليك اليوم بمرافقى .
وخرجت من المطعم ، فوجدت زوج فيرا .
اعتقد انه كان ينتظرنى .

فشد على يدى بعاطفة تشبه ان تكون اعجابا ،
وقال والدموع فى عينيه :

— مرحى لك ايها الفتى الباسل ! لقد
سمعت كل شىء . . . هذا الجرو ! يا له
من عاق . . . كيف يُستقبلون بعد هذا فى
بيت محترم ! الحمد لله على اننى ليس لى
بنت ! ولكن تلك التى تجازف بحياتك من
اجلها ستكافئك .

ثم اضاف يقول :

— كن واثقا كل الثقة من كتمانى للامر ،
ما لزم الكتمان . لقد كنت شابا ، انا ايضا ،
ونخدمت فى الجيش ، واعرف ان الانسان يجب

ان لا يتدخل فى هذه الانواع من الامور .
الى اللقاء .

مسكين ! يفرح لانه ليس له بنت . . .
ومضيت رأسا الى فرنر ، ووجدته فى بيته ،

فقصصت عليه كل شيء : علاقاتى بغيرا ،

بالاميرة الصغيرة ، والحديث الذى سمعته والذى
علمت منه ما ينتويه هؤلاء السادة من العبث
بى والسخر منى ، اذ يريدون ان نطلق خرطوشة
فارغة . ولكن الامر خرج الآن من نطاق

المزاح . ولا شك انهم ما كانوا يتوقعون هذا الحل .

فوافق الدكتور على ان يكون مرافقى ، وذكرت

له بعض المعلومات المتصلة بشروط المباراة ،

وقلت له ان يلح على ان يتم الامر بلا جلبة ،

لاننى اذا كنت مستعدا لمجابهة الموت ما

شاءوا ذلك ، فلست ابدا مستعدا لافساد مستقبلى

فى هذه الحياة الى الابد .

ثم عدت الى منزلى . وجاء الى الدكتور

بعد ساعة من ذلك ، يقص على ما اسفرت

عنه مهمته . قال :

— انها مؤامرة مدبرة حقا . لقد وجدت

عند جروشنيتسكى ، الرئيس الخيال وسيدا آخر
يفوتنى اسمه . وتوقفت لحظة فى حجرة المدخل
اخلع نعلى ، فسمعت صراخا وشجارا فى الداخل .
كان جروشنيتسكى يقول : «مستحيل ، لقد
اهاننى على ملاء من الناس» . فاجابه الرئيس :
«وما الذى يضريك فى هذا ؟ سأتحمل انا
العبء كله . لقد كنت مرافقا فى خمس مباريات ،
واعرف كيف ادبر الامر . لقد فكرت فى كل
شئ . من فضلك لا تمنعنى . سيخاف :
وسيفيده ذلك . . . ولماذا تعرض نفسك للخطر
مع انك تستطيع تحاشيه ؟ . . .» وهنا دخلت ،
فصمتوا ، وطالت مباحثاتنا . واليك ما انتهينا
اليه من قرار . هناك ، على مسافة خمسة
فرستات ، فج منعزل سيذهبون اليه غدا فى
الساعة الرابعة من الصباح ، ونذهب نحن بعدهم
بنصف ساعة . وقد اصر جروشنيتسكى على ان
تطلقا على مسافة ست خطوات . وسيموت
احدكما ، فيُسند ذلك الى الشراكسة . ولكننى
اظن ان المرافقين قد عدلوا خطتهم الاولى
قليلا ، فهم يريدون ان يشحنوا فقط مسدس

جروشنيتسكى بالرصاص . جريمة عن سابق عمد
وتصميم . . . ولكن فى ايام الحرب ، ولا
سيما بآسيا ، كل الحيل مباحة . ومع ذلك
فان جروشنيتسكى يبدو لى اقل خسة من اصدقائه .
ما رأيك ؟ هل علينا ان نبين لهم اننا اكتشفنا
كل شىء ؟

— ابدأ يا دكتور ! اطمئن بالا ، فلن
يغدروا بى .

— ماذا تنوى ان تفعل ؟

— هذا سرى !

— كن على حذر . . . لاحظ انكما على

بعد ست خطوات !

— دكتور ، انتظر كذا غدا فى الساعة الرابعة ،

ستكون الخيل مهيأة . . . الى اللقاء !

قبعت فى غرفتى مساء فجاءنى الخادم يدعونى

الى الاميرة فطلبت منه ان يقول لها اننى مريض .

.

دقت الساعة الثانية من الصباح . . . ولم

يغمض لى جفن . . . يجب ان انام مع ذلك ،

حتى لا تهتز يدي . ولكن على بعد ست خطوات ،

يصعب ان تخيب الطلقة . آه ! يا سيد
جروشنيتسكى ! لن تنفك حيلتك . . . انقلبت
الآية ، وسوف يستلم كل منا دور الآخر .
على انا الآن ان الاحظ فى وجهك الممتع
علامات خوفك الخفى . لماذا عينت انت
نفسك هذه المسافة المشئومة ، مسافة ست
خطوات ؟ تتخيل اننى سأقدم لك رأسى لقمة
سائغة ؟ ولكننا سنضرب القرعة وعندئذ . . .
عندئذ . . . ماذا لو حالفه الحظ ؟ ماذا لو
خاننى نجمى ؟ . . . هذا ممكن جدا . لقد
خدم الحظ نزواتى الى الآن . ولكن الثبات
نادر فى السماء ندرته فى الارض .
حسن ، اموت ان كان يجب ان اموت !
ولن تكون خسارة العالم فى عظمة . وانا ،
ألست ضجرا اعمق الضجرا ؟ اننى كرجل
يتشاءب فى حفلة راقصة ، ثم لا يمضى الى
النوم ، لا شىء الا لان عربته ليست هناك .
ولكن العربة تقدمت . . . عموا مساء ! . . .
استعرضت ماضى كلهم ، وتساءلت : لماذا
عشت ؟ ولاية غاية خلقت ؟ . . . ذلك ان

ثمة غاية ، ولا شك انها غاية كبيرة ، لاننى
اشعر بقوى هائلة فى نفسى . . . ولكننى لم
افهم مصيرى الذى خلقت له ، بل كان يجرنى
سراب اهواء عقيمة عاقبة ، خرجت من بوتقتها
صلبا باردا كالفلاذ ، ولكننى فقدت الى الابد
حرارة الحماسة النبيلة ، وهى اجمل ما فى
الحياة . وبعد ذلك ، كم مرة كنت كفأس
فى يد القدر ! فانقضت كالحسام على رؤوس
الضحايا ، دون كره فى كثير من الاحيان ،
ودون شفقة فى جميع الاحيان . . . وحيى لم
يسعد احدا ، لاننى لم اضحّ بشىء فى سبيل
من احببتهن . احببت لنفسى ، للذتى الخاصة .
كنت لا ازيد على ارواء مطالب قلبى الغريبة ،
واغتذى بعواطف ضحاياى وبحبهن الرقيق ،
وبافراحهن وآلامهن ، اغتذى من ذلك كله فى
شراهة ، دون ان اتوصل الى الشعب قطّ ، مثلى
كمثل ذلك الشقى الذى هده الجوع ، ثم نام ،
فاذا هو يرى فيما يرى النائم مآكل شهية فاخرة ،
وخمورا معتقة طيبة ، فيأخذ يلتهم من هذه
الهدايا السحرية التى اوجدها خياله ما شاء له

الالتهام ، فيشعر بالراحة والرضى ، ولكنه ما يكاد يفيق حتى تغيب الرؤيا ، ويحل محلها الجوع مرة اخرى ، اقوى مما كان ، ويحل اليأس ! قد اموت غدا ! . . . لن يبقى عندئذ على

وجه الارض شخص فهمنى . . . بعضهم بظننى
<http://www.library4arab.com/vb>
اسوأ مما كنت ، وبعضهم الآخر يحسبني خيرا
مما كنت . . . سيقول بعضهم : كان نعم
الفتى ، وسيقول بعضهم الآخر : كان رجلا
وغدا حقيرا . انهم جميعا على خطأ . وبعد ،
فهل تستحق الحياة ان يعيشها الانسان ؟ ولكننا
نعيش على كل حال ، من قبيل حب الاطلاع ،
نتنظر جديدا . . . بؤس وضلال !

* * *

اننى فى قلعة ن . . . منذ شهر ونصف شهر .
لقد ذهب مكسيم مكسيمتش الى الصيد . . .
وانا اجلس الآن وحدى الى النافذة . هذى
سحب شهباء تغطى الجبال . والشمس تبدو
من خلال الضباب بقعة صفراء ، كان الطقس
بارداً والريح تصفر ، وتهز المصاريع ! . . . اننى
اشعر بضجر ! . . . سأتم كتابة يومياتى التى حالت

بينى وبين اتمامها احداث غريبة كثيرة .
لقد قرأت الصفحة الاخيرة . انها تضحكنى
على كل حال . كنت اظن اننى سأموت .
ولكن ذلك كان مستحيلا ، ذلك اننى لم اكن
قد تجرعت كأس المرارة حتى آخر قطرة . والآن
اشعر اننى سأعيش مدة طويلة ايضا .

كم يبدو لى الماضى واضحا قويا فى ذاكرتى !
ان الزمن لم يمح منه خطأ ولا لونا !
فى الليلة التى سبقت المباراة ، ما ازال
اذكر ذلك ، لم استطع ان انام دقيقة واحدة . . .
وما استطعت ان اكتب خلال بضع لحظات
الا بشق النفس . كنت فريسة غم خفى تملك
نفسى . وبعد ان درعت غرفتى جيئة وذهابا
مدة ساعة كاملة ، جلست ، وفتحت رواية
لوالتر سكوت كانت تثوى على منضدتى منذ مدة
طويلة : انها رواية «بيورتانيو ايقوسيا» . بذلت
فى اول الامر شيئا من الجهد للقراءة ، ولكننى
ما لبثت ان انجرفت مع هذه القصة الخيالية
الرائعة ، فنسيت كل شىء . . .

هل يمكن ان لا يكافأ الشاعر الايقوسى فى

الحياة الاخرى بلحظات من هذه السعادة الخالدة
التي يهيئها لنا كتابه ؟ . . .
وأخيرا طلع النهار . كان اضطرابي قد هدأ
قليلا . ونظرت الى نفسي في المرآة . كان
وجهي الذي يحتفظ بآثار ارق مؤامير شاحبا شحوبا
شديدا . ولكن عيني ، رغم انها محاطتان
بهالة مزرقّة ، كانتا تلتمعان ببريق من الزهو
والغيظ . كنت راضيا عن نفسي .
امرت ان تسرح الخيل ، وارتديت ثيابي ،
واسرعت الى الحمام ، وغطست في نارزان
البارد الفائر ، فشعرت بارتداد قوى الجسمية
والمعنوية الى . وخرجت من الماء ، غضا
مرحا كأنني ذاهب الى حفلة راقصة . هل
تدعون بعد ذلك ان النفس لا تتعلق بالجسم ! . . .
فلما عدت الى بيتي وجدت الدكتور ينتظرنى .
كان يرتدى سروالا اشهب ، ويكسو رأسه بقلب
شركسى . فلما رأيت جسمه الصغير تحت
هذا القلب الكبير من الفراء ، انفجرت ضاحكا .
ليس فى شكله شىء من ملامح القتال والمقاتلين ،
مع ان وجهه بدا لى فى هذه اللحظة اطول

مما كنت اراه عادة .

— لماذا اراك حزينا يا دكتور ؟ الم تكن

تودّع مئات من المسافرين الى العالم الآخر ،

دون ان تبالي ؟ هب اننى مصاب بالحمى الصفراء ،

وان من الممكن ان اموت او ان ترتد الى

عافيتى ، وكلا الامرين طبيعى ، فحاول ان

تعدننى شخصا مصابا بمرض من الامراض ،

وان تتصور ، انك لا تعرف هذا المرض ،

فعندئذ سيثور فيك حب الاستطلاع الى ابعد

الحدود ! انك تستطيع الآن ان تجرى على

ملاحظات فيزيولوجية فى غاية الخطورة . أليس

انتظار موت عنيف مرضا فى حقيقة الامر ؟

فاجأته هذه الفكرة ، وعاد اليه صفاء مزاجه ،

وركب كل منا حصانه ، وتمسك فرنر بالاعنة

بكلتا يديه ، وسرنا نعدو . وما هى الا طرفة

عين حتى اجتزنا القلعة ، وقطعنا القرية ،

ودخلنا الفج الذى يتلوى فيه الطريق ، تغطيه

الاعشاب الكبيرة ، وتعرضه فى كل لحظة

ساقية صاخبة يجب اجتيازها مخاضا ، لسوء

حظ الدكتور الذى كان يحلو لحصانه ان يتوقف

في وسط الساقية تماما .

لا اذكر اننى شهدت صباحا اكثر زرقة
وطراوة من ذلك الصباح ! كانت الشمس تطلع
من وراء الذرى المخضوضرة ، وكانت حرارة
اشعتها الاولى الممتزجة برطوبة الليل المنصرم ،
تنفذ الى جميع حواسى فى خدر عذب . ان
ضوء النهار الذى يولد لما ينفذ الى الفج بعد ،
ولكنه يذهب رؤوس الصخور التى كانت تمتد
فوق رؤوسنا ، يمنة ويسرة . وكانت الشجيرات
ذات الاوراق الكثيرة ، التى تنمو فى الشقوق
العميقة من الصخور ، تمطرنا برذاذ من الماء
فضى ، متى هبت نسمة خفيفة . اذكر اننى
احببت الطبيعة فى تلك اللحظة اكثر مما احببتها
فى اى وقت مضى من حياتى . كنت اراقب
كل قطرة من قطرات الندى تخفق على اوراق
العنب وتعكس ملايين الاشعة المتلونة بالوان قوس
قزح ! وكان بصرى يذهب الى الآماد البعيدة
التي تمتلئ بالبخار ، فى شراة ما بعدها
شراة ! هناك يبدو الطريق كأنه يضيق ثم
يضيق . . . والصخور التى تزداد زرقتها ورهبتها

تشكل ما يشبه ان يكون جدارا لا يمكن اجتيازه .
كنا نسير صامتين .

وسألنى الدكتور فجأة :

— هل معك وصيتك ؟

<http://www.library4arab.com/vb>
— واذا قتلت ؟ ..

— اطمئن بالا . . . الذين سيرثوننى ، سيعرفون

بانفسهم .

— ماذا أما من صديق تريد ان تقول له

وداعا ؟ . .

فهزرت رأسى .

— أما من امرأة تريد ان تترك لها ذكرى ؟ ..

— هل تريد يا دكتور ان افتح لك نفسى ؟ ..

لقد تجاوزت السن التى اذا مات فيها الانسان ،

مات وهو يلفظ اسم حبيبته الغالية ، ويهدى

الى صديقه خصلة من شعره معطرة او غير

معطرة . حين افكر فى احتمال موت قريب ،

لا افكر الا فى نفسى وحدها . أما بعض الناس

فلا يفعلون حتى ذلك . مالى وللاصدقاء الذين

سرعان ما ينسوننى ، وقد يلفقون فى حقى ما لا

يعلمه الا الله من اقاويل ، وما لى وللنساء اللواتى حين سيقبلن رجلا آخر ، سيسخرن منى حتى لا يغار صاحبهن من ميت . ومن عواصف الحياة ، رجعت ببعض الافكار فقط ، ولم ارجع بعاطفة واحدة . وانا اعيش بالعقل لا بالقلب منذ مدة طويلة . اننى ازن أهوائى وافعالى واحللها بنوع من حب الاستطلاع الحياذى البارد . ان فى نفسى رجلين : واحدا يعيش باوسع معانى هذه الكلمة وآخر يفكر ويحكم على الاول . بعد ساعة ، قد يقول لك احدهما وداعا ، ويقول للذنيا وداعا ؛ والثانى . . . الثانى ؟ . . . انظر يا دكتور ، ألا ترى على اليمين فوق الصخرة ، ثلاثة اشباح سوداء ؟ انهم خصومنا ، فيما اظن ؟ . . .

وحثنا الخطى .

كان على سفح الصخرة ثلاثة احصنة ربطت بأشجار ، فربطنا حصانينا نحن ايضا ، واجتزنا ممرا ضيقاً ، فوصلنا الى المكان الذى كان ينتظر فيه جروشنيتسكى ، والرئيس الخيال وشخص يدعى ايفان اجناتيفيتش ، كنت اجهل يومئذ لقبه .

قال لى الرئيس وهو يتسم ابتسامه
ساخرة :

— لقد تأخرت .

فأخرجت ساعتى ، وارىته اياها .

فاعتذر قائلا ان ساعته متقدمة
<http://www.library4arab.com/vb>
وساد صمت شاق ، خلال بضع دقائق ،

ولكن الدكتور قطع الصمت متجها بالكلام الى
جروشنيتسكى :

— ايها السيدان ، لقد اظهرتما كلاكما

استعدادكما للمبارزة ، فخضعتما بذلك لقواعد

الشرف . ويلوح لى انكما تستطيعان الآن ان

تفاهما وان تحلا هذه المشكلة على صفاء ومحبة .

فقلت :

— انا مستعد لذلك كل الاستعداد .

فغمز الرئيس جروشنيتسكى الذى ظن اننى

خائف ، فشمخ بانفه ، رغم انه كان الى

ذلك الحين ممتقع اللون ، ورفع بصره نحوى .

هذه اول مرة ينظر فيها الىّ منذ وصلنا . ولكن كان

فى نظرتة شىء من القلق يدل على صراع فى

نفسه . قال :

— ايسط شروطك ، وثق ان كل ما استطيع

ان افعله من اجلك ، سأ . . .

— هذه شروطى : ان تسحب اليوم على

رؤوس الاشهاد افتراءاتك ، وان تعتذر لى . . .

<http://www.library4arab.com/vb>

— ايها السيد ، انه ليدهشنى ان تجرؤ
على طلب شىء كهذا .

— وما عسى ان اطلب غيره ؟

— هيا ، انتهى الامر ، سنتبارز .

فهزرت كتفى ، وقلت :

— اعتقد . . . ولكن لاحظ ان احدنا

سيقتل لا محالة .

— اتمنى ان تكون انت المقتول .

— وانا واثق من العكس .

فاضطرب واحمر ثم انفجر يضحك بتصنع .

وامسك الرئيس بذارعه ، وجرة بعيدا عنا ،

وتحادثا طويلا بصوت خافت . لقد كنت حين

وصولى هادئا ، ولكن هذا كله اخذ يخرجنى

عن طورى .

واقترب منى الدكتور ، وقال لى بصوت واضح

الاضطراب :

— يظهر انك نسيت مؤامرتهم ؟ انا لا اعرف
كيف يشحن المسدس ، ولكن من اجل هذا
الظرف . . . يا لك من رجل عجيب ! قل
لهم انك تعرف مؤامرتهم . . . وعندئذ لا يجروون . . .

<http://www.library4arab.com/vb>

— اتردد اذن ان يسقطوك كصفيور ؟
— اطمئن يا دكتور ، ارجوك ، ودعني
اتصرف . . . سأدبر الامر بحيث لا يفوقونا في
شيء . . . دعهم يتهامسون .

ثم قلت بصوت عال :

— ايها السادة لقد غدا الامر مضجرا حقا .
اذا كان علينا ان نقتل ، فلنقتل . . . لقد
اتسع وقتكم للتفاهم امس . . .
فقال الرئيس :

— نحن مستعدون . الى مكانيكما ايها
السيدان . دكتور هل لك ان تقيس الخطوات
الست ؟ . . .

فكرر ايفان اجناتيفيتش يقول بصوت حاد :

— الى مكانيكما ايها السيدان .

قلت :

— اسمحوا لي ! ان لي شرطا آخر . ما

دمنا سنقتل قتال موت ، فيجب ان نعمل كل ما نستطيع عمله من اجل ان يبقى الامر سرا ، ومن اجل ان يطمئن بال مرافقينا . ما رأيكم في هذا ؟

<http://www.library4arab.com/vb> موافقون

— اليكم ما تخيلته . هل ترون هناك ، فوق ، على اليمين عند رأس هذه الصخرة المنحدرة ، تلك السطيحة الضيقة ؟ ان المسافة بين الذروة والقاعدة تبلغ ما يساوي ١٢٠ ذراعا ، او يزيد . والصخور في الاسفل ذات رؤوس حادة . اقترح ان يقف كل منا على حافة تلك السطيحة ، وبذلك تصبح اصغر اصابة قاتلة . ولا شك ان هذا يتفق مع رغباتكم ، لانكم انتم عينتم مسافة الخطوات الست . فالذى يجرح منا يسقط في الهاوية ، فيموت حتما . ويتولى الدكتور اخراج الرصاصه ، ويسهل عندئذ تعليل الموت بانه زلة قدم . ونترك للحظ ان يعين البادئ باطلاق النار . ولا بد لي ان اقول لكم في الختام اني لن اقتل على غير هذه الصورة .

فقال الرئيس :

— موافقون .

قال ذلك ، وهو ينظر نظرة ذات دلالة الى جروشنيتسكى الذى هز رأسه بالموافقة . كان وجه جروشنيتسكى يتغير تعبيره من لحظة الى اخرى . لقد وضعته فى موقف صعب . كان يمكنه ، لولا اقتراحى ذاك ، ان يصبوب رصاصة الى ساقى وان لا يجرحنى الا جرحا يسيرا ، فيسره عندئذ ان يكون قد انتقم منى ، دون ان يحمل ضميره وزرا ثقيلًا . اما الآن ، فلم يبق الا ان يطلق رصاصته فى الهواء ، او ان يصبح قاتلا ، اللهم الا ان يعدل عن مشروعه الحقيقير ، ويقاتلنى قتال الند للند ، معرضا نفسه لما يعرضنى له من خطر . لا يمكن ان اتمنى ان آكون فى مثل موقفه فى تلك اللحظة ! لقد جرّ الرئيس بعيدا عنا ، واخذ يكلمه فى حرارة . لقد رأيت اضطراب شفثيه الشاحبتين . ولكن الرئيس اشاح بوجهه عنه ، وهو يتسم ابتسامة الاحتقار ، وقال له بصوت يكاد يكون عاليا :

— انت ابله ! . . لا تفهم شيئا ! هيا بنا

ايها السادة .

كان هناك ممر ضيق في المنحدر بين الاشواك ،
وكان هنالك شظايا صخور ، تكوّن سلما طبيعيا
ذا درجات مهتزة ، فكنا ، ونحن نصعد ،
نتمسك بالاشجار . كان جروشنيتسكى يسير امامنا
جميعا ، يتبعه مرافقاه ، وكنت انا والدكتور
نسير في المؤخرة .

قال لى الدكتور وهو يشد على يدي بقوة :

— انك لتدهشنى . دعنى اجس نبضك .

اوه ، اوه ، انت محموم ! . . ولكن وجهك لا
يظهر عليه اى أثر من ذلك . . . عينك وحدهما
تلمعان اكثر مما تلمعان عادة !

وفجأة تدحرجت بين اقدامنا حجارة صغيرة ،
واحدث تدحرجها ضجة . ما هذا ؟ لقد زلت
بجروشنيتسكى قدمه ، وانكسر الغصن الذى تمسك
به ، فكاد يهوى على ظهره الى اسفل ، لولا
ان شاهديه امسكا به .

صحت به :

— تأن . . . لا تقع قبل الآوان . هذا نذير

سوء . تذكر يوليوس قيصر !

ووصلنا اخيرا الى قمة الصخرة الناتئة . كان
السطح مغطى برمل ناعم ، كأنه اعد للمبارزة .
ومن حولنا ذرى الجبال تتلاحق كقطع لا حصر
له ، وتكاد تغرق في ضباب الصباح المذهب :
وفي الجنوب شمخت كتلة البروز البيضاء في
نهاية الذرى المتجلدة التي تطوف بينها سحب
على صورة السباخ مهرولة من الشرق . تقدمت
حتى حافة السطح ، ونظرت الى تحت . كاد
يتأبني من ذلك دوار . لا شك ان القاع مظلم
بارد كالقبر . ان اسنان الصخور التي اقتلعتها
العواصف وهوى بها الزمن تنتظر فريستها .
كان السطح الذى يجب ان نقتل عليه
مثلا متساوى الاضلاع تقريبا . فقسنا ست
خطوات ، ابتداء من الزاوية الناتئة ، واتفقنا
على ان الذى سيتعرض لرصاص خصمه قبل
الآخر ، هو الذى سيقف عند تلك الزاوية
مديرا ظهره الى الهاوية . فاذا لم يقتل ، تبادل
الخصمان مكانيهما .

وقد قررت ان اترك لجروشنيتسكى كل
التفضيلات . كنت اريد ان امتحنه ، لعل

شراة من الاريحية تستيقظ فى نفسه ، فيتم
كل شىء على ما احب . ولكن كبرياءه وضعف
ارادته انتصرا . . . فأردت ان اكون على حق
فى ان لا اترفق به اذا رحمنى الحظ . من
ذا الذى لا يعقد مثل هذه الاتفاقات مع
ضميره ؟

هتف الرئيس :

— القرعة ، يا دكتور .

فاخرج الدكتور من جيبه قطعة من عملة
فضية واطهرها .

فسارع جروشنيتسكى يصيح كمن ايقظته ،
فجأة ، ضربة مباغته من صديق :

— طرة .

فقلت انا :

— نقش .

قذف قطعة النقود فدارت ثم سقطت على
الارض ترن فاسرع الجميع ينظرون اليها .
قلت لجروشنيتسكى :

— حظك طيب . انت اول من يطلق !

ولكن اعلم انك ان لم تقتلنى ، فسأقتك انا ،

اقسم لك .

فاحمر وجهه . انه يخجل ان يقتل رجلا
اعزل . وحدقت اليه . خيل الى في لحظة
من اللحظات انه سيرتمى على قدمي يطلب العفو
والمغفرة . ولكن كيف يعترف بخطئة بلغت هذا
المبلغ كله من الجبن والحقارة ؟ بقي له مخرج
واحد ، هو ان يطلق رصاصته في الهواء .
كنت واثقا من انه سيفعل ذلك . شيء واحد
كان يمكن ان يمنعه ، هو تصويره اني قد
اطلب لقاء آخر .

همس بي الدكتور وهو يشدني من كمي :
— ان الاوان . ان لم تقل لهم في هذه
اللحظة انك تعرف نيتهم فلن تقول ذلك لهم
ابدا . . . سيضيع كل شيء ! انظر ، انه
يشحن المسدسين . اذا لم تقل انت ، فسأتولى
انا . . .

فاجبته اقول ، وانا اصده بيدي :
— اياك . والا افسدت كل شيء . لقد
وعدتني بان تدعني اتصرف . ما الذي يهمك ؟
لعلني اريد ان اموت . . .

فنظر الى دهشا ، وقال :

— هذا شيء آخر ! . . ولكن لا تشكنى

اذن فى السماء ! . .

وفى اثناء ذلك كان الرئيس قد شحن

المسدسين ، فمد احدهما الى جروشنيتسكى وهو

يبتسم ، بعد ان همس فى اذنه بشيء ،

واعطانى الآخر .

وقفت على زاوية السطيحة ، مستندا قويا

على ساقى اليسرى فوق الصخرة ، ومائلا قليلا

الى الامام ، حتى لا اسقط فى الهاوية اذا

جرحت جرحا يسيرا .

ووقف جروشنيتسكى امامى ، حتى اذا أعطيت

الاشارة ، رفع مسدسه . كانت ركبته ترتجفان .

وصوب مسدسه الى جبهتى تماما . . .

عندئذ التهب فى نفسى حنق لا يغالب .

وفجأة ، ارخى مسدسه ، والتفت يقول

لمرافقه بصوت مختنق ، وقد امتقع وجهه

واصفر اصفرارا شديدا :

— لا استطيع .

فصاح به الرئيس :

— جبان !

وانطلقت الرصاصة ، فاصابتني بخدش عند
الركبة ، فتقدمت بضع خطوات الى امام بالرغم
منى ، كى ابتعد عن الحافة باقصى سرعة .

قال الرئيس :

<http://www.library4arab.com/vb>

— يا عزيزى جروشنيٲسكى ، لقد طاشت
رصاصتك . . . خسارة . . . وعليك انت الآن ان
تعرض للرصاص . ولكن ، عانقنى قبل ذلك ،
فلن نلتقى بعد الآن .

وتعانقا . فما اكثر ما بذل الرئيس من جهد
حتى لا ينفجر ضاحكا . واطاف يقول ، وهو
ينظر الى جروشنيٲسكى متخابثا :

— ولكن لا تخف ، فكل شىء من هذا

العالم باطل : الطبيعة حمقاء ، والقدر غيبى ،
والحياة لا تساوى شروى نقير ! . . .

حتى اذا فرغ من قول هذه العبارة التراجيدية ،
بكل ما يقتضيه الموقف من جد وورصانة ،
عاد الى مكانه . وجاء ايفان اجناتيفيتش يعانق
جروشنيٲسكى بدوره ، والدموع تترقق فى عينيه .
ان جروشنيٲسكى واقف وحده الآن امامى . لم

استطع يوما ان افسر تلك العواطف التي كانت
تغلى في صدرى ، فى تلك اللحظة . انها
الحنق الذى يولده جرح الكرامة ، انها الاحتقار
والغضب الناشئان عن التفكير فى ان هذا الرجل
الذى ينظر الىّ الآن فى ثقة واطمئنان وجرأة
هادئة ، قد اراد منذ دقيقتين ان يقتلنى كما
يُقتل الكلاب ، دون ان يعرض نفسه لاي
خطر ، ولو قد كان جرحى عند الركبة ابلغ من
ذلك لتدحرجت الى اعماق الهوة لا محالة .
وظللت اتفرس فى وجهه طويلا ، علنى
اجد فيه اثرا من آثار الندامة ، ولو يسيرا ،
ولكن بدا لى انه يحاول ان يكبت ابتسامة ،
فقلت له :

- انصحك ان تصلّى قبل ان تموت .
- لا تهتم بروحى اكثر مما اهتممت بروحك .
- اننى لا اطلب اليك الا شيئا واحدا ، هو ان
تطلق رصاصك بسرعة .
- انت ترفض اذن ان تسحب افتراءاتك ،
وان تقدم الىّ اعتذارك ؟ فكر فى الامر جيدا !
ألا يعذبك ضميرك ابدا ؟

فصاح الرئيس يقول :

— يا سيد بتشورين ، ليس شأنك هنا

ان تسمع اعترافات . . . عفوك اذا ابدت هذه

الملاحظة . . . يجب ان تنتهى باقصى سرعة ،

فلقد يمر احد في الفج فيرانا .

<http://www.library4arab.com/vb>

— طيب . يا دكتور ، تعال الى هنا . . .

فاقترب فرز منى . مسكين ! ان صفرة

وجهه اشد من صفرة وجه جروشنيتسكى منذ عشر

دقائق .

ونظقت بالكلمات التالية ، باحرف واضحة ،

وصوت عال متميز ، كما يُنطق بالحكم بالاعدام :

— يا دكتور ، لقد نسي هؤلاء السادة — من

فرط السرعة طبعا — ان يضعوا فى مسدسى

رصاصه . فارجوك ان تشحن المسدس كما ينبغي !

فصاح الرئيس :

— مستحيل ، مستحيل ! لقد شحنت

المسدسين كليهما بيدي . فاذا انزلت رصاصه

مسدسك ، فليس هذا ذنبى . وليس من حقك

ان تشحن المسدس مرة اخرى ، ليس من

حقك ذلك . . . هذا مخالف للقواعد كل

المخالفة . ولن اسمح به . . .

فقلت للرئيس :

— حسنا ، اذا كان الامر كذلك ، فسأقتل

معك على تلك الشروط نفسها .

فاضطرب .

<http://www.library4arab.com/vb>

وكان جروشنييتسكى ينتظر ، خافض الرأس :

وكان مكفهر الوجه حزينا .

وقال اخيرا للرئيس الذى كان يريد انتزاع

المسدس من يد الدكتور :

— دعهما ، فانت تعرف انهما على حق !

وحاول الرئيس عبثا ان يشير الى جروشنييتسكى ،

ولكن جروشنييتسكى كان لا يريد ان يرى شيئا .

وفى اثناء ذلك شحن الدكتور المسدس ،

واعطانيه ، فلما رأى الرئيس ذلك ، بصق

وهو يضرب الارض بقدمه ، وقال يخاطب

جروشنييتسكى :

— انت غي ، يا صديقى ، انت غي

مضاعف ! . . كان يجب ان تطيعنى ، ما

دمت قد اعتمدت علىّ . . . تستحق . . .

افطس الآن كذباة ! . .

ثم ادار ظهره ، وابتعد وهو يدمدم :
— هذا مخالف للقواعد ، مهما تقولوا . . .
قلت :

— جروشنيتسكى ، ما يزال فى الوقت متسع ،
اسحب كلامك ، اغفر لك كل شىء . لم
تستطع ان تضحك علىّ ، وقد رُدّت كرامتى
الىّ . تذكر اننا كنا صديقين . . .

فالتهب وجهه ، والتمعت عيناه ، وقال :
— اطلق الرصاص ! اننى احتقر نفسى ،
واكرهك . وان لم تقتلنى الآن ، فسأغتك ذات
ليلة . لا مكان على الارض لكلينا معا . . .
فاطلقت . . .

وحين تبدد الدخان ، لم يكن جروشنيتسكى
على السطیحة . وليس ثمة الا عمود من الغبار
ما يزال يدور عند حافة الهوة .
صرخ الجميع . وقلت لفرنر :

* Fenita la comedia!—

فلم يجب ، بل اشاح بوجهه فى ذعر .
فهزرت كتفى ، وودعت مرافقى جروشنيتسكى .

* انتهت الكوميديا !

وحيث هبطت الممر الضيق ، لمحت جثة
خصمي الدامية ، بين صخرتين ، فاغمضت
عيني ، بالرغم منى . . .

وفككت حصاني ، وعدت بخطوات بطيئة .
كنت اشعر كأن صخرة ثقيلة تجثم على صدري .
وبدت لى الشمس كايية ، ولم تدفئنى اشعتها .
وقبل ان اصل الى القرية ، انعطفت يمنا ،
الى الفج . كنت لا استطيع ان ارى احدا ،
كنت احب ان اظل وحيدا . وارخيت الاعنة ،
ومال رأسى على صدري ، وظل الحصان يسير
مدة طويلة ، حتى وصلت اخيرا الى مكان
لا اعرفه . فأدرت حصانى الى وراء ، وقفلت
راجعا . وحيث وصلت الى كيسلوفودسك ، كانت
الشمس قد مالت الى الغروب . . . وكنت منهك
القوى خائرا .

ابلغنى خادمى ان فرنر قد جاء ، ثم مد
الىّ رسالتين ، احدهما من الدكتور ، والثانية . . .
من فيرا .

ففضضت الاولى ، وقرأت فيها مايلى :
«كل شىء على ما يرام . جاءوا بالجثة

المشوهة . . . واستخرجت الرصاصة من الصدر .
والناس جميعا موقنون ان الموت كان بقضاء
وقدر . ولكن القائد ، الذى لا شك انه عرف
شيئا عن مشاجرتكما ، هز رأسه ، غير انه
لم يقل شيئا . ليس ثمة اى دليل ضدك ،
وتستطيع ان تنام هادئ البال ، اذا استطعت
. . . الى اللقاء !»

ومكثت طويلا اتردد فى فض الرسالة الثانية . . .
ماذا يمكن ان تكتب الىّ ؟ اننى لا توجس
شرا . . .

هذه هى الرسالة التى نقشت كل كلمة من
كلماتها فى ذاكرتى الى الابد :

«اكتب اليك وانا على يقين من اننا لن
نلتقى بعد الآن ابدا . حين افترقنا منذ بضع
سنين ، كنت اتصور ذلك ايضا . ولكن السماء
ارادت ان تجربنى مرة اخرى ، ولم استطع
ان اصمد للتجربة ، بل خضع قلبى الضعيف
مرة اخرى للنداء المعروف . . . لعلك لن تحتقرنى ،
على الاقل ؟ ستكون هذه الرسالة وداعا واعترافا
فى آن واحد : يجب ان ابوح لك بكل ما

تراكم فى قلبى منذ عرفتك . لا اريد اتهامك .
فقد سلكت معى كما كان يمكن ان يسلك
اى رجل آخر . احببتنى كما يحب المرء رزقا
يملكه ويستفح به ، احببتنى نبعاً من الانفعالات
والذنات والاحزان التى تتعاقب وتكون الحياة ،
بدونها ، مضجرة رتيبة . لقد فهمت ذلك منذ
البداية . . . ولكنك كنت شقياً ، وضحيت انا
بنفسى ، آملة ان تقدر تضحيتى يوماً ، وان
تفهم عاطفتى العميقة التى لا اشترط لها شيئاً .
ثم مضى على ذلك وقت طويل ، نفذت خلاله
الى جميع اسرار نفسك ، فعرفت ان املى كان
عبثاً . . . آه ما اشد ما تألمت ! ولكن حبى
كان قد مزج نفسى واتحد بها . . . فاظلم ،
ولكنه لم ينطفئ .

انا نفترق الآن فراقاً لا لقاء بعده . ولكنك
تستطيع ان تكون على يقين من اننى لن احب
فى حياتى احداً غيرك : لقد استنفدت نفسى
فى حبك كل كنوزها ودموعها وآمالها . وان
امرأة عرفتك لا تستطيع ان تنظر الى غيرك من
الرجال الا فى شىء من الاحتقار ، لا لانك

خير منهم جميعا ، لا ، لا ، بل لان فيك
شيئا ليس في غيرك ، شيئا خفيا متكبيرا . ان
في صوتك ، مهما تقل ، لقوة لا سبيل الى
مقاومتها . ما من احد يستطيع بمثل هذا

الثبات والدوام ان يفرض وجهه وان يجعل

الشر نفسه جذابا الى هذه الدرجة ، وان تعد
نظرته بكل هذه السعادة ! ما من احد يستطيع
ان يستفيد من مزاياه خيرا مما تفعل انت ،
وما من احد يبلغ من الشقاء حقا ما تبلغ ،
اذ ما من احد يحاول ، ان يقنع نفسه بخلاف
ذلك .

وبعد ، يجب ان ابسط لك سبب هذا
السفر السريع . سيبدو لك هذا السبب غير
ذى بال ، لانه لا يتعلق باحد سواى .

دخل على زوجى هذا الصباح ، وقصّ علىّ
المشاجرة التى وقعت بينك وبين جروشنيتسكى .
وكان لا بد ان يتغير وجهى ، لانه حدق الىّ
طويلا . وكاد يغمى علىّ ، اذ تصورت انك
ستقتل اليوم مع جروشنيتسكى ، وانسى
السبب فى هذا كله . خيل الىّ اننى سأجن . . .

ولكننى مطمئنة الآن ، وقد تاب الىّ رشدى ،
انك ستبقى حيا ، فمن المستحيل ان تموت
دون ان اموت انا ، مستحيل ! ظل زوجى مدة
طويلة يذرع الغرفة ذهابا وايابا ، لا اعرف على

<http://www.library4arab.com/vb>

وجه اللدقة ماذا قال لى ، ولا اذكر بـم أحبته . . .
لا بد اننى اعترفت له اننى احبك . . . لا اذكر
الآن الا انه رشقنى فى نهاية الحديث بكلمة
فظيعة ثم خرج . وسمعتة يأمر بكدن الخيل . . .

انا على النافذة منذ ثلاث ساعات ارقب عودتك .
انك حتىّ ، ولا يمكن ان تموت ! . . . بعد

قليل تكون العربة مهيأة للرحيل . وداعا ،
وداعا ! . . . لقد وضعت انا ، ولكن لا ضير . . .

ليتنى استطيع على الاقل ان اتصور انك ستظل
تذكرنى . . . لا اقول تحبنى ، لا ، بل

تذكرنى ، فحسب . وداعا . ها هم قادمون . . .
يجب ان اخفى رسالتى . . .

انت لا تحب مارى ، أليس كذلك ؟
ولن تتزوجها ؟ أليس كذلك ؟ اسمع ، قم

بهذه التضحية من اجلى ، انا التى فقدت من
اجلك كل شىء فى هذه الحياة . . .

طاش صوابي ، واصبحت كالمجنون . فاندفعت
كالسهم الى الخارج ، ووثبت على حصاني الذي
جىء به الى صحن البيت منذ لحظة ، وقذفت
به فى طريق بياتيجورسك على اقصى سرعة من
العدى . كنت استحث دانتى المتعبة بلا رحمة ،
فكانت تنخف وتزبد ، وهى تنهب بى الارض
نهباً على الطريق الحجرية .
كانت الشمس قد اختبأت وراء سحابة سوداء
على قمة الجبال . وكان الفج مظلماً رطباً .
وكان بودكوموك يتواثب على الصخور فى هدير
بهيم رتيب . وكنت اعدو سريعاً ، وانا اختنق
من نفاذ الصبر . كنت كما تصورت اننى لن
اجدها فى بياتيجورسك ، يدق قلبى كأنه مطرقة !
آه ، اريد ان اراها لحظة ، لحظة واحدة ،
ان اودعها ، ان اشد على يدها ! . . . كنت
اصلى ، واللعن ، وابكى واضحك . . . لا ،
لا شىء يمكن ان يعبر عما كنت اكابده من
غم وخوف وياس ! . . . تصورت اننى ضيعتها
الى الابد ، فغدت فى اعز عندى من اى
شىء فى العالم ! . . . غدت اعز من الحياة ،

من الشرف ، من السعادة ! الله يعلم ما
هى النوايا الجهنمية ، وما هى الافكار الجنونية
التي كانت تدور عندئذ فى رأسى ! . . وفيما
انا اضرب حصانى بلا رحمة ولا شفقة ، اذا
بى الاحظ انه يتنفس بصعوبة . وكان قد كبا

مرتين ، مع ان الارض التى كبا عليها كانت
مستوية ! . . بقى ان اقطع خمسة فرسات حتى
اصل الى أستوكى ، وهى قرية قوزاقية يمكننى
فيها ان ابدل حصانى .

كان يمكن ان يتم كل شىء على ما احب ،
لو استطاع حصانى ان يعدو مدة عشر دقائق
اخرى . ولكنه ما لبث ان سقط فجأة على
الارض ، بينما كان يصعد من واد صغير عند
مخرج الجبال فى منعطف حاد ؛ فأفلت منه
بسرعة ، وارتد ان اساعده على النهوض بشد
الاعنة ، فلم يقو على النهوض . وخرجت من
بين اسنانه المشدودة زفرة ضعيفة ، وبعد بضع
لحظات كان يلفظ انفاسه الاخيرة . كنت وحيدا ،
وسط السهوب ، قد فقدت آخر آمالى . وارتد
ان امشى فترنحت ساقاى تحتى ، فهويت على

لعشب الرطب ، وقد هدّنتى انفعالات النهار
بحطمني الارق ، واخذت اجهش بالبكاء كطفل .
وبقيت على هذه الحال ، ساكنا باكيا ،
مدة طويلة ، حتى اننى لم احاول ان اسيطر
على دموعي وان احس نجيبى ؛ وخيل اليّ ان
عدري سينفجر . . . لقد تبددت صلابتى ورباطة
جأشى كالدخان . . . كانت نفسى خائرة لا
وة لها ، وكان عقلى منطفئا ، فلو رآنى احد
ى تلك اللحظة لاشاح بوجهه عنى فى كثير
ن الاحتقار .

ولكن ندى الليل وريح الجبال ما لبثا ان
طبا رأسى المحترق ، فعادت افكارى الى مجراها
طبيعى ، ففهمت ان من العبث والطيش ورقة
نعقل ان اركض وراء سعادة زاهبة . ما عساي
شتهى ايضا ؟ ان اراها مرة ثانية ؟ ما جدوى
لك ؟ ألم يتته بيننا كل شىء ؟ ان قبلة
سغيرة فى الوداع لن تغنى ذكرياتى ، ولن
يجعل فراقنا اقل مرارة .

كان يلذ لى مع ذلك ان ارى اننى استطيع
لبكاء . ولكن لعل هياج اعصابى ، وأرقى

طوال الليلة البارحة ، وهاتين الدقيقتين اللتين
وقفت خلالهما امام مسدس مصوب الى رأسى ،
وفراغ معدتى ، لعل هذا كله هو السبب .
هيا ! . . ان كل شىء يحدث لا بد أن

يؤدى الى الأفضل كان هذا الالم الجديد .
<http://www.library4arab.com/vb>

تلهية سعيدة ، على لغة العسكريين ، ان البكاء
يفيد . ثم ، أكان يمكن ان يعرف النوم الى
جفنى سيلا ، لولا هذه الجولة على صهوة
الحصان ، ولولا اننى قطعت فى العودة مسافة
خمسة عشر فرستا سيرا على الاقدام .

وصلت الى كيسلوفودسك فى الساعة الخامسة
من الصباح ، فارتمت على سريرى ونمت كما
نام نابوليون بعد معركة واترلو .

حين استيقظت كان الظلام قد هبط ،
فجلست بالقرب من النافذة المفتوحة ، وحللت
ازرار الارخالوك الذى ارتديه . فرطب هواء الجبل
صدرى الذى لم يهدئه النوم العميق بعد فرط
الاعياء . ورأيت فى الافق البعيد ، وراء النهر ،
من خلال ذرى اشجار الزيزفون الكثيفة التى تظلمه ،
رأيت التماع انوار القرية والقلعة . كان كل شىء

فى فئائنا ساكنا هادئا . وكان الظلام فى بيت
الاميرة مطبقا .

ودخل علىّ الدكتور . انه متجهم الوجه ،
وعلى غير عادته ، لم يمد الىّ يده .

<http://www.library4arab.com/vb> اين كنت يا دكتور؟

— فى بيت الاميرة ليجوفسكايا . ان
ابنتها مريضة : نوبة عصبية . . . ولكنى لم
آت اليك لابلغك هذا النبأ . اليك الموضوع :
لقد اخذت السلطات تشبهه فى الامر ، ورغم
انه يستحيل توافر الادلة عليك ، فأنا انصحك
بان تكون على حذر . قالت لى الاميرة اليوم
انها تعلم انكما تبارزتما من اجل ابنتها . ان
ذلك العجوز — ما اسمه ؟ — قصّ عليها
كل شىء . لقد شهد مجادلتك مع جروشنيتسكى
بالمطعم . جئت اندرك بالامر . وداعا ! قد
لا نلتقى بعد الآن ابدا . من ذا الذى يعلم
الى اين يرسلونك ؟
ووقف على عتبة الباب . . . كان يود ان
يشدّ على يدي . . . ولو اننى اظهرت اى رغبة
فى ذلك ، لوثب علىّ يعانقنى . . . ولكنى

ظللت بارداً ككتلة من المرمر . . . فانصرف .
كذلك هم البشر ! انهم جميعا من طينة
واحدة : يعرفون مقدما كل الجوانب السيئة في
عمل من الاعمال . يساعدونك ، وينصحونك ،
وقد يشجعونك ، اذا رأوا انه يستحيل ان يفعلوا
غير ذلك . ولكنهم بعدئذ يغسلون ايديهم من
الامر ، وينصرفون ، مستائين ، عن الشخص
الذى تجرأ ان يتحمل كل تبعته . نعم انهم
جميعا من طينة واحدة ، لا يشذ عن ذلك
حتى احسنهم ، اذكاهم ! . . .
وفى صباح الغد تلقيت من رؤسائي امرا
بان اذهب الى قلعة ن . . . فذهبت اودع
الاميرة الام . سألتنى هل هناك امر هام جدا
اريد ان افضى اليها به ، ودهشت اشد الدهشة
حين اكتفيت بالاجابة باننى اتمنى لها السعادة ،
الى آخر ما هنالك . قالت :
— اما انا فيجب ان اتحدث اليك فى
كثير من الجدد .
فجلست صامتا .
كان واضحا انها لا تعرف من اين تبدأ . . .

وقد احمر وجهها ، واخذت تنقر المنضدة باصابعها
السمينة ، واخيرا حزمت امرها ، وقالت بصوت
متردد :

— اسمع يا سيد بتشورين . انا اعتقد

انك رجل شريف .
<http://www.library4arab.com/vb>
فانحنيت . وتابعت هي تقول :

— بل اننى لعلى يقين من ذلك ، رغم
ان سلوكك يمكن ان يثير شكوكا . ولكن قد
يكون لهذا السلوك دوافع اجهلها ، ويجب ان
تفضى الى الآن بهذه الدوافع . لقد ذبيت عن
ابنتى الافتراء ، واقتلت من اجلها ، وعرضت
اذن حياتك للخطر فى سبيلها . . . لا تجبنى . . .
اعرف انك لا تستطيع الاعتراف ، لان جروشنيتسكى
قتل (وهنا رسمت اشارة الصليب) . . . غفر
الله له ، ولك ايضا . هذا لا يخصنى .
ولست اجرؤ على ان الومك ، لان ابنتى كانت
هى السبب ، ولو ببراءة . . . لقد قصت على
كل شئ ، نعم كل شئ ، او هذا ما أرجوه على
الاقل . اعرف انك صارحتها بحبك ، وانها صارحتك
بحبها (وهنا زفرت الاميرة زفرة عميقة) . ولكنها مريضة ،

وانا على يقين من ان الامر ليس مرضا فحسب .
ان حزنا خفيا يقتلها . واعتقد انك انت السبب ،
رغم انها لم تعترف لى بذلك . اسمع . ربما
تعتقد اننى ابحت عن الرتب والثروة . انت
مخطئ . اننى لا اريد لابنتى غير السعادة .
ليس مركزك ، الآن ، بالمركز الذى يحسد عليه
الانسان كثيرا . ولكن كل شىء يمكن ان
يدبر . انت صاحب ثروة ، وابنتى تحبك ،
ولقد نشئت تنشئة تجعلها اهلا لاسعاد زوجها .
وانا غنية ، وليس لى غيرها تكلم افض
الىّ بما يجعلك تحجم . ما كان ينبغي ان
اقول لك كل هذا . ولكننى اعتمد على قلبك ،
على شرفك . تذكر انه ليس لى غير ابنتى ،
ليس لى غيرها
وأخذت تبكى . قلت لها :

— ايتها الاميرة ، لا استطيع ان اجيبك ،
واسمحي لى بان اتحدث الى ابنتك على انفراد
فصاحت وهى تنهض مضطربة اشد الاضطراب :
— مستحيل !
فاجبتها وانا انهض ايضا :

— كما تريدین .

ففكرت لحظة ، ثم اشارت الى بيدها ان
انتظر قليلا ، وخرجت .

انقضى على خروجها خمس دقائق . كان
قلبي يخفق خفقانا شديدا ، ولكن فكرى كان
هادئا ، وكان راسى باردا . عبتا حاولت ان
اعثر فى اعماق نفسى على ومضة من حب لمارى
الناعمة .

وفتح الباب فجأة ، فاذا هى تدخل .
رياه ! لشد ما تغيرت منذ التقينا آخر مرة . . .
والفترة وجيزة جدا .

فلما وصلت الى وسط الغرفة ، ترنحت ،
فسارعت اسندها بذراعى ، وقدها الى المقعد .
كنت واقفا امامها . وساد الصمت برهة
طويلة . كانت عيناها تفيضان بحزن لا يوصف
وكأنهما تحاولان ان تبحثا فى عينى عن بارقة
من امل . وكانت شفثاها الشاحبتان تحاولان
عبثا ان تبسما . وكانت يداها الدقيقتان المتشابكتان
على ركبتيها قد بلغتا من النحول والهزال حتى ان
قلبي انقبض حين رأيتهما اشد الانقباض . قلت لها :

— ايتها الاميرة ، هل تعرفين اننى كنت
اعبث بك ؟ عليك اذن ان تحتقرينى .
فتصاعدت الى خديها حمرة من مرض .
واستمرت اقول :

— ولا يمكنك ان تحبينى . . .
<http://www.library4arab.com/vb>
فاشاحت بوجهها ، وتوكت على المنضدة ،
ووضعت يدها على عينيها اللتين تراءى لى ان
فيهما دموعا ، وقالت بصوت يكاد يكون منطفئا :
— يا رب !

لا يكاد يستطيع الانسان ان يقاوم هذا
المنظر ، اوشكت ان ارتمى على قدميها ،
ولكننى تجلدت ، واستأنفت اقول ، بصوت
اردت ان يكون ثابتا ، مع ابتسامة حملت نفسى
عليها حملا :

— وهكذا ترين انت نفسك اننى لا استطيع
ان اتزوجك . واذا انت رغبت فى ذلك الآن ،
فلن تلبثى ان تندمى عليه اشد الندامة . ان
الحديث الذى دار بينى وبين امك ، يضطرنى
الى ان اخاطبك هكذا بصراحة وقسوة . آمل ان
تكون امك على خطأ ، وسيسهل عليك ان

تبددى وهمها . اننى امثل فى نظرك دورا حقيرا ،
دورا سافلا ، وانى لاعترف بذلك . وهذا كل ما
استطيع ان افعله من اجلك . سأسلم بكل ما
قد ترينه فى من رأى . هانت ذى ترين كم
كان سلوكى معك بشعا كريها . . . وهبك احببتنى ،
فلا بد ان تحتقرينى الآن .

فالتفت الىّ ، صفراء كقطعة من المرمر ،
وكانت عيناها وحدهما تلتمعان ، وقالت :
— اكرهك . . .

فشكرت لها قولها ، واستأذنتها بالانصراف ،
بعد ان حيتها فى كثير من الاحترام .
وبعد ساعة من الزمن كانت عربة البريد
تمضى بى بعيدا عن كيسلوفودسك . وعلى مسافة
بضعة فرسات من إستوكى ، رأيت جثة حصانى
المقدام . كان سرجه قد انتزع من صهوته ،
اخذه قوزاقى من غير ريب ؛ وعلى ظهره ،
فى مكان السرج ، حطّ غرابان . فاشحت
بوجهى ، وانا ازفر زفرة حرّى . . .
والآن ، فى هذه القلعة التى اشعر فيها
بالضجر والسامة ، واستعرض صور الماضى واتساءل

فى كثير من الاحيان لماذا رفضت ان ادخل
فى الطريق التى فتحها لى القدر والتى كان يمكن
ان اعرف فيها افراحا عذبة ، وان اجد فيها
طمأنينة الروح ؟ . . لا ، لا ، اننى لم اخلق

<http://www.library4arab.com/vb>

ظهر مركب من مراكب القرصان . . . الف العواصف
والمعارك . فاذا القى الى الشاطئ ، شعر بالضجر
والسامة ، لا تغريه الواحات الظليلة ولا الشمس
الساطعة . انه يظل طوال النهار يضرب هنا
وهناك على رمل الشاطئ . يصبح بسمعه الى
خرير الامواج الرتيب ، ويغرق بصره فى الآفاق
البعيدة ذات الضباب الكثيف : ترى أن يلمح
اخيرا ، على الخط الشاحب الذى يفصل الهوة
اللازوردية عن السحب الشهباء ، الشراع الذى
طالما اشتهاه ، شبيها بجناح النورس البحرى
فى اول الامر ، متخلصا من الزبد شيئا فشيئا بعد
ذلك ، مقتربا من المرفأ المقفر ثابت السير ؟ . .

الجبرى

اتفقنا أن مرة ان قضيت اسويين في قرية

قوزاقية في الجناح الايسر . كانت ترابط هناك
كتيبة من المشاة ، وكان الضباط يجتمعون يوما
عند هذا ويوما عند ذلك ، ويقضون السهرة في
لعب الورق .

وضفنا ذات يوم ذرعا بالبوستوني ، فرمينا
بالورق تحت المنضدة ، وبقينا نتحدث مدة
طويلة جدا في بيت الضابط المقدم س . . .
كان الحديث ، على خلاف العادة من امتع
الاحاديث . كانوا يقولون ان العقيدة الاسلامية
التي ترى ان قدر الانسان قد كتب عليه في
اللوح المحفوظ ، تجد بيننا نحن المسيحيين
كثيرا من الانصار . واخذ كل واحد يقص حالات
عجيبة ، في تأييد هذه العقيدة او في انكارها .
قال المقدم العجوز :

— كل هذا ، ايها السادة ، لا يبرهن

على اى شيء اذا ما من واحد منكم
شهد الحالات الغريبة التي يسوقها في تأييد
رأيه أليس كذلك ؟

فقال معظمهم :

نعم لم نشاهد ذلك ولكن الذين قصروا

علينا ثقات يطمأن الى صدقهم .

فقال احدهم :

— هذا كلام فارغ . اين هم اولئك
الثقات الذين رأوا اللوح المحفوظ الذي كتب
عليه اجلنا ؟ واذا صح ان الانسان مسير
لا مخير ، فلماذا أوتينا ارادة وعقلا ؟ ولماذا
نُسال عن افعالنا ؟

عندئذ نهض ضابط كان جالسا في ركن
من الغرفة ، وتقدم ببطء نحو المنضدة ، ولقى
حواله نظرة هادئة فخمة في آن واحد . انه
صربى ، كما يدل على ذلك اسمه .

كان مظهر الملازم الاول فولتس منسجما مع
طبعه . ان قامته القارعة ، ووجهه الاسمر ،
وشعره الاسود ، ثم ان عينيه النافذتين والسوداوين
ايضا ، وانفه الكبير على استقامة ، كأنوف سائر

ابناء قومه ، وابتسامته الحزينة الباردة التي تطوف
على شفثيه دائما ، ان ذلك كله كان يسهم
فى ان يسبغ عليه طابع انسان غريب فريد ،
عاجز عن نقل افكاره واهوائه الى هؤلاء الذين

جعلهم القدر رفاقه .
<http://www.library4arab.com/vb>

كان شهما ، يتكلم قليلا ، ولكنه اذا
تكلم فبلهجة قاطعة جازمة . وكان لا يفضى الى
احد باسرار اسرته ، ولا باسرار نفسه . وكان
لا يكاد يشرب خمرا ، وكان لا يتودد الى
الفتيات القوزاقيات (اللواتى يصعب على المرء
ان يتصور ما لهن من فتنة ما لم يرهن) ولا
يغازلهن . ومع ذلك فكان يقال ان زوجة الكولونيل
لم تكن غير مبالية بعينه اللتين تفيضان بالتعبير ،
ولكنه كان يستاء اذا أوماً احد الى ذلك ،
بل كان يستاء من هذا شديدا .

والهوى الوحيد الذى كان لا يخفيه ، هو ميله
الى اللعب . كان ينسى امام المائدة الخضراء كل
شئ . وكان فى معظم الاحوال يخسر ولا
يربح . ولكن خسارته المستمرة كانت لا تزيد
الا عنادا . ويروى انه ذات ليلة ، ابان حملة

من الحملات ، كان هو الخازن ، وكان يواتيه
الحظ مواتاة عجيبة ، وهو متكئ على مخدته ،
فاذا بصوت رصاص يلعلع على حين غرة ،
فاطلقت اشارة الخطر . وهب جميع اللاعبين ،
يتناولون اسلحتهم . ولكن فولتش صاح بواحد
من اشد هم حماسة يقول : «كل المبلغ» .
فاجابه هذا وهو يخرج مسرعا ، «سبعة» . فاخذ
فولتش يكمل اللعب ، بينما الناس في هذا
الاضطراب الشامل .

حتى اذا ظهر اخيرا في الجبهة ، كانت
قد احتدمت المعركة ، ولكن فولتش لم يحفل
لا برصاص التشتشينين ولا باسيافهم ، بل كان
يبحث عن منافسه المحظوظ ، حتى اذا لمح
بين الرماة الذين اخذوا يجلون العدو عن غابة
من الغابات ، صاح به يقول :

— السبعة ربحت !

ثم اقترب منه ، واخرج المال ، ومدّه
الى الرابع السعيد ، وعبثا احتج هذا بان المكان
ليس مكان سداد الديون . فلما فرغ من القيام
بهذا الواجب الذى لا يسرّ كثيرا اندفع الى امام ،

فاقتدى به الجنود ، وظل الى نهاية المعركة
يحارب التشتيين في رباطة جأش عظيمة .
حين اقترب الملازم الاول فولتش من المنضدة ،
صمت جميع الناس ، وتوقعوا ان يسمعو شيئا
عجيبا . قال (وكان صوته هادئا ، وانخفض نبرة
مما عهد فيه) :

— ايها السادة ، هذه مناقشات عقيمة ،
هل ادلكم على حجج تقنع ؟ اذن جربوا
على انفسكم ، لتعرفوا هل يصرف الانسان
حياته على ما يشاء ، ام انه اذا جاء اجله لا
يستقدم ساعة ولا يستأخر ؟ من يريد ان يجرب ؟
فتعالى الصياح من كل صوب يقول :

— لست أنا ، لست أنا ، على كل حال !

ما هذه الفكرة الغريبة ؟ !

فقلت على سبيل المزاح :

— اقترح ان نتراهن !

— على ماذا ؟

— على انه لا قدر هناك !

قلت ذلك ، والقيت على المنضدة بمائتي

روبل وهي كل ما املك .

فاجاب فولتش بصوت اصم يقول :
— قبت . سيدى المقدم ، انت الحكم .
هذه مائة وخمسون روبلا اسمح لى ان اصم
اليها الخمسين روبلا التى تدين بها لى .

<http://www.library4arab.com/vb> مقال المقدم

— هذا حسن . ولكننى لم افهم ما هو
الموضوع ، ولا كيف ستحسمون المشكلة .
وهنا ذهب فولتش الى مخدع المقدم ،
دون ان يقول كلمة واحدة . فتبعناه ، وتقدم
من الجدار الذى علق عليه السلاح ، فانتزع
منه احد المسدسات على غير اختيار . لم نفهم
ماذا يريد ان يعمل ، ولكنه ازاح الزناد ، وسكب
فى المسدس بارودا . صاح به كثير منا ،
وامسكوا بذراعيه ، يقولون :

— ماذا تريد ان تعمل ؟ هذا جنون ! . .

فاجاب يقول ببطء ، وهو يسحب ذراعيه :
— ايها السادة ، من منكم يدفع عنى

عشرين روبلا ؟

فصمتوا جميعا وتراجعوا .

فعاد الى الغرفة الاولى ، وجلس الى المنضدة .

كانوا جميعا يتبعونه . فدعانا الى الجلوس ،
فاطعناه جميعا صامتين : لقد سيطر علينا في
هذه اللحظة سيطرة خفية . كنت احلق في
عينه . ولكنه قابل نظرتي المتفرسة بهدوء وسكون ،

واصمت . ثم انقلب على النحر .

رباطة جأشه ، لاح لى فى وجهه الاصفر
كالشمع ، طيف الموت . لقد لاحظت ان
الانسان كثيرا ما يرى طابع الموت فى وجه
شخص سيموت بعد بضع ساعات ، وقد أكد
لى ذلك اكثر من واحد من العسكريين الشيوخ . . .
ان الوجه يكتسى عندئذ خاتم قدر لا مفر منه ،
وقلما تخطى العيون البصيرة فى تقدير هذا .
قلت له :

— ستموت اليوم !

فالتفت الى بسرعة ، ولكنه اجابنى بهدوء

وبطء :

— ربما اموت ، وربما لا اموت . . .

ثم سأل المقدم :

— هل هذا المسدس مشحون ؟

ولكن المقدم من فرط اضطرابه ، لم يتذكر . . .

وصاح احدهم :
— كفى يا فولتس ، كفى ، لا بد انه
مشحون ما دام علق فوق السرير ، يا لهذه
الطريقة العجيبة في المزاح !

<http://www.library4arab.com/vb>

— انه مزاح غبي !
وصاح ثالث :
— اراهن على خمسين روبلا مقابل خمسة ،
ان هذا المسدس ليس مشحونا !
وتكاثرت الرهانات ، واضجرتني هذا الاحتفال
كله ، فقلت لفولتس :

— اسمع ، اما ان تحطم رأسك ، واما
ان تضع المسدس جانبا ، فتمضي ننام .
فصاحت اصوات كثيرة تقول :

— نعم ، هو ذلك سنمضي الى النوم .
— ايها السادة ، ارجوكم ان لا تتحركوا ! —
قال فولتس هذا ، ووضع فوهة المسدس على
صدغه .

فجمدوا جميعا . واضاف يقول :
— سيد بشورين : خذ ورقة من اوراق

اللعب ، وارمها في الهواء .

فتناولت من على المنضدة — ما ازال اذكر
هذا كأنه يقع الآن — ورقة آس كوية ، وقذفت
بها في الهواء . تقطعت انفاس الجميع ،

كنت نذاتهم التي تنبئ عن الحوف والاستطلاع

في آن واحد ، تنقل سريعة بين المسدس
والورقة . وكانت الورقة تهبط وهي ترتعش .
حتى اذا لامست المنضدة شد فولتس زناد
المسدس . . . لم تخرج الطلقة ! . . .

فصاحوا يقولون :

— الحمد لله ! على ان المسدس لم يكن

مشحونا . . .

فقال فولتس :

—

حرك الزناد ، ثم صوب الى قبعة كانت
متدلية فوق النافذة ، فاذا بصوت الطلقة يدوي ،
واذا بالدخان يملأ الغرفة ، حتى اذا تبدد
الدخان نظرنا الى القبعة فاذا بالرصاص قد
ثقيتها في وسطها تماما ، ثم خرجت منها
فنفذت في الحائط نفاذا عميقا .

وانقضت ثلاث دقائق ، دون ان يبس احد
بكلمة . وتناول فولتس زوبلاتي المائتين قدسها
في محفظته بهدوء .

واحتدمت المناقشة بعد ذلك : لماذا لم
تخرج الطلقة في المرة الاولى ؟ قال بعضهم :
ان الحويض كان مسدودا ، وقال آخرون بصوت
خافت : بل لقد كان البارود في اول الامر
رطبا ، ثم وضع فولتس بارودا جديدا . فاكدت
ان هذا الافتراض الاخير باطل ، لانني لم
احول بصرى عن المسدس لحظة واحدة . وقلت
لفولتس :

— انت محظوظ في اللعب !
قال وهو يتسم ابتسامة الرضى :
— لاول مرة في حياتي . . . هذا خير من
لعب جميع انواع البكارا وغيرها . . .
قلت :

— ولكنه اخطر منها قليلا .
قال :
— هل بدأت تؤمن بالقدر ؟
— نعم ، ولكنني اتساءل لماذا لاح لى

انك ميت اليوم لا محالة .
وفي هذه اللحظة رأيت هذا الرجل الذي
كان منذ قليل يضع فوهة المسدس على صدغه
هادئا ، يحمر فجأة ويضطرب .

قال وهو ينهض :
— كفى ! لقد انتهى الرهان . وملاحظاتكم

تبدو لي الآن في غير محلها . . .
وتناول قبعته وخرج . لقد بدا لي ذلك
غريبا ، ولا عجب ! . . .

وسرعان ما افترقنا ؛ فذهب كل منا الى
بيته ، ويؤول نزوات فولتس على طريقته ؛ ولعلمهم
اتهموني جميعا بالانانية ، لانني راهنت شخصا
هم ان يقتل نفسه . . . كأنه لا يستطيع ان
يجد ، بدوني ، فرصة مناسبة .

كنت عائدا الى بيتي امر بطرقات القرية
المخالية من الناس ، وكان القمر بدرا متوقدا قد
اخذ يطلع في الافق بنور كأنه نور حريق ؛
وكانت النجوم تتألق هادئة في القبة الزرقاء الضاربة
الى سواد . لم استطع ان احبس نفسي عن
الابتسام حين تذكرت ان قدماء الحكماء كانوا

يتصورون ان الكواكب تهتم بخصوصيات البشر التافهة
على قطعة من الارض او على حقوق موهومة .
ان هذه المصاييح التي كانوا يظنون انها انما
تشتعل لتتير ما يدور بينهم من خصومات ، وما
يحققونه من الوان النصر ما تزال مع ذلك تضيء
ببريق لم يتغير ، مع ان امالهم ، واهواءهم قد
انطفأت معهم ، كمنار اوقدها عند طرف الغاية
مسافر من المسافرين عابر لا يبالي ! ولكن ما
كان اقوى تلك العزيمة التي يمدهم بها ذلك
الاعتقاد بان السماء كلها ومن فيها من سكان لا
يحصي عددهم تنظر اليهم في اهتمام اخرس
ولكنه لا يحول ولا يزول . في حين اننا نحن ،
نحن اعقابهم الذين نستحق الشفقة والرثاء ،
الذين نضرب في الارض بلا عقيدة ولا كبرياء ،
بلا لذة ولا خوف ، الا الذعر الذي يقبض
صدورتنا ولا نستطيع له دفعا ، حين نتصور
اننا صائرون الى الموت لا محالة ، اما نحن
هؤلاء فقد اصبحنا عاجزين عن ان نقدم اية
تضحية كبيرة ، لا في سبيل خير الانسانية ،
ولا في سبيل سعادتنا ذاتها ، لاننا نعرف ان

السعادة مستحيلة ، وما نفك نتقل من شك
الى شك لا نلوي على شيء ، كما كان اسلافنا
ينتقلون من وهم الى وهم ؛ اننا لا نملك ما
كانوا يملكون من رجاء ، ولا ما كانوا يحسونه من
فرح لا يمكن تعريفه ، ولكنه فرح قوي يشعر
به النفس حين تناضل ضد البشر او ضد القدر . . .
وراودتني افكار اخرى من هذا القبيل .
ولكنني لم اتلبث عليها ، لانني لا احب ان
اثقل على نفسي بفكرة مجردة ؛ وما عسى ان
يتتج هذا كله ؟ كنت في حدائتي فتى حالما ،
احب ان اداعب الصور الجهمة او الضاحكة التي
يرسمها خيالي القلق الشره ، كنت اداعب
هذه الصور واحدة بعد اخرى ، ولكن ماذا
بقي لي من هذا كله ؟ لا شيء ، الا تعب يشبه التعب
الذي يعقب معركة مع شبح والا ذكرى مشوشة
تفيض بالحسرات . لقد اقيت في ذلك الصراع
العقيم ، حرارة الروح وثبات الارادة ، وكلاهما
ضروري جدا لحياة الفعل والنشاط . وحين دخلت
هذه الحياة التي سبق ان عشتها بالفكر ، شعرت
بالضجر ، وشعرت بما يشعر به من اشمئزاز

شخص يقرأ تقليدا سيئا لكتاب يعرفه منذ
مدة طويلة .
لقد تركت في نفسي حادثة هذه الليلة أثرا
قويا ، وأهاجت اعصابي . لست أدري هل
أومن اليوم بالقدوس ولكنني آمنت به في ذلك
المساء إيمانا قويا ، إذ كان البرهان عليه برهانا
دامغا . كنت وأنا أسخر من أسلافنا ومن تنجيهم
المضحك ، أسير على غير إرادة مني في أثرهم .
ولكنني توقفت في هذه الطريق الخطرة في اللحظة
المناسبة ، إذ لما كان من مبدئي ان لا أجد
شيئا من الأشياء جحودا مطلقا ولا ان أومن
بشيء من الأشياء إيمانا اعمى ، فقد تركت
الميتافيزيقا جانبا ، ونظرت بين قدمي . وجاء
هذا الاحتراس في حينه تماما ، إذ أنني أوشكت
ان اقع على الأرض مصطدما بشيء ضخم رخو ،
ولكن لا حياة فيه . فالتحيت انظر ما هذا ،
وكان القمر بضياء الطريق ، فاذا انا ارى خنزيرا
أليفا قد شطر شطرين بضربة من سيف . . . وما
كدت اعرف هذا حتى سمعت وقع خطوات ،
ورأت قوزاقين يخرجان من زقاق آخر ، فيقبل

احدهما نحوى ويسألنى هل رأيت قوزاقيا سكران
يلاحق خنزيرا . فقلت اننى لم اصادف قوزاقيا ،
ولكننى اشرت الى الضحية الشقية التى ذهبت
بها شجاعته .

<http://www.library4arab.com/vb>

قال الآخر :
— هذا اللص ! انه متى شرب خمرا ،
ضرب بسيفه كل ما يصادف . هيا بنا سريعا
يا ييرميثش ، يجب ان نقبض عليه ، يجب
ان نقيده ، والا
وابتعدا ، فتابعت سيرى بمزيد من الحذر .
ووصلت اخيرا الى منزلى دون ان يقع لى حادث
آخر .

كنت اسكن فى بيت عجوز برتبة وكيل
ضابط ، وكنت احب العجوز لرقه حاشيته ،
ولجمال ابنته الحسناء ناستيا ، بوجه خاص .
وجدتها ، على عاداتها ، تنتظرنى على باب
الحديقة ، متدثرة بردائها المبطن بالفرو . وكان
القمر يضىء شفيتها الصغيرتين الشهيتين اللتين
ازرقتا قليلا من البرد . فلما رأتنى ابتسمت ،
ولكننى لم احفل بها كثيرا فى تلك اللحظة .

فقلت لها ، وانا أمر بالقرب منها :

— ليلتك سعيدة يا ناستيا .

وارادت ان تجيب ، ولكنها لم تزد على ان

تنهدت .

واغلقت باب غرفتي ورائي ، واشعلت شمعة ،

ثم ارتيمت على سريري . . . وانتظرت النوم في

هذه المرة أكثر مما كنت انتظره في كل مرة .

وحين غفوت كان المشرق قد اخذ يبيض ،

ولكن لا شك انه كذب عليّ ألا انام في تلك

الليلة ، ففي الساعة الرابعة من الصباح طرقت

نافذتي ضربات قوية من قبضتين ، فنهضت فورا

أتساءل ماذا هنالك ؟

— انهض ، البس ثيابك !

فدسست ثيابي بسرعة وخرجت .

فبادرنى ثلاثة من الضباط يسألونني بصوت

واحد ، وقد امتنعت وجوههم حتى وكأنهم موتى :

— هل تدري ماذا وقع ؟

— ماذا ؟

— قُتل فولتس .

فلم أكد اصدق ما اسمع . وأردفوا يقولون :

— نعم ، قتل ! تعال اسرع .

— ولكن الى اين نذهب ؟

— ستعرف ذلك اثناء الطريق .

ومضينا ، فقصوا على كل شيء ، ولم

ينسوا ان يشيروا الى ذلك القدر الذي انقذه من موت محقق ، قبل موته بنصف ساعة . كان

فولتس يسير وحده في الشوارع المظلمة . فالتقى

بالقوزاقي السكران الذي شطر الخنزير شطرين ،

والذي كان يمكن ان يمر دون ان ينتبه الى

فولتس ، لو لا ان فولتس توقف فجأة وسأله :

— «عمن تبحث يا صاحبي ؟» فاجابه

القوزاقي ، وهو يضربه بسيفه ويشطره شطرين

من الكتف الى ناحية القلب ، قائلاً : «عنك !»

وفي غضون ذلك وصل القوزاقيان اللذان صادفاني

وكانا يلاحقان القاتل ، فحملا الجريح ، ولكنه

كان يلفظ انفاسه الاخيرة ، ولم يستطع ان

يقول الا هذه الكلمات : «كان على حق !»

لقد فهمت وحدي هذا المعنى الغامض الذي

تشتمل عليه هذه الكلمات : كانت تعينني انا .

فلقد تنبأت للمسكين بمصيره ، من غير ان

اريد ذلك . لم تخدعني غريزتي . ان ما قرأته
في وجهه كان حقا نذير موت قريب .

كان القاتل قد اعتصم بيت خال عند
طرف القرية . والى هناك ذهبنا . رأينا نساء

كثيرات يمررن على تلك الجهة . وهن

يتأوهن ويصدرن انات . من حين الى آخر ،

يندفع في الشارع قوزاق متخلف عنا يضع

خنجره في حزامه بسرعة ، ويتقدمنا راكضا .

لقد بلغ الاضطراب اقصاه .

ووصلنا أخيرا . كان حول البيت جمهور

كبير ، وكانت الابواب والنوافذ موصدة من الداخل .

وكان الضباط والقوزاق يتناقشون ويتجادلون بعنف ،

وكانت النساء يصدرن انات ، وتأوهن ، ويشجن .

ورأيت بينهن وجها خطف بصرى خاصة ، هو

وجه امرأة عجوز تعبر عن اشد اليأس واعمقه .

كانت جالسة على خشبة كبيرة ، وقد وضعت

كوعبها على ركبتيها ، واسندت رأسها الى يديها .

انها ام القاتل . وكانت شفقاها تتحركان من حين

الى حين . . . ترى أهي ترفع الدعوات ام

تستنزل اللعنات ؟

كان لا بد من ان نقرر الشروع في عمل
للقبض على القاتل . ولكن لم يجسر احد ان
يندفع اول المندفعين .

فاقتربت من النافذة ، ونظرت من شق
مصراعها . كان الرجل متمددا على الارض ،

شديد الشحوب . وكان يمسك بيده اليمنى مسددا .
وكان سيفه الدامي يرقد على مقربة منه . كان

يدير عينيه على نحو مرعب . وكان في بعض
اللحظات يرتعش ، ويمسك رأسه بيديه ،

كأنه يتذكر ما وقع تذكر غامضا . ولم اقرأ
في هذه النظرة القلقة معنى من معاني العزم

القوى ، فقلت للمقدم : انه من الخطأ ان
لا يلقي اوامر الى القوزاق باقتحام الباب والاسراع

الى الداخل ، فلأن يفعل ذلك الآن خير من
ان يفعله حين يعود الى الرجل كامل وعيه .

وفي هذه اللحظة ، تقدم من الباب ايضا
عجوز ، ونادى الرجل باسمه ، فاجابه الآخر ،

فاستمر يقول :

« هو في الجيش الروسي القديم ضابط قوزاقي يعادل برتبة
الرئيس في المشاة . »

— يا يفيميش ، يا صديقي ، لقد
اخطأت ، ولا مهرب الآن ، سلم نفسك !
فاجابه القوزاقي :

— لن استسلم !

كافرا . . . انت مسيحي . لقد أمت . ماذا
تريد ؟ ان الانسان لا يستطيع ان يتحاشى ما
كتب عليه !

فكرر القوزاقي يقول بلهجة متوعدة :

— لن استسلم !

وسمعت قرقة زناد المسدس يفتح .
فقال الايضاول ، متجها الى المرأة العجوز :

— انت يا امه . كلميه قليلا ، فلعله

يطيعك . . . ان لم يسلم فسيغضب الله .
فكرى قليلا . ان هؤلاء السادة ينتظرون هنا منذ
ساعتين .

فحدقت اليه طويلا ، وهزّت رأسها .

فاقترب الايضاول من المقدم ، وقال له :

— يا فاسيلي بتروفيتش ، لن يسلم نفسه ،

اننى اعرفه . هيا بنا . ولكن اذا اقتحمنا

الباب ، فسقط قتلى . أليس من الأفضل
ان نقتله بطلقة بندقية ؟ ان فى النافذة شقا
واسعا .

عندئذ حضرت بيالى فكرة غريبة :
اردت كقولتى ان اجرب قذرى . فقلت للمسلم

— انتظروا ، ساتيكم به حيا .
ثم امرت الايضاول ان يشغله بالحديث ،
وامرت ثلاثة من القوزاق ان يستعدوا لان يفتحوا
الباب وان يهبوا الى مساعدتى عند الاشارة المتفق
عليها ، ودرت حول البيت ، حتى وصلت الى
النافذة المعينة . ان قلبى ليخفق خفقانا شديدا .

كان الايضاول يصيح به :
— انتظر قليلا ايها الكافر ! أتعبت بنا ؟
ام تظن اننا لا نستطيع ان نتغلب عليك ؟
وأخذ يضرب الباب بكل ما أوتى من قوة .
وضعت عينى على شق النافذة ، واخذت ارقب
حركات القاتل الذى كان لا يتوقع ان يهاجم
من هذه الجهة . ثم خلعت المصراع على حين
غرة ووثبت من النافذة ، ورأسى الى الامام .
فانفجرت طلقة تحت اذنى ، فاقتلعت الرصاصه

الشارة التي على كفتي ، ولكن الدخان الذي
ملا الغرفة ، حال بين خصمي وبين العثور
على سيفه الذي كان يرقد على مقربة منه .
فامسكت يديه ، ودخل القوزاق ، وبعد دقائق
ثلاث كان مكلا يتقاد تحت حراسة وشادة .
وتفرق الجمهور ، وهنأني الضباط ؛ حقا لقد
كنت استحقq النهاية .

كيف لا اصبح بعد هذا جبريا أو من بالقدر ؟
ولكن هل يمكن ان يكون المرء على يقين من
انه مؤمن باى شيء من الاشياء ؟ . . . كم مرة
آمنا بأمور هي خطأ من اخطاء الحواس ، او
ضلال من ضلالات العقل ؟ . . . احب ان
اشك في كل شيء . وهذا لا يمنع المرء من
ان يكون ذا طبع حازم ، بالعكس . انى
حين اجهل ما ينتظرني ، اقدم على الفعل دوما
بجسارة اكبر . اذ لا يمكن ان يقع لى ما هو شر
من الموت ، والموت لا بد منه فى يوم من الايام .
حين عدت الى القلعة قصصت على مكسيم
مكسيمتش كل ما وقع لى ، وكل ما شهدته ،
وكنت اريد ان اعرف رأيه فى المقدر ، فلم

يفهم هذه الكلمة ، فشرحت له معناها ما
وسعى الشرح ، فقال لى وهو يهز رأسه
فى كثير من الجد والوقار :

— هيه . . . هذا أمر معقد جدا ! . . . على

ان هذه الاسلحة التى يستعملها الاسبريون كثيرا
ما لا تخرج طلقاتها ، اذا لم تشحم تشحيمًا
كافيا ، او اذا لم يشد المرء الزناد بقوة كافية .
واعترف اننى لا احب البندقيات الشركسية ،
فهذه الاسلحة لم تخلق لنا . ان قنداقها صغير
جدا ، حتى ان احدنا يكون معرضا دائما لان
يحرق انفه حين استعمالها . . . اما سيوفهم ،
فحدث عنها ولا حرج !

ثم اضاف بعد بضع لحظات من التفكير :
— نعم ، اننى ارثى لذلك المسكين . . . ولكن
لماذا التحدث مع سكران فى ظلام الليل البهيم ؟
لا بد من الاعتقاد ان هذا كله قد كتب له ! . . .
ذلكم كل ما استطعت ان اسمعه من الرئيس :
انه لا يجب المناقشات الميتافيزيقية .

النهاية

<http://www.library4arab.com/vb>

رواية ليرمونتوف «بطل من هذا الزمان»

بقلم إراكلي اندرونيكوف

في مايو (أيار) ١٨٤٠ ظهرت في المكتبات
واكشاك الكتب بمدينة بطرسبورغ رواية «بطل من
هذا الزمان» لمؤلفها الشاعر ميخائيل ليرمونتوف
البالغ من العمر آنذاك خمسة وعشرين عاما
والذي جلبت له اشعاره الرائعة شهرة واسعة .
حظى الكتاب الجديد برواج سريع للغاية .
فقد كان الجميع راغبين في التعرف على الشخص
الذي نعتة الكاتب ببطل زمانه . ان الابطال
يحتذى بهم ويعتبرون قدوة للآخرين . . . ولذا
اثار عنوان الرواية اهتماما هائلا .
والكتاب عبارة عن رواية فريدة من حيث

الشكل : فهو يتكون من خمس قصص . نشرت
ثلاث منها قبل ذلك في المجلة التقديمية
«اوتيشستفينيه زايسكي» . ولكن القراء الذين
طالعوها على حدة لم يخمّنوا انها ، اذا اخذت
معاً ، تشكل وحدة متكاملة . فالبطل الرئيسي
في القصص الثلاث هو شخصية واحدة ، انه
الضابط بتشورين الذي ارسل قسراً الى الجيش
القفقاسي .

وقد وزعت فصول الرواية : «بيلا» و«مكسيم
مكسيمتش» و«تامان» و«الاميرة ماري» و«الجبري»
ليس حسب التسلسل الزمني . فالاحداث التي
يعرضها ليرمونتوف في القسم الثاني تسبق احداث
القسم الاول . واذا رتبنا القصص حسب اطوار
حياة البطل نحصل على اللوحة التالية : (١)
يتوقف بتشورين في تامان («تامان») وهو في
طريقه الى مكان خدمته في القفقاس . (٢) بعد
المساهمة في حملة حربية يتوجه بتشورين للاصطياف
حيث يعيش في ياتيغورسك وكيسلوفودسك فيقتل
جروشنيتسكي في مبارزة («الاميرة ماري») . (٣)
بسبب هذه المبارزة ينقل بتشورين الى قلعة في

الجناح الايسر «الخط القفقاس» تحت اشراف الضابط العجوز مكسيم مكسيمتش («بيلا» . ٤) يغادر بتشورين القلعة لمدة اسبوعين الى قرية قوزاقية حيث يتراهن مع فولتش («الجبرى» . ٥) بعد خمس سنوات تقابل بتشورين مع مكسيم مكسيمتش في فلاديفقاس في طريقه الى بلاد فارس («مكسيم مكسيمتش» . ٦) في طريق العودة من بلاد فارس يقضى بتشورين نحيبه (مقدمة «يوميات بتشورين» .

لقد تخلى ليرمونتوف عن توزيع القصص على هذا النحو ، فصور بتشورين في البداية كما يراه شخص من فئة اجتماعية مغايرة له تماما ، ونعنى الضابط العجوز المتواضع مكسيم مكسيمتش . وفي القصة التالية يراقب مؤلف المذكرات نفسه سلوك بتشورين . ثم يعرف القارئ نبأ وفاة بتشورين ، وفي الاخير يطلع على يوميات بتشورين . وعلى هذا النحو تتكشف طباع البطل المتناقضة المتعددة الجوانب . ان بتشورين شخص ذكى حاد الملاحظة ويتحلى بمستوى ثقافى رفيع . وهو فنى وسيم

ثرى . ولكنه يعيش حياته بلا هدف ولا آمنيات .
انه لم يذق طعم السعادة لا في الحب ولا في
الصدافة . وقد قضى افضل سنوات العمر في
الجمود والكسل . وتلاشى بلا جدوى تلك القوى

الشرقية التي لا تسبب في احيائه . وتقال الاحلام

بالمآثر العظمى احلاما لا غير . انه وحيد تعيس
لا يحمل للناس الذين يرتبط بهم مصيره غير
الهلاك والآلام .

فاى مرض جعل بتشورين يشيخ منذ الفتوة ؟
لم لم يحقق المآثر العظمى التي كان يطمح
اليها ؟ لم تفتنى عبثا تلك القوى الجبارة الكامنة
فيه ؟ لم يدوى في الخمول وبشيخ دون نضال ؟
سبب ذلك يكمن في انه لم ير الهدف
ولم يتحسس النضال في امبراطورية نيقولاى الاول ،
في اقصى سنوات الرجعية . فان يوم نضوجه
قد اعلنت حلولة — على حد تعبير الكاتب الثورى
الروسى الرائع الكسندر هيرتسين — اصوات الناقوس
الذى اذاع في روسيا نبأ اعدام المناضل الديسمبرى
بيستل ورفاقه وعن تتويج الامبراطور نيقولاى الاول .
ففى يوم من ديسمبر (كانون الاول) ١٨٢٥

قمعت في ساحة السينات في بطرسبرج الانتفاضة
التي تزعمها النبلاء الثوريون الوطنيون الروس .
في ذلك اليوم تقوضت آمال جيل كامل من
الشباب الاحرار . كان اتراب بتشورين لا يزالون
شباناً رائعين حادو غرور قاصدين على المساعدة

في المؤامرة . اما خلال السنوات العشر التالية
« فلم يصبحوا شيوخا — على حد تعبير هيرتسين
— ولكنهم فقدوا ارادتهم وتخلفوا وسط مجتمع
جبان مزر ذليل خال من الاهتمامات الحية » .
كان بتشورين في زمن ما يتألم عندما يفكر
بالعبودية الشائنة لملايين الناس . وعلى مر السنين
دفن في اعماق قواده افضل مشاعره واسماها
وتعلم مواجهة الآلام بلا مبالاة . كان في البداية
يشاط غضبا لعجزه الشخصي ، ولكنه فيما
بعد عود نفسه بالتدرج على عدم الايمان بشيء
وعدم الامل بشيء . وهكذا تحول ، على حد
تعبيره هو ، الى كسيح اخلاقيا . وهذا الكسيح
اخلاقيا هو الذي نعته ليرمونتوف ببطل زمانه .
ويتساءل القارئ : — « اي بطل هذا ؟
انه سخرية مرة ! » .

أما ليرمونتوف فقد أجاب على ذلك في
مقدمة روايته : « . . . ان «بطل من هذا الزمان»
لهو صورة حقا ، ولكنه ليس صورة رجل واحد ،
انه صورة تضم رذائل جيلنا كله . . . »

لقد أدرك القارئ ان بتشورين ، بطل الجيل
الذي ترعرع في عهد القيصر نيقولاى الاول ،
غير مذنب في تصرفاته . فالشر كامن ليس
فيه ولا في طباعه وخصاله ، بل في ظروف
نظام القنانة ، في الحكم القيصرى المطلق .
لقد كشف ليرمونتوف عن «قصة روح» بتشورين
باعتبارها ظاهرة العصر . فكتاب «بطل من هذا
الزمان» هو رواية سيكولوجية واجتماعية في آن واحد .
كان صدور رواية «بطل من هذا الزمان»
قد وافق نقمة قيصرية جديدة على مؤلفها . فقد
نفى الشاعر للمرة الثانية الى القفقاس ، حيث
كانت دائرة رحى حرب دموية طويلة الامد .
(وكان قد نفى للمرة الاولى عام ١٨٣٧ بسبب
قصيدته «مقتل الشاعر» المكرسة لبوشكين) .
لقد ثارت نقمة القيصر نيقولاى الاول والمقربين
اليه على ليرمونتوف بسبب استقلاليتيه واحتقاره

للوجهاء الأرستقراطيين وبسبب الجور السائد في
مؤلفاته المفعمة بحماس النضال والحرية والتي
انهالت ببسالة غاضبة على عيوب مجتمعه .
وفي مستهل عام ١٨٤٠ تمكن اعداء ليرمونتوف
من تدبير مباراة شارك فيها الشاعر فحكمت عليه
المحكمة بالنفي . ولم يكن مقدرا لليرمونتوف
ان يعود من المنفى . فقد قتل في مباراة يوم
٢٧ يوليو (تموز) ١٨٤١ دون ان يناهز السابعة
والعشرين من العمر .
وردنا على محاولات الحط من سمعة ليرمونتوف
وروايته كتب الناقد الديمقراطي العظيم فيساريون
بيلينسكي عن بتشورين يقول : يمكن للاخلاقيين
المترمئين ان يجاروا بانه «شخص اناني شرير
وحشي لا اخلاقي ! . . . الحق معكم ايها السادة .
ولكن ما الذي يدفعكم الى ذلك ؟ ولم تشتاطون
غضبا ؟ انكم تلعنونه ليس بسبب عيوبه —
فلديكم أكثر منها ، وعيوبكم أكثر سوادا وعارا —
بل بسبب تلك الطلاقة الباسلة وتلك الصراحة
الساخرة التي يتحدث بها عنها . . . » لقد تقبل
النقاد الديمقراطيون الثوريون الروس رواية ليرمونتوف

باعتبارها مظهراً جليلاً للفكر الحر ، كما اعتبروا
صورة بتشورين تجسيدا لظاهرة اجتماعية منتشرة ،
وتشخيصاً لعيوب جيل كامل .
كان بتشورين الذي دشّن حياته بعد انتفاضة

الديسمبرين قد قضى نحوه قبل ان يظهر على
مسرح التاريخ الجيل التالي من الثوريين الروس —
الديمقراطيين الثوريين . ان بتشورين بطل لعصر
وسيط . وهذا ما أكده بيلينسكى عندما اشار
الى الحالة النفسية الانتقالية للبطل ، تلك الحالة
«التي تحطم فيها كل قديم بالنسبة للانسان ،
بينما الجديد لم يظهر بعد ، والتي يصبح الانسان
فيها مجرد امكانية لشيء فعلى في المستقبل ،
ومجرد شبح صرف في الحاضر» .

كان بتشورين يسعى الى الحرية الشخصية
وفهمها على انها بتر لكل ما يربطه بالمجتمع
الراقى البغيض له ، وعلى انها انعزال عن الناس
الذين هم اوطأ منه بما لا يقاس . لقد تفوق
وانكمش على نفسه وقضى نحبه في وحدة وعزلة
مأساوية . ولم تكن لديه وسائل لمكافحة الوسط
المعادى له .

اما بالنسبة للبرمونتوف فكان الشعر هو هذه
الوسيلة وهذا السلاح . وعندما عرى في روايته
عيوب النظام القائم آنذاك ساعد على تطوير
الفكر الاجتماعي التقدمي ، وبذلك تكمن الأهمية
التاريخية الرئيسية لرواية «بطل من هذا الزمان» .

<http://www.library4arab.com/vb>

دار «رادوغا»

صدر عام ١٩٨٥

<http://www.library4arab.com/vb>

فيودور دوستوفسكى . الأبله . رواية فى جزئين

الجزءان ١ و ٢ .

دخل فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكى (١٨٢١ - ١٨٨١)

تاريخ الأدب الروسى والعالمى بوصفه واحدا من الأفاض

الذين أبدعوا الأدب النفسانى ، وحاميا للمذلين والمهانين .

وقد اشتهرت فى العالم كله رواياته «الأبله» و«الأخوة

كارامازوف» و«الجريمة والعقاب» و«المراهق» وقصصه الطويلة

«المساكين» و«الليالى البيض» وغيرها .

وتعد رواية «الأبله» من عيون الأدب الوجدانى الذى

أبدعته ريشة دوستوفسكى . وقد حاول الكاتب فى

هذه الرواية التعبير عن فكرته الأثيرة التى لازمته منذ

يفاعته : «تصوير الإنسان الرائع» .

يضم الكتاب مقدمة وصورا .

٢٠×١٣ سم ٥٢٨ ص

٢٠×١٣ سم ٥١٢ ص

الى القراء

<http://www.library4arab.com/vb>

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ،
وشكل عرضه ، وطباعته واعرستم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بونفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفيتى

دار «رادوغا»

صدر عام ١٩٨٥

<http://www.library4arab.com/vb>

فيودور دوستوفسكى . الأبله . رواية فى جزئين

الجزءان ١ و ٢ .

دخل فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكى (١٨٢١ - ١٨٨١)

تاريخ الأدب الروسى والعالمى بوصفه واحدا من الأفاض

الذين أبدعوا الأدب النفسانى ، وحاميا للمذلين والمهانين .

وقد اشتهرت فى العالم كله رواياته «الأبله» و«الأخوة

كارامازوف» و«الجريمة والعقاب» و«المراهق» وقصصه الطويلة

«المساكين» و«الليالى البيض» وغيرها .

وتعد رواية «الأبله» من عيون الأدب الوجدانى الذى

أبدعته ريشة دوستوفسكى . وقد حاول الكاتب فى

هذه الرواية التعبير عن فكرته الأثيرة التى لازمته منذ

يفاعته : «تصوير الإنسان الرائع» .

يضم الكتاب مقدمة وصورا .

٢٠×١٣ سم ٥٢٨ ص

٢٠×١٣ سم ٥١٢ ص

الى القراء

<http://www.library4arab.com/vb>

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ،
وشكل عرضه ، وطباعته واعرستم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بونفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفيتى

<http://www.library4arab.com/vb>

<http://www.library4arab.com/vb>

<http://www.library4arab.com/vb>